النيل فى المصادر الإغريقية

تأليف

د. أبو اليسر فرح

طبعة عام ٢٠٠٤



عين للدراسات والبحوث الانسانية والإجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د. أحمد إبراهيم الهوارى

د. شوقى عبد القوى حبيب

د. قاسم عبده قاسم

مدير النشر

محمد عبد الرحمن عميمى

تصميم الغلاف: مثنى العيسوى

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

إهداء

إلى زوجتى وإلى إبنتىَّ مىّ وسارة



مقدمة

ترجع فكرة إعداد هذا الكتاب إلى عام ١٩٨٦ حينما تلقيت دعوة من معهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة للمشاركة فى ندوة بعنوان "حوض نهر النيل " وقد شاركت فى تلك الندوة ببحث كان عنوانه "النيل فى المصادر الإغريقية " وكان من المقرر أن ينشر ضمن البحوث التى ألقيت فى الندوة . إلا أن تلك البحوث لم يتم نشرها كما كان مقررا ، وقد شجعنى الاستحسان الذى قوبل به هذا البحث من جمهور الحاضرين فى الندوة على استقصاء المزيد حول النيل فى المصادر الإغريقية .

وقد شاءت ظروف إعارتى للعمل بجامعة صنعاء لعامين متتاليين أن أتوقف عن البحث ، غير أننى تشجعت على مواصلة الدراسة عندما تلقيت دعوة من جامعة أثينا فى عام ١٩٩١ . حيث قضيت صيف هذا العام فى ضيافة هذه الجامعة . فرحت أنهل من مكتبات أثينا العامرة : مثل مكتبات المعهد الفرنسى والألمانى والبريطانى بالإضافة إلى مكتبة جامعة أثينا الغنية .

وبذلت جهودا مضنية فى تتبع كل ما ورد عن النيل فى المصادر الإغريقية . وقد تجمع لدى قدر كبير من هذه النصوص إلا أننى آثرت أن أهمل الكثير منها عند الكتابة . لأننى رأيت أنها تحتوى على مجرد إشارات عابرة دون أن تقدم مادة حقيقية تفيد البحث . لذا فان القدر الأكبر من النصوص التى استخدمت فى هذا البحث هى تلك التى كتبها الجغرافيون وهو أمر يبدو طبيعيا عند معالجة هذا الموضوع الذى يغلب عليه الطابع الجغرافى .

وعلى الرغم من أن عنوان هذا الكتاب هو النيل فى المصادر الإغريقية فاننى إضطررت فى بعض الأحيان إلى الإشارة إلى بعض المصادر الرومانية . مثل استعانتى بما جاء عند بلينى عن نظرية يوبا الثانى ملك موريتانيا عن منابع النيل . فقد وجدت أن الصورة لاتكتمل إلا بذكر هذه المعلومة .

ولايفوتنى أن أشير إلى أننى آثرت أن أستعين بالترجمة العربية التى قام بها بعض الرواد مثل ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجه للكتاب الثانى لهيرودوت والتى راجعها وعلق عليها عالم المصريات الدكتور أحمد بدوى . وكذلك ترجمة وهيب كامل لنص إسترابون ، وكذلك ترجمة الدكتور حسن صبحى بكرى لنص بلوتارك " قصة إيزيس وأوزيريس " التى راجعها الدكتور محمد صقر خفاجه . وهى ترجمات تدل بشكل واضح على أن أصحابها يملكون ناصية اللغة العربية فضلا عن معرفتهم بالنصوص التى ترجموها .

وقد فضلت الإبقاء على الأسماء كما جاءت عند مترجميها مثل عبارة "بحر أروترى " فقرة ١٥٨ فى نص هيرودوت . وكذلك إسم " بيلوزيوم" فقرة ٤ من ترجمة وهيب كامل لاسترابون على الرغم من أننى عادة أفضل إستخدام الشكل اليونانى أى بيلوزيون .

وأجد لزاماً على أن أقدم إعتذارا للقارىء المتخصص . لأننى فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب إضطررت للتعريف بشخصيات وأماكن ربما إعتبرها هذا القارىء من الاوليات . إلا أننى رأيت أنها قد تكون ذات فائدة لآخرين . لذا فاننى قمت بشرحها حتى تعم الفائدة .

والحقيقة إننى أشعر بالعرفان تجاه كل من عاوننى أثناء إعداد هذا البحث وأخص بالذكر الأصدقاء الدكتوره مرفت سيف الدين بالمتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية وكذلك المثقف الواعى ناجى رمضان عطيه . أما صديقى محمود نبيل النجيحى فاننى أشعر بدين كبير تجاهه حيث بذل جهدا رائعا فى معاونتى بمراجعة هذا الكتاب قبل أن أدفع به إلى المطبعة وأنقذه من هنات كثيرة أوقعنى فيها السهو .

والله اسأل أن يهدينا جميعا إلى ما فيه الخير للعلم وللوطن .

الفصل الأول
الإغريق ومصر

قبل الحديث عن النيل فى المصادر الإغريقية فاننا نرى أنه من الضرورى أن نتحدث عن العلاقات بين مصر والعالم الإغريقى عبر العصور كما نحاول فى هذا الفصل إعطاء نبذة مختصرة عن الكتاب الاغريق الذين تحدثوا عن مصر . وإذا كنا نراعى الترتيب التاريخى لهذه العلاقات . فاننا نتتبع المنهج ذاته فى حديثنا عن هؤلاء الكتاب . بادئين بالأقدم فالأحدث منهم .

عند الحديث عن العلاقات بين مصر وبلاد الاغريق فانه ينبغى أن نعود قليلا إلى عصور الحضارات الباكرة التى قامت فى منطقة بحر إيجه. ونعنى بها الحضارة المينوية فى كريت . والحضارة الموكينية التى قامت فى شبه جزيرة البليبونيز . جنوب بلاد اليونان (١) . وفيما يتعلق بالحضارة المينوية فقد اتفق العلماء على تقسيمها إلى ثلاث مراحل . المرحلة الأولى وتبدأ من حوالى عام ٣٠٠٠ إلى ٢١٠٠ ق . م وهى المرحلة التى كانت فيها الحضارة المينويه فى طور الاستقبال

وقد وفدت إلى كريت فى خلال هذه المرحلة مؤثرات شرقية كثيرة. أما المرحلة الثانية فانها تقع ما بين عامى ٢١٠٠ و ١٥٥٠ وهى المرحلة التى شهدت تعاظم السلطة المركزية وبناء المدن مثل العاصمة كنوسوس . وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة ما بين عامى ١٥٥٠ و ١٤٠٠ ق . م وهى معاصرة للأسرة الثامنة عشرة فى مصر (٢) وتتميز هذه المرحلة بازدياد العلاقات بين مصر وكريت . ويدل على ذلك قيام سفن الكريتيين أو الكيفيتو (كما ذكرتهم المصادر المصرية) بالتجارة مع وادى النيل(٣).

ويذهب بعض العلماء إلى القول بوجود علاقات بين مصر وكريت منذ عصور مبكرة جدا أى قبل عام ٣٠٠٠ ق . م . إلا أن هذا القول لم يثبت صحته . ولكن مما هو جدير بالذكر أنه تم العثور على أوانى من أحجار صلبة فى كريت . وهذه الأوانى مستوردة مصر . إذ أنها تحاكى النماذج المصرية . كما عثر على بعض الجعارين . غير أن هذه الآثار أو تلك لاينبغى أن تؤخذ كدليل على أن المصريين ذهبوا إلى كريت أو أن أهل كريت وفدوا إلى مصر . وربما إنتقلت هذه السلع عن طريق سوريا وفلسطين .

والواقع أنه لاتوجد دلائل قوية على انتظام العلاقة بين مصر وكريت قبل عصر الدولة الحديثة وبالتحديد عصر الأسرة الثامنة عشرة وهو ما يقابل العصر المينوى الحديث فى كريت . وفى هذه المرحلة توجد مؤثرات مصرية قوية فى الفن الكريتى ، كما وجدت فى المقابل مؤثرات كريتيه فى الفن المصرى (٤) . وتبدو هذه المؤثرات بشكل واضح فى سلسلة المقابر التى ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى طيبة والتى يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة ما بين عهد الملكة حتشبسوت حتى عهد إمنحوتب الثالث . وعلى أية حال فان العلاقات بين مصر وكريت ظلت حتى نهاية العصر المينوى علاقات تجارية بشكل أساسى . وأخذت كلمة كيفتو تختفى من النصوص المصرية . ومنذ عهد تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م) وهى الفترة التى شهدت سقوط الحضارة المينوية . وارتفاع نجم الحضارة الموكينية . بدأ تعبير (سكان جزر وسط البحر) يظهر فى الوثائق المصرية ، وهو تعبير عام إلا أنه أخذ شيئا فشيئا يرتبط بالموكينين وحدهم . كما أطلقت الوثائق المصرية عليهم إسم " دانونا " أى الدناوين وهو إسم قديم للاغريق (٥).

وبعد سقوط الحضارة المينوية فى كريت فى حوالى عام ١٤٠٠ إنتقل مركز الثقل الحضارى إلى موكيناى . التى ورثت علاقات كريت الخارجية ومنها علاقاتها بمصر . فأصبحت هناك اتصالات مباشرة بين البلدين منذ عهد إمنحوتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق . م) . وقد عثر على آثار مصرية فى أنحاء متفرقة من بلاد اليونان . منها على سبيل المثال خرطوش باسم أمنحوتب الثالث عثر عليه فى موكيناى . كما تم العثور على آوانى موكينية فى مدينة آخت آتون (تل العمارنة) عاصمة أمنحوتب الرابع الذى عرف باسم إخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق .م) ومما يروى عن هذا الملك أنه كان يشجع التجار الأجانب على العمل فى مصر . وكان يستخدم فى قصره الأوانى الموكينية . وفى عصر هذا الفرعون أخذ الفنان المصرى يقتبس من عناصر الفن الموكينى . واستمر الأمر على هذا الحال حتى نهاية عصر الأسرة التاسعة عشرة (حوالى عام ١١٨٤ ق . م)

ويذهب بعض الدارسين إلى القول بأن التجارة لم تكن هى المجال الوحيد للعلاقات بين مصر وبلاد الاغريق فى ذلك العصر . ويرون أن الموكينيين خدموا كجنود مرتزقة فى الجيوش المصرية فى عصر الأسرة الثامنة عشرة . وأنهم ساعدوا فى طرد الهكسوس من مصر . وقد بنى أصحاب هذا الرأى نظريتهم على بعض الحقائق . منها العثور على كميات من الذهب فى بعض المقابر التى ترجع إلى هذا العصر فى بلاد اليونان ، وهى كميات من الواضح أنها جاءت من خارج هذه البلاد . ورجحوا أن يكون مصدرها مصر المعروفة بثرائها . كما أن الكثير من هذه المشغولات الذهبية تبدو مصرية الصنع بينما بعضها الآخر يتضح فيه التأثير المصرى .

إلا أن لويد Lloyed في مقدمة دراسته للكتاب الثانى لهيرودوت يفند هذه الآراء قائلا [٦] " ليس هناك ما يدل على أن مصر كانت هى مصدر هذا الذهب . فقد كان بمقدور الموكينيين استيراد الذهب من أماكن أقرب إليهم من مصر مثل آسيا الصغرى . كما أنه عند تحليل هذه المشغولات الذهبية ثبت أن تركيبها يختلف اختلافا كبيرا عن تلك التى ترجع إلى عصر الأسرة ١٨ ولربما كان التأثير المصرى على طريقة صناعة هذه المشغولات من موروثات الحضارة المينويه .

وإذاكانت هناك بعض الدلائل التى تشير إلى قيام ملوك الأسرة ١٨ باستخدام جنود مرتزقة من الأجانب فليس من الضرورى أن يكون هؤلاء المرتزقة من الإغريق " .

وتجدر الإشارة إلى أن فترة سقوط الحضارة الموكينية هى فترة من الاضطراب العام الذى ساد منطقة البحر المتوسط . فهى الفترة التى شهدت تحركات القبائل فى آسيا وجنوب أوروبا . وأتت بالقبائل الدورية إلى بلاد اليونان ، والقبائل الفريجية إلى آسيا الصغرى .

وقد أدت هذه الحركة أيضاً إلى وقوع اضطرابات فى مناطق أخرى مثل محاولات الغزو التى شهدتها مصر من القبائل الليبية ، وكذلك غزو شعوب البحر فى عصر مرنبتاح ورمسيس الثالث . وهناك إشارة إلى وجود حلفاء لليبيين عند غزوهم لمصر وهم الآكياوشة . ومن المرجح أن يكون هؤلاء هم الموكينيون الإغريق . فان كلمة أكايوشا تعنى صفة آخيون التى استخدمها هوميروس للإشارة إلى الاغريق . كما أن وجودكلمة Ahhiyawa فى الوثائق الحيثية يؤكد أن المقصود بهذه الكلمة هم الآخيون [٧] .

ومجمل القول إنه فى حوالى عام ١٢٢٠ق . م قامت بعض الشعوب ومن بينهم الاخيون (الاغريق) بالعدوان على مصر بينما كانت الامبراطوريه الحيثيه آخذه فى الانهيار فى الفترة السابقة على هجوم الفريجيين على حدودها الغربية وتحدث نص مصرى(٨) عن هذا الهجوم ذاكرا أن من بين الشعوب التى هاجمت مصر الدانو "Danu" وهو يماثل إسم دانوى الذى استخدمه هوميروس للإشارة إلى الإغريق .

فترة عصور الظلام فى التاريخ الإغريقى .

لا توجد إشارات إلى العلاقات بين مصر وبلاد الإغريق بعد غزو شعوب البحر لمصر . وعلى الرغم من وجود دلائل تشير إلى العلاقات بين مصر وكريت خلال الفترة التى سبقت المرحلة الهندسية (٩) Proto - geometric فانه لايوجد من الدلائل ما يؤيد وجود مثل هذه العلاقة بين مصر وبلاد الإغريق ذاتها . ومما هو جدير بالذكر أنه مع اقتراب نهاية القرن التاسع أخذت بلاد اليونان تحاول النهوض من كبوتها، وبدأ الرخاء يعم هذه البلاد . مما أدى إلى إزدياد الحاجه إلى مواد الترف . وكان من نتيجة هذه الحاجه إستئناف العلاقات مع الشرق. ومع اقتراب نهاية المرحلة الهندسية فى الفن اليونانى فاننا نجد دلائل على إستئناف العلاقات بين بلاداليونان ومصر(١٠). وتتمثل تلك الدلائل فى وجود آنية مصرية أو متأثرة بالفن المصرى فى بعض المواقع مثل إليوسيس Eleusis . ومعبد الربة أرتيميس فى أسبرطه. ويطلق المؤرخون على هذه الفترة الواقعة بين عامى ٧٥٠ - ٦٥٠ ق . م فى تاريخ الفن اليونانى . عصر المؤثرات الشرقية . حيث يبدو بشكل جلى تأثير الفن المصرى على فنون اليونان (١١) .

وبينما يوجد هذا التأثير المصرى الواضح على الفن الإغريقى فاننا لانجد فى المقابل فخار إغريقى فى مصر . سواء أكان هذا الفخار ينتمى إلى المرحلة الهندسية أو ما قبلها . مما يدل على أن حركة التجارة بين مصر وبلاد اليونان كانت تسير فى اتجاه واحد فقط . أى من مصر إلى بلاد اليونان . ولما كان من المعروف أن الفينيقيين هم الذين كانوا يسيطرون على التجارة فى شرق البحر المتوسط آنذاك فلامناص من الاعتقاد بأن الفنون المصرية انتقلت عن طريقهم إلى بلاد اليونان .

وإذا ما حاولنا اللجوء إلى علم الآثار للبحث عن دلائل لوجود علاقات مباشرة بين مصر وبلاد اليونان فى تلك الفترة فاننا لانجد إجابة شافية .

وتقدم لنا المصادر الأدبية مساعدة أكثر فى هذا الصدد . فقد حدثنا هوميروس فى ملحمة الأوديسيا عن الاتصال المباشر بين مصر وبلاد اليونان [١٢] . وقد جاءت الاشارة إلى هذا الاتصال فى موضعين [١٣] . حيث أشار إلى الرحله التى قام بها أوديسيوس لمصر. وكيف بدأ من كريت ثم إتجه إلى مصر كقرصان . وأنه عندما القى مراسيه فى نهر النيل أصدر تعليماته المشددة لرجاله . إلا أن هؤلاء الرجال خالفوا تلك التعليمات وقاموا بنهب المناطق المجاورة فى الريف ؛ مما أدى إلى إثارة غضب ملك (لم يذكر أسمه) وأدى ذلك إلى قيام هذا الملك بمحاربة هؤلاء المغيرين وتمكن من أسرهم وكان أوديسيوس من بين هؤلاء الأسرى وأشار أوديسيوس إلى أنه لقى معاملة حسنه خلال الاسر. ثم أفرج عنه وغادرمصر فى صحبة تاجر فينيقى .

ويأخذ الدارسون هذا النص كدلالة على قيام الاغريق بالاغاره على

الشواطىء المصرية فى تلك الفترة . وثمة أمر آخر يمكن إستخلاصه من هذا النص . وهو المكانة الرفيعة التى كان يتمتع بها الفينيقيون فى مصر. وهو ما يدل عليه الافراج عن أوديسيوس وخروجه من مصر فى صحبة التاجر الفينيقى . أما الملك الذى أشار إليه هوميروس والذى حارب الإغريق وأوقعهم فى الاسر . فربما كان أحد الملوك الصغار فى الدلتا فى فترة الاضمحلال التى أعقبت سقوط الأسرة العشرين (١٤) .

ويرى الباحثون أن تلك الأحداث التى تشير إليها الأوديسيا يمكن إرجاعها إلى الفترة التى يطلق عليها عصر المؤثرات الشرقية فى الفن اليونانى . ومما هو جدير بالذكر أن القراصنة سواء أكانوا من كريت أو بلاد اليونان إعتادوا شن حملات على شواطىء البحر المتوسط فى الفترة السابقة على قيام علاقات قوية بين مصر وبلاد اليونان خلال القرن السابع ق . م (١٥) .

من القرن السابع حتى عصر الاسكندر الأكبر .

أدت زيادة الثروة فى بلاد اليونان خلال القرن السابع ق . م إلى بعض النتائج الهامة . مثل الزيادة السكانية . ولم تكن موارد بلاد اليونان تستطيع تحمل مثل هذه الزيادة . كما أدى تدفق الثروة إلى زيادة الحاجه إلى السلع الكماليه التى تأتى من الشرق . وقد ترتب على ذلك قيام حركة الاستعمار التى أدت بدورها إلى إنتعاش حركة التجارة. ومن ناحية أخرى بدأت فكرة الجنود المحترفين (المرتزقة) تظهر على نطاق واسع وقد لقيت فكرة إنشاء المحطات مثل نقراطيس فى مصر تشجيعا كبيرا . وكانت نقراطيس من العوامل الهامة التى أدت إلى تدفق

الاغريق على مصر فقد جاء إليها الجنود والمرتزقة والتجار والتجارة . وكان ينظر إلى الاغريق أحيانا باعتبارهم حلفاء للمصريين . وإلى جانب هذه الفئات التى ذكرناها من الاغريق . كان الكثيرون يأتون إلى مصر طلبا للعلم والمعرفة . ونحن نفضل الأخذ بالتقسيم الذى اتبعه لويد عند عرضه لفئات الاغريق الذين وفدوا إلى مصر فى هذا العصر .

١- المرتزقــــة .

ربما يعود أول تواجد للمرتزقة الإغريق فى مصر إلى عهد الفرعون إبسماتيك الأول (٦٦٤ - ٦١٠ ق . م) . فقد تواترت الإشارات حول الدور الذى لعبه الجنود المرتزقة من الأيونيين ومن كاريا (فى آسيا الصغرى) فى اعتلاء إبسماتيك الأول لعرض مصر ومن ذلك ما حدثنا به هيرودوت على سبيل المثال [١٦] . فقد ذكر هذا المؤرخ أن إبسماتيك انتهز فرصة زيارة بعض القراصنة من كاريا وأيونيا لمصر فاستعان بهم مما مكنه من هزيمة منافسيه وتحقيق السيطرة على كافة أرجاء مصر . وبعد ذلك أنزل إبسماتيك جنوده الإغريق فى منطقة أطلق عليها إسم Strato-peda (أى المعسكرات) . وتقع تلك المنطقة بين الفرع البوبسطى للنيل والبحر فى إتجاه مصب الفرع البلوزى . وقد ظل الجنود الإغريق يحتلون هذا الموقع لأكثر من قرن من الزمان . حتى تم نقلهم إلى منف فى عصر الفرعون أمازيس . وأشار هيرودوت الى أن آثار منازل هؤلاء الجنود كانت باقية عند زيارته لمصر [١٧] .

وتعد مستعمرة دافنى Daphnae واحدة من المستعمرات التى نزل بها الإغريق فى مصر وتقع شمال شرق الدلتا [١٨]. وهى ليست واحدة من

تلك المعسكرات التى أشار إليها هيرودوت . وعلى الرغم من وجود إشارة إلى الملك إبسماتيك فى بقايا هذه المستعمرة [١٩] . إلا أن العدد الأكبر من الإشارات تتحدث عن الملك أمازيس .

ويمكن القول أن المهمة الأولى التى أسندت إلى الإغريق فى دافنى كانت هى حماية الطرق فى المدخل الشرقى لمصر . والذى يمثل الخطر الأكبر على البلاد. وكانت الإمبراطورية الآشوية تمثل تهديدا للحدود الشرقية لمصر . وحتى بعد سقوط هذه الامبراطورية فى عام ٦١٢ ق . م فان هناك أعداء آخرين كانوا يتربصون بحدود مصر الشرقية [٢٠] .

ويرى بعض الدارسين أن المرتزقه الإغريق الذين إستقروا بمصر كانوا يتمتعون بحق الزواج من المصريات . بينما يرى فريق آخر أن حق زواج الإغريق من المصريات لم يعرف فى مصر قبل الفتح المقدونى . ومع ذلك فانه لابد من التسليم بأنه كان يوجد حالات زواج بين الإغريق والمصريات . وهو ذلك النوع من الزواج الذى يطلق عليه الزواج غير المسجل [٢١] gamos agraphos .

وقد استخدم الفرعون نخاو الثانى (٦١٠ - ٥٩٥ ق . م) المرتزقة الإغريق فى حملاته الآسيوية . ومن المعروف أن هذا الفرعون قد بدأ نشاطه العسكرى فى فلسطين فى عام ٦٠٨ ق . م . ونجح فى تحقيق السيادة المصرية على جزء من منطقة الهلال الخصيب فيما بين عامى ٦٠٨ و ٦٠٥ ق . م . إلى أن هزمه الملك البابلى نبوخذنصر فى قرقميش فى عام ٦٠٥ ق . م [٢٢] وقد أكدت الدراسات الآثارية وجود دروع إغريقية فى قرقميش يرجع تاريخها إلى منتصف القرن السابع ق . م [٢٣] .

وربما يذكر للملك نخاو أيضا أنه في إطار رغبته في تنشيط تجارة مصر الخارجية فانه فكر في حفر قناة تصل ما بين الفرع البلوزي للنيل والبحر الأحمر (٢٤) .

وقد استمر فراعنة هذه الأسرة في استخدام المرتزقة الإغريق في جيوشهم . فقد استخدم الفرعون إبسماتيك الثاني هؤلاء المرتزقة في حملاته على النوبة (عام ٥٩٣ ق . م) .

وقد سجل أحد الضباط الاغريق الذين اشتركوا في هذه الحملة نقشا على أحد تماثيل رمسيس الثاني في معبد " أبو سمبل " . أشار فيه إلى الجنود ذوي اللسان الأجنبي الذين اشتركوا في هذه الحملة (٢٥) .

إلا أن المرتزقة الإغريق اهتزت مكانتهم في عهد الفرعون أبريس Apris (٥٨٨ - ٥٦٨ ق . م) فقد أسرف هذا الفرعون في الاهتمام بالإغريق مما أوغر صدور المقاتلين المصريين . خاصة بعد الحملة الفاشلة على ليبيا . مما أوجد مجالا لاتهامه بانه يسعى إلى التخلص من المقاتلين المصريين (٢٦). فثار عليه الجيش بقيادة أحمس (أمازيس) ولقي أبريس حتفه خلال هذه الثورة . ويذكر هيرودوت أن نفور المصريين من الإغريق قد بلغ أقصى مداه بعد هذه الأحداث حتى أنهم كانوا يأنفون من تقبيل الإغريق أو إستخدام أدواتهم (٢٧) . إلا أن الإغريق لم يلبثوا أن تمكنوا من إستعادة نفوذهم في عهد الفرعون أحمس الثاني (٥٦٨ - ٥٢٥ ق . م) فقد ارتأى هذا الفرعون أنه لاينبغي له أن يخسر صداقة الإغريق . لذا فقد واصل سياسة تشجيع الاغريق على الاستقرار في مصر . وقد اعتبره الإغريق أكثر ملوك العصر الصاوي حكمة . وأطلقوا عليه لقب صديق الإغريق .

وقد تبرع لاعادة بناء معبد دلفى (فى بلاد اليونان) الذى دمّره حريق فى عام ٥٤٨ ق . م [٢٨] .

ويبدو أن أحمس الثانى استمر فى سياسة استخدام المرتزقة الإغريق فى جيشه . فقد قاتل هؤلاء المرتزقة فى صفوف الجيش المصرى فى عهد خليفته إبسماتيك الثالث الذى هزمه الملك الفارسى قمبيز فى بلوزيون عام ٥٢٥ ق . م . وكانت هذه الموقعة بداية للحكم الفارسى فى مصر [٢٩] .

٢- التجار .

ترجع بداية ظهور التجار الإغريق فى مصر إلى أوائل عهد الملك إبسماتيك الأول . فقد ذكر ديودور الصقلى أنه كان أول من فتح أبواب البلاد للتجار الأجانب مثل الاغريق والفنيقيين [٣٠]. ومن الجدير بالذكر أنه تم العثور على آنية مصرية فى كريت وساموس وأماكن متفرقة من بلاد اليونان وهى آنية يرجع تاريخها إلى حوالى عام ٦٥٠ ق . م ومما لاشك فيه أن هذه الآنية من ثمار النشاط التجارى بين مصر وبلاد اليونان[٣١] . وقد ذكر إسترابون أن بعض التجار جاؤوا من ميليتوس إلى مصر فى عهد الملك إبسماتيك [٣٢] . وقد أقلتهم إلى مصر ثلاثون سفينة. حيث أسسوا مستعمرة لهم عند مصب النيل البولبتينى Bolbtinic[٣٣]. ولم يلبث هؤلاء التجار أن تقدموا إلى الداخل وأقاموا مدينة تدعى نقراطيس Naucratis . وقد ظلت هذه المدينة لمدة ثلاثة قرون مركزا للتجارة والحضارة الاغريقية فى مصر . إلى أن احتلت الإسكندرية هذه المكانة . ويبدو أن الحديث الذى ورد عند إسترابون عن

قيام الاغريق بمحاربة المصريين وقهرهم لإنشاء مدينة نقراطيس لايعدو أن يكون نوعا من الدعاية والتفاخر الإغريقى المبالغ فيه [٣٤] .

ولم يلبث أن لحق بأهل ميليتوس فى الاستقرار بمدينة نقراطيس إغريق من اماكن أخرى مثل جزيرتى ساموس Samos وإيجينا Aegina حيث إشتغلوا بالتجارة [٣٥] .

وقد تعرضت نقراطيس لمحنة عظيمة خلال الثورة ضد الملك أبريس والتى قادها أمازيس (أحمس) . وبصفة خاصة بعد إنتصار المعسكر المناوىء للإغريق . فقد حاول أمازيس أن يسترضى المصريين عن طريق الحد من النشاط التجارى للاغريق . لذا فقد ألزم السفن الإغريقية بأن يقتصر تعاملها على مدينة نقراطيس فقط . وحظر على التجار الإغريق ممارسة نشاطهم فى باقى أرجاء مصر . وبما أن مدينة نقراطيس أصبحت هى المركز الوحيد للنشاط التجارى الإغريقى فى مصر . فقد تولدت حاجه ملحة إلى توسيع المدينة . مما اضطر الملك أمازيس إلى منح المدينة مزيدا من الأرض . لتوسيع رقعتها وقد أتاح هذا التوسع للمدينة استيعاب عدد اكبر من الوافدين الإغريق . الذين أقاموا معبدا للآلهة الإغريقية بالمدينة .

والحقيقة أننا لانعرف الكثير عن نظم مدينة نقراطيس قبل عصر أمازيس . ولكن من المرجح أنه كان يوجد بالمدينة مجلس شورى Boule وكذلك هيئة مواطنين Eclesia . مثلما كان الحال فيما بعد خلال العصرالهللينيستى . أما عن شكل العلاقة بين نقراطيس وباقى أنحاء مصر فيحدثنا هيرودوت بأن قرار أمازيس الذى قضى بأن تكون

نقراطيس هى المركز التجارى الوحيد للإغريق فى مصر . لم يكن يقتصر على الاستيراد فقط . بل إنه إنسحب أيضا على السلع التى كانت مصر تصدرها لبلاد الإغريق . لذا فان السلع المصرية المعدة للتصدير كان يجرى تجميعها فى نقراطيس أولا . وكذلك الحال فيما يتعلق بالسلع التى كانت تستورد من بلاد اليونان . حيث كانت توضع فى نقراطيس تمهيدا لتوزيعها على سائر أنحاء مصر[٣٦] .

وليست لدينا معلومات كافية عن العلاقات بين إغريق نقراطيس والمصريين . ومن المعروف أن أهل هذه المدينة لم يكونوا يتمتعون بحق التزاوج مع المصريين فى عهد الامبراطور هادريان [٣٧] .إلا أننا لانستطيع القطع بأن هذا الوضع نفسه كان سائدا خلال القرن السادس ق . م . أما المستعمرات الإغريقية الأخرى فى مصر فاننا لانعرف عنها سوى النذر اليسير . من خلال إشارة هيرودوت إلى التجار الإغريق الذين يعيشون فى بعض مدن مصر . وهناك معلومات عن منطقة تسمى نيابوليس Neapolis فى إخميم[٣٨] . وربما تكون نواة للجالية التى تبلورت فى مصر فى هذه المنطقة خلال العصر الهللينيستى . كما أشار هيكاتيه إلى أهل إفيسوس ولسبوس وقبرص وساموس من الإغريق الذين استوطنوا ضفاف النيل . وربما كان هؤلاء مندوبين تجاريين لبلادهم فى مصر . ويمكن أن نأخذ فى الاعتبار أيضا الفخار الإغريقى الذى عثر عليه فى أنحاء متفرقة من مصر . باعتباره دليلا على توثق العلاقات التجارية بين مصر وبلاد اليونان فى هذه الفترة [٣٩] .

وكانت توجد فى مصر بضائع يقبل عليها التجار الإغريق . وتأتى على رأسها غلال مصر ومما هو جدير بالذكر أن الكثافة السكانية التى

ازدادت فى بلاد اليونان خلال القرن السابع ق . م أوجدت حاجة إلى مزيد من الغلال . توجد إشارات فى الأدب الإغريقى إلى السفن التى تصل إلى بلاد اليونان محملة بالغلال[٤٠] . وفى المقابل كان المصريون يستوردون الفضة من بلاد اليونان . كما نشطت حركة تصدير الخزف من مصر إلى بلاد اليونان . ويدل على ذلك تلك الكميات التى عثر عليها من المنتجات الخزفية المصرية فى بلاد اليونان وبعض المناطق المرتبطة بها: مثل منطقة جنوب إيطاليا ، وسواحل البحر الاسود . كما كانت مصر تصدر المنسوجات الكتانية وأوراق البردى والعاج إلى بلاد اليونان. وتستورد منها الخمور [٤١].

٣- الملاحون .

ذكر هيرودوت أن الإغريق ساعدوا المصريون فى بناء أسطولهم البحرى [٤٢] . وهو يعنى على وجه التحديد قيام الإغريق ببناء ذلك الطراز من السفن المعروف بالسفن ذات الصفوف الثلاثة من المجدفين Triremes . من أجل أسطول الملك نخاو . مما يدل على أن الاغريق لعبوا دورا هاما فى شئون البحرية المصرية فى ذلك العصر إلا أن هذا الرأى لا يلقى قبولا عند بعض الدارسين . فهم يرون أن هذا النوع من السفن لم يكن قد ظهر إلى الوجود فى عهد نخاو . بينما يرى البعض الآخر أن مثل هذا الطراز من السفن ظهر لأول مرة عند الفنيقيين . ويشير لويد[٤٣] فى دراسته لهذا الأمر إلى نص مصرى يرجع إلى هذا العصر يتحدث عن بناء سفن ليست مصرية الطراز ، كما يسوق عبارة وردت عند المؤرخ الاغريقى ثوكوديديز Thucydides ذكر فيها أن أهل كورنث فى بلاد اليونان هم أول من اخترع نموذج السفن ذات الصفوف الثلاثة من

المجدفين . ويخلص هذا الباحث إلى القول بأن هذا الطراز من السفن كان معروفا فى عهد الملك نخاو . وأنه كان متاحا لهذا الملك أن يقتنى مثل هذا الطراز من السفن فى أسطوله (٤٤) . وهناك من الأدلة ما يؤيد هذا الرأى مثل كثرة وجود المرتزقة الاغريق فى مصر خلال هذا العصر . كما بينا من قبل . كما أن المؤرخ ثوكوديديز ذكر أن الدولتين اللتين كانتا تتمتعان بالريادة فى بناء هذا النمط من السفن هما كورنث وساموس . ومن المعروف أن هاتين الدولتين كانتا تربطهما علاقات قوية بمصر خلال العصر الصاوى ويدل على ذلك وجود فخار كورنثى فى مدينة نقراطيس بمصر يرجع تاريخه إلى نهاية القرن السابع ق . م . أما عن علاقات ساموس بمصر فانها تتضح من خلال مشاركة ساموس فى تأسيس مدينة نقراطيس . وكما ذكرنا آنفاً فان نقراطيس كانت تحتل مكانة هامة فى العلاقات التجارية بين مصر وبلاد اليونان .

وإذا كنا قبلنا بالرأى الذى يؤيد قيام نخاو باستخدام السفن ذات الصفوف الثلاثة من المجدفين فى أسطوله . فان بناء مثل هذا الطراز يحتاج إلى خبرة أجنبية . وكان من السهل على نخاو أن يجد مثل هذه الخبرة على بعد حوالى عشرة أميال من عاصمته سايس . أى فى مدينة نقراطيس التى كانت تعج بالتجار وخبراء الملاحة الإغريق .

كما أن مستعمرة " المعسكرات " التى أقامها إبسماتيك الأول للمرتزقة الإغريق الذين جلبهم من أيونيا وكاريا ، والتى هجرت بعد هزيمة أبريس فى عام ٥٧٠ ق . م كانت مستعمرة لرجال البحرية أيضا إلى جانب كونها معسكرا للقوات البرية . ويروى هيرودوت أنه رأى فى أطلال هذه المستعمرة مزالق للسفن (٤٥). مما يدل على وجود مثل هذه

السفن فى أسطول مصر فى عهد إبريس. وبالتالى فى عهد نخاو . ولايغيب عن الذهن أن الملك نخاو كان يعمل على بناء قوة بحرية مصرية لكى تكون قادرة على التصدى للهجمات المتوقعة من القوى الآسيوية وكان يضع فى حسبانه الخطر الذى يكمن فى قوة الاسطول الفنيبقى . لذا فان استخدام السفن ذات الثلاث صفوف من المجدفين وهى سفن قوية كان يعد أمرا حيويا. وربما جاءت فكرة حفر قناة بين النيل والبحر الأحمرفى إطار رغبته فى تدعيم قوته البحرية .

٤- الإغريق كحلفاء للمصريين .

فى أعقاب إرتقاء أرتاكسركسيس الأول Artaxerxes 1 لعرش الامبراطورية الفارسية (٤٦٥ -٤٦٤ ق . م).سادت تلك الامبراطورية حالة من الاضطراب . وكانت ولاية مصر من بين الولايات التى شقت عصا الطاعه. وقاد المتمردين فى مصر أمير ليبى يدعى إيناروس Inaros بن إبسماتيك . وقد ذكر المؤرخ الأثينى ثوكوديديز أن هذا التمرد استمر لست سنوات [٤٦]. واتخذ إيناروس منطقة تقع بالقرب من الموقع الذى بنيت عليه الاسكندرية فيما بعد قاعدة له . حيث قام بتجميع جيش من المصريين والمرتزقة . ولم تكن الحامية الفارسية فى مصر قادرة على قمع هذا التمرد. فلم يكن هناك داع لوجود حامية فارسية كبيرة فى مصر . لأن هذه الولاية ظلت هادئة لمدة عشرين عاما. قد أتاح ذلك لايناروس الفرصة للاستيلاء على منطقة غرب الدلتا . ولم يلبث أن هرع إلى أثينا طالبا المساعدة . وقد تلقفت أثينا هذا الطلب وسارعت بتلبية طلبه . لأن هذا كان يتماشى مع السياسة الآثينية التى

كانت ترمى إلى بث القلاقل فى أرجاء الامبراطورية الفارسية . وقامت بارسال أسطول من مائتى سفينه لمساعدة إيناروس. وكان هذا الأسطول قريبا من الشواطىء المصرية. حيث كان يؤدى بعض المهام فى قبرص.

وفى عام ٤٥٩ - ٤٥٨ ق .م أرسل الفرس حملة إلى مصر لقمع تمرد إينااردس . وقد تألفت هذه الحملة من ٤٠٠,٠٠٠ جندى إلى جانب ٨٠ سفينة . والتقى الجيش الفارسى مع إيناروس عند بابريميس Papremis إلى الغرب من الفرع الكانوبى بالقرب من دمنهور الحاليه . وفى هذه الموقعه أحرز إيناروس نصرا باهرا وتمكن من قتل ١٠٠,٠٠٠ من الجنود ومعهم قائد الحملة وكان أحد أبناء الملك الفارسى دارا . وفى نفس الوقت إشتبك الأسطول الفارسى مع الأسطول الاثينى ولقى نفس مصير القوات البرية وخسر ٥٠ سفينة . وبعد الهزيمة أضطر الفرس إلى الانسحاب إلى منف . حيث حاصرهم الاثينيون لعام كامل. وقد مكنت هذه الانتصارات إيناروس من السيطرة على الدلتا ومصر العليا ومنف . فيما عدا القلعة التى تحصن فيها الفرس ومؤيدوهم .ويذكر ثوكوديديز أن الوضع العسكرى خلال عام بأكمله إقتصر على مناوشات بين الطرفين (٤٧) . ولكن فى عام ٤٥٨ - ٤٥٧ ق . م أرسل الفرس جيشا جرارا يتألف من ٢٠٠,٠٠٠ جندى و ٣٠٠ سفينة . وقد توجه هذا الجيش إلى منف عن طريق الفرع البلوزى للنيل . فحاصرها بعد أن قام بعدة عمليات عسكرية أصيب خلالها إيناروس . ولم يجد هذا الأخير سبيلا غير الفرار ومعه ستة آلاف من حلفائه الآثينيين إلى جزيرة تقع شمال منف على رأس الدلتا المصرية . وتبعه القائد الفارسى

وضرب حصارا حول الجزيرة . ثم قام بتجفيف القنوات التى يرسو فيها الأسطول الآثينى . عن طريق تحويل مسار المياه المتجهة إليها : مما أرغم إيناروس وصحبه على الاستسلام . ويذكر ثوكوديديز أن غالبية الآثينيين لقوا حتفهم ، بينما تمكن القليلون من الهرب إلى قورينى (برقه). والقى القبض على إيناروس وأعدم شنقا .

ولم يكن ما حدث فى تلك الجزيرة آخر الكوارث التى لحقت بالآثينين فى مصر . فان آثينا أرسلت أسطولا من ٥٠ سفينة لمؤازرة جيشها فى مصر ، وعندما وصل هذا الاسطول إلى مصر القى مراسيه فى الفرع المنديسى للنيل . ولم يكن قادته يدرون شيئا عما حدث لرفاقهم فى مصر فأطبق عليهم الفرس من البر والأسطول الفينيقى من البحر فتحطمت غالبية السفن الآثينية ولم ينج منها إلا القليل .

وهكذا نجح الفرس فى إعادة مصر إلى حظيرة الامبراطورية . إلا أن أحد جيوب المقاومة ظل قائما فى أحراش الدلتا . وقد تولى قيادة المقاومة شخص يدعى أميرتايوس Amyrtaeus يصفه ثوكوديديز بلقب ملك(٤٨)ولم يتعظ الآثينيون من جراء الكارثة التى لحقت بهم من قبل . فقد سارعوا بمد يد العون لهذا المتمرد الجديد فأرسلوا ٦٠ سفينة حربية لمساعدته . ولانعلم على وجه التحديد ماذا فعلت تلك السفن. ولكن الثابت لدينا أن الثورة ضد الفرس قد فشلت وعادت مصر بكاملها إلى حظيرة الامبراطورية الفارسية وكانت تلك هى آخر المساعدات التى قدمها الإغريق لمصر .

٥- طلاب العلم .

توجد إشارات كثيرة فى الأدب الاغريقى إلى الزيارات التى قامت بها بعض الشخصيات الهامة فى الحضارة الإغريقية لمصر وأسهبت تلك المصادر فى الحديث عن فضل مصر(٤٩) على بلاد اليونان . وقد أشار ديودور الصقلى إلى عدد من الشعراء والفلاسفة الإغريق الذين زاروا مصر . وهم أورفيوس وهوميروس وليكورجوس وسولون وديموقريطس وفيثاغوراس وأفلاطون . بالإضافة إلى بعض الفنانين . كما نعلم أن الفيلسوف طاليس (٦٢٤ - ٥٤٦ ق . م) زار مصر ودرس علم المساحة، واهتم بمسألة فيضان النيل ويُعزى إليه أنه اقترح طريقة لقياس ارتفاع الأهرام(٥٠). أما زيارة المشرع الأثينى سولون فقد تحدث عنها هيرودوت(٥١) وأشار إلى أنه أخذ عن الملك المصرى أمازيس فكرة إلزام كل مواطن بأن يقدم بيانا بثروته إلى الدولة فى كل عام . ولكن ينبغى أن نذكر أن بعض هذه الشخصيات التى ذكرها ديودور أسطورية .

ولعل أقدم الجغرافيين الإغريق الذين زاروا مصر هو هيكاتايوس من ميليتوس (أو هيكاتيه الملطى كما يذكر عند البعض) . وكانت زيارته لها فى عام ٥٢٠ ق . م . وقد أعد أول كتاب يحتوى على وصف منظم للعالم المعروف للإغريق آنذاك . ويروى عن رحلة هيكاتيه فى مصر أنه أبحر فى نهر النيل حتى طيبة . وتحدث مع كهنة آمون . ولكن لم يصل إلينا إلا شذرات من كتاباته . إلا أنه من الواضح أنه ذكر تفصيلات كثيرة عن مصر ؛ لأن ستيفانوس البيزنطى ذكر فى عام ٦٠٠ ميلادية أسماء ١٥ مدينة اعتمادا على كتابات هيكاتيه .

أما هيرودوت " أبو التاريخ " فقد زار مصر فى عام ٤٥٠ ق . م . وقضى فى هذه الزيارة ثلاثة شهور ونصف[٥٢] . وجال خلال هذه الزيارة بأنحاء مصر وأبحر فى نهر النيل حتى جزيرة إلفنتين بالقرب من الشلال الأول . وخصص الكتاب الثانى من مؤلفه الضخم الذى يشتمل على تسعة كتب للحديث عن مصر . وعلى الرغم من أن اهتمامه انصب على الحديث عن تاريخ البلاد وعادات المصريين . فان كتابه احتوى على معلومات جغرافية هامة . ولعل أكثر الاشياء التى أثارت فضول هيرودوت هى تلك التى تتعلق بنهر النيل .

وبحلول عام ٣٣٢ ق . م لم يعد هناك مجال للحديث عن مصر وبلاد اليونان باعتبارهما عالمين منفصلين . ففى خريف هذا العام عبر الاسكندر الأكبر بوابة مصر الشرقية أى بلوزيون (تل الفرما) . ونجح الاسكندر ملك مقدونيا وقائد العصبة الاغريقية فى تحرير مصر من نير الحكم الفارسى . وتعد فتوحات الاسكندر فى مصر والشرق فتحا جديدا فى العلوم الانسانية وعلم الجغرافيا على وجه الخصوص[٥٣] .

وبعد وفاة الاسكندر الاكبر فى عام ٣٢٣ ق . م قسمت ولايات الامبراطورية بين قادة الجيش . وآلت مصر إلى أحد هؤلاء القادة ويدعى بطلميوس بن لاجوس . الذى أسس أسرة حاكمة فى مصر دام حكمها ما يقرب من ثلاثة قرون هى أسرة البطالمة . وكان آخر حكام مصر من هذه الأسرة الملكة الشهيرة كليوباتره السابعة . التى توفيت فى عام ٣٠ ق.م وكان بطلميوس الأول حريصا على تشجيع الإغريق على الاستقرار بمصر وقد توافد الإغريق إلى مصر فى أعداد كبيرة نتيجة لهذه السياسة [٥٤].

وقد حرص البطالمة على توفير المناخ الذى يشجع الإغريق على الاستقرار بمصر . فاستكمل بطلميوس الأول ومن بعده خليفته مدينة الاسكندرية . وأقام بطليموس الأول مدينة إغريقية جديدة فى الصعيد حملت إسمه . وهى مدينة بطوليس (موقعها عند مركز المنشاه حاليا بمحافظة سوهاج) . وفى نفس الوقت ظلت مدينة نقراطيس الإغريقية القديمة تتمتع بمكانتها المتميزة .

وإلى جانب المدن الاغريقية الثلاث : وهى نقراطيس والاسكندرية(٥٥) وبطوليس انطلق الإغريق إلى سائر أرجاء مصر للاستقرار فيها . وكان لمنطقة الفيوم النصيب الأوفر من حركة الاستيطان الإغريقى .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه المنطقة حظيت باهتمام البطالمة فقامت الدولة باستصلاح مساحات شاسعة من الأرض . من أجل توفير أراضى للقادمين الجدد ، وقامت بتوزيع الأراضى الزراعية على الجنود ورجال الدولة من الإغريق . وقد حرص إغريق مصر على التمسك بالوشائج التى تربطهم بمواطنهم الأصلية وانتظموا فى جماعات قوميه . وكان لتلك الجماعات مؤسساتها الاجتماعية والتعليمية . وعلى رأسها معاهد الجمنازيون gymnasion . التى كانت تؤدى وظيفة اجتماعية وتربوية فى آن واحد . ولعل أهم وظيفة كان ينبغى على معاهد الجمنازيون أن تؤديها هى الحفاظ على الهوية الاغريقية . وذلك عن طريق تعليم أبناء الاغريق لغة بلادهم الأصلية وحضارتها . وحتى تظل هذه المعاهد ذات صبغة حضارية خالصة فقد حرص الإغريق على ألا يتسرب إليها المصريون .

ويمكن أن نستخلص من المعلومات المتوافرة لدينا أن التعليم الإغريقى فى مصر خلال عصر البطالمة كان يتشكل من ثلاثة مراحل.[٥٦]. المرحلة الأولى ينخرط فيها الأطفال ما بين سن السابعة وحتى الرابعة عشرة . ويتلقى التلميذ خلالها المبادىء الأولى للعلوم . أما الرحلة الثانية وهى مرحلة الجمنازيون . فكانت توجد معاهدها فى المدن والقرى الكبرى . ويستمر التلميذ فى الدراسة بهذه المرحلة من سن الخامسة عشرة وحتى الثامنة عشرة . ويستطيع التلميذ الموسر أن يواصل دراسته العليا بعد ذلك فى الاسكندرية . أو إحدى المدن الكبرى على يد كبار الاساتذة . وإلى جانب المدارس النظامية كان أبناء الخاصة يتلقون تعليماً متميزاً . فكان أبناء الملوك يتلقون تعليمهم فى القصر الملكى على يد خيرة العلماء . وكان البطالمة يحرصون على أن يتعلم أبناؤهم فى القصر مع عدد من أبناء العائلات الكبيرة . وذلك حتى يتسنى إختيار كبار المسئولين من بينهم فيما بعد . ومما يذكر فى هذا الصدد أن الملك بطلميوس الثانى كان تلميذا للفيلسوف إستراتون Straton والشاعر فيلتاس Philitas . مما جعل منه ملكا محبا للعلم والثقافة . فكان شغوف بالجغرافيا والتاريخ الطبيعى . كما كان بطلميوس الثالث تلميذا للمعلم أبوللونيوس Apollonios الذى كان شاعرا وأمينا لمكتبة الاسكندرية . من المعروف أن الملكة كليوباتره السابعة كانت تتمتع بقسط وافر من العلم والمعرفة إلى جانب إتقانها للعديد من اللغات .

وإذا ما أردنا التعرف على الموضوعات التى كان يدرسها تلاميذ المدارس فاننا نلاحظ أن أهمها كان الأدب وبخاصة الشعر . وتحتل أشعار هوميروس المكانة الأولى . فقد تم العثور على كميات كبيرة من

نصوص البردى وكسر الفخار التى تحتوى على أشعار هوميروس(٥٧). كما كان الطلاب يدرسون الشعر الملحمى لهسيود Hesiod . والشعر الغنائى للشعراء أمثال الكمان وسافو وبندار. وكذلك شعراء الدراما الأثينيين . وكذلك أعمال شاعر البلاط السكندرى كاليماخوس Calemachos (٥٨). وفى مجال النثر كان الطلاب يدرسون نصوص الفلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو . وكتابات المؤرخين مثل هيرودوت وثوكوديديز واكسينوفون Xenophon . إلى جانب أعمال الخطباء المشهورين مثل إيسوقراط وديموسثنيز . ويمكن القول بأن مناهج التعليم الاغريقى فى مصر لم تكن تختلف عن مثيلتها فى بلاد اليونان ذاتها(٥٩) .

وقد لعبت دار العلم Mouseion التى أقامها البطالمة فى الاسكندرية على غرار مدارس اليونان القديمة مثل أكاديمية أفلاطون دورا هاما فى تشجيع العلماء وتطوير العلوم (٦٠) . وحظى علماء هذه الدار باهتمام الملوك فتفرغوا للانكباب على أبحاثهم ذلك أن الدولة كانت تُجرى عليهم الرواتب مما يكفيهم مؤونة البحث عن لقمة العيش . ومما هو جدير بالذكر أن دار العلم كانت مؤسسة للبحث العلمى ولم تكن مؤسسة تعليمية . إلا أن طلاب العلم كانوا يتقاطرون عليها من كافة الأرجاء للاستفادة من علمائها . وإلى جانب دار العلم أقيمت مكتبة الاسكندرية الشهيرة لكى ينهل منها العلماء والدارسون . وقد حرص البطالمة على تزويد هذه المكتبة بكل ما جادت به قرائح العلماء فى بقاع الأرض (٦١). حتى اكتظت هذه المكتبة بالكتب ولم تعد قادرة على إستيعاب المزيد . لذا فقد تم إقامة مكتبة أخرى فى معبد السرابيوم

بالاسكندرية عرفت باسم المكتبة الصغرى ، تمييزا لها عن المكتبة الأم. ومن المعروف أن المكتبة الكبرى ظلت تمارس دورها حتى دمرت فى عام ٤٨ ق . م . خلال حرب الاسكندرية التى خاضها يوليوس قيصر إلى جانب كيلوباترة السابعة ضد أخيها بطلميوس الثالث عشر .

وقد برع علماء مدرسة الاسكندرية فى كافة العلوم . وعكفوا على دراسة كتب التاريخ والجغرافيا . وفى عهد بطلميوس الثانى وضع مانيثون كبير كهنة (أون) هليوبوليس Heliopolis كتابا باللغة الإغريقية عن تاريخ مصر القديم . أما إراتوسثينز Eratosthenes . الذى يعد من أهم الجغرافيين فى العالم القديم فقد عاش فيما بين عامى ٢٧٥ - ١٩٤ ق . م وشغل منصب أمين مكتبة الاسكندرية الكبرى . فقد وضع كتابا ضخما عن التاريخ لم تصلنا منه غير شذرات. إلا أن كتاباته فى الجغرافيا تحتل مكان الصدارة وأهم مؤلفاته فى هذا المجال كتابان أحدهما عنوانه " قياس أبعاد الأرض " أما عنوان الآخر فهو "علم الجغرافيا". وقد وصلت إلينا أفكاره عن طريق إسترابون الجغرافى المعروف . ولايفوتنا أن نذكر فى معرض الحديث عن إراثوسثينز أنه تمكن من تقرير محيط الكرة الأرضية بطريقة تثير الإعجاب[٦٢] ويليه الجغرافى السكندرى أجثارخيديس Agatharchides الذى نقل عنه ديودور الصقلى الكثير . أما عن ديودور فهو من إغريق صقلية فى جنوب إيطاليا . زار مصر فى عام ٥٩ ق . م . وأخذ فى إعداد مؤلفه عن مكتبة التاريخ وفرغ منه فى عام ٣٠ ق . م وذكر الكثير عن مصر والنيل . وهو ما سوف نتناوله فى الصفحات التالية [٦٣] .

ويعد إسترابون Strabo من أعظم الجغرافيين فى العالم القديم وعاش فيما بين عامى ٦٣ ق . م و ٢٤ ميلادية . وينبغى ألا ننسى أن مصر قد أصبحت ولاية رومانية منذ عام ٣٠ ق . م ولكن الثقافة الإغريقية سادت مصر خلال العصر الرومانى أيضا[٦٤] . وقد عاش إسترابون فى روما ؛ ولكنه قضى بعض الوقت فى الاسكندرية . وتجول فى أنحاء مصر فى عام ٢٤ - ٢٥ م . وأبحر فى نهر النيل حتى جزيرة فيله فى معية صديقة وإلى مصر آنذاك . وكتب إسترابون مؤلفا ضخما باللغة الإغريقية أطلق عليه إسم " الجغرافيا " ويشمل هذا المؤلف سبعة عشر كتابا ، خصص منهما الكتابين الأولين للحديث عن الجغرافيين الذين سبقوه ؛ إلا أن هذين الكتابين لم يصلا إلينا . ومن حسن الحظ أن حديثه عن مصر جاء فى الكتاب السابع عشر . واحتل وصف مصر ثلثى هذا الكتاب . وحدثنا فيه عن مساحة مصر وعن النيل وفروعه وتقسيمات مصر الإدارية . والسكان والطرق التجارية بين وادى النيل والبحر الأحمر[٦٥] .

وممن الكتاب الذين استعنا بكتاباتهم بلوتارك Plutarchos الذى ولد فى عام ٤٦ ميلادية فى بلاد اليونان وتعلم الفلسفة فى آثينا وكان محبا للسفر والترحال ، وكانت مصر من البلاد التى زارها . وقد إفتتح مدرسة لتعليم التاريخ والفلسفة والأخلاق . وكتب فى شتى المجالات ولعل من أشهر كتاباته رسالته عن إيزيس وأوزوريس[٦٦] . وتوفى بلوتارك فى عام ١٢٠ ميلادية بعد حياة حافلة بالعطاء .

ثم يأتى أخيرا من الجغرافيين الذين كتبوا باللغة الاغريقية الجغرافى كلوريوس بطلميوس Claudius Ptolemaeus . وكان أحد علماء الفلك

السكندريين وُلدِ فى عام ٩٠ ميلادية وعاش حتى عام ١٦٨ . ولاينبغى أن يؤدى تشابه الاسماء إلى الاعتقاد بأنه ينتمى إلى عائلة البطالمة . وهو من مواليد مدينة بطوليس الإغريقية بصعيد مصر . إلا أنه أمضى الجانب الاكبر من حياته بمدينة الاسكندرية . حيث أخذ فى إعداد أبحاثه فى الفلك والجغرافيا ، واشتمل كتابه فى الجغرافيا على العديد من الخرائط للعالم المعروف فى أيامه . وينقسم هذا الكتاب إلى ثمانية أجزاء تحدث فيها عن مصر وأفريقيا والنيل[٦٧] .

وبعد بطلميوس هو آخر الكتاب الذين ينبغى أن نشير إليهم فى إطار اهتمامنا بالكتاب الاغريق الذين تحدثوا عن مصر والنيل .

الهوامش

١- نود أن نلفت نظر القارىء إلى أننا نستخدم صفات يونانى وإغريقى وهللينى بمعنى واحد . فيما يتعلق بهذه التسميات إنظر :

عبد اللطيف أحمد على.التاريخ اليونانى.دارالنهضة العربية بيروت ١٩٧١ .ص٨

٢- سيد الناصرى : الاغريق . تاريخهم وحضارتهم . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨١ ص٤٢ .

٣- عن معنى صفة كيفيتو إنظر :

جان فركوتيه . قدماء المصريين والاغريق . مترجم . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٠ص٧٢ .

٤- عبد اللطيف أحمد على . المرجع السابق ص ٦٥٩ .

٥- عبد اللطيف أحمد على . المرجع السابق ص٦٦٠ .

٦- Lloyed.A.B, Herodotus Book II Introduction . Leiden. Brill P .5.

٧- إنظر : لطفى عبد الوهاب يحيى : هوميروس . تاريخ حياة عصر الاسكندرية ١٩٦٨ ص٣٠ .

٨- Gardiner . Egypt . of the Pharaohs. p p . 284 ff .

٩- وهى إحدى مراحل تاريخ الفن اليونانى (القرن العاشر ق . م)

Boardman . J , Greek Art . London 1981 p . 22 .

١٠- أى خلال القرن التاسع والثامن ق . م أنظر :

Boardman . J , op . cit . P . 23 .

١١- Boardman . J , op . cit . P . 58 .

١٢- يرى الدارسون أن لغة هوميروس هى لغة القرنين التاسع والثامن ق . م .

ومن ثم فانه يكتب عن المناخ السائد أيامه . مما يدل على أن فكرة إغارة القراصنة الاغريق على الشواطىء المصرية كانت أمرا شائعا . أنظر : محمد صقر خفاجه . هوميروس القاهرة ١٩٥٦ ص ١٩ .

١٣- Odyssey , XIV . 245 ff ., XVII 424 ff .

١٤- Gilbert P . , Homere et l'Egypte Chronikue d ' Egypte . 27 . pp . 57 ff 1939 .

١٥- Lloyed . op . cit . P . 12 .

١٦- Herodot . II 152 .

١٧- Herodot . II 154 .

١٨- Ball . J , Egypt in the Classical Geographers . Cairo 1942 p. 8.

١٩- Boardman , op . cit . pp . 150 ff .

٢٠- أنظر : عبد العزيز صالح . الشرق الأدنى القديم . مصر والعراق القاهرة ١٩٨٤ ص٣٠٣

٢١- Lloyed . op . cit . PP . 19 -20 .

٢٢- عبد العزيز صالح . المرجع السابق ص٣٠٢

٢٣- Lloyed . op . cit . PP . 20-21 .

٢٤- سوف نعود إلى الحديث عن هذه القناة بالتفصيل إنظر الفصل الرابع .

٢٥- Yoyotte , Sauneron, La Campagne Nubienne de Psammetique II et sa Signification Historique , IFAO 50 (1952) pp . 152- 207 .

٢٦- Herodot . II 161 .

٢٧- Herodot . II 41 .

٢٨- Herodot . II 180 .

٢٩- أحمد فخرى . مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٨٦ ص ٤٣١ .

٣٠- Diodorus I 66 . 8 , 67 . 9 .

٣١- Boardman , op . cit . P . 192 .

٣٢- Strabo . XVII . 1 . 18 .

٣٣- عن هذا الفرع وغيره من فروع النيل انظر الفصل السادس .

٣٤- يذكر إسترابون أن الاغريق قهروا مدينة تسمى مدينة النساء Gynaecopolis تقع على الضفة الغربية للنيل فى الجهة المقابلة لمدينة نقراطيس . عن هذه المدينة انظر : Ball , op . cit . P 64.

٣٥- Lloyed , op . cit . P 26 .

٣٦- Herodot II 179 .

٣٧- مما هو جدير بالذكر أن الامبراطور هادريان عندما أقام مدينة أنتينوبوليس Antinopolis فى مصر فى عام ١٣٠ م جعل لها إمتيازات لم تكن تتمتع بها المدن الاغريقية الآخرى فى مصر وهو حق الزواج بين مواطنيها والمصريات انظر:

مصطفى العبادى . مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى القاهرة ١٩٨٥ص١٨٤ .

٣٨- Lloyed . A. B , Perseus and chemis JHS . 89 . 1989 p . 79 ff.

٣٩- Lloyed , Herodot book II . p . 29 .

٤٠- Aristophanes, Plutus 178 .

٤١- Milne. G, trade btween Greece and Egypt before Alexander The Great . J . E A 25 (1939) pp . 177 ff .

يقول هيرودوت عن المصريين " دوشريون نبيذا مصنوعا من الشعير إذ لاتوجد فى بلادهم كروم " Herodot II . 77 .

٤٢- Herodot II . 159 .

٤٣- Lloyed , Triremes and the Saite Navy . J .E .A 58 (1972) pp. 268 f f .

٤٤- Lloyed, " Were Nech's Triremes Phoenician " JHS . 95 (1975) pp . 45 - 61 .

٤٥- Herodot . II 154 .

٤٦- Thucydides , The Peloponnnesian War I 110 . 1.

٤٧- Thucydides, I 109 .

٤٨- Thucydides, I 110 .

٤٩- Diodorus I 96 - 98 .

٥٠- يوسف كرم . تاريخ الفسفة اليونانية . القاهرة ص١٢ .

٥١- Herodot . II 177 .

٥٢- عن توقيت زيارة هيرودوت ومدتها رنظر :

Lioyed , A B , Herodotus Book II pp . 61 ff .

أنظر أيضا المقدمةَ الرائعة التى سطرها الدكتور أحمد بدوى للترجمة العربية كتاب الثانى لهيرودوت التى قام بها الدكتور محمد صقر خفاجه بعنوان "هيرودوت يتحدث عن مصر " ونشرتها الهئية المصرية العامة للكتاب .

٥٣- عن فتوحات الاسكندر وتطور المعلومات الجغرافية إنظر

Tozer . H . F , A History of Ancient Geography New York 1964 pp . 122 ff .

٥٤- عن كل ما يتعلق بتاريخ مصر فى هذا العصر إنظر :

إبراهيم نصحى .تاريخ مصر فى عصر البطالمة أربعة أجزاء القاهرة ١٩٨٧.

٥٥- إنظر : Preaux . C , Les Grecs en Egypte D`apres les Archives de Zenon , Bruxelles 1947 .

٥٦- عن التعليم الإغريقى فى هذا العصر إنظر :

إبراهيم نصحى : تاريخ التربية والتعليم فى مصر الجزء الثانى . عصر البطالمة القاهرة ١٩٧٥ .

٥٧- Turner . E . G . Greek Papyri An Introduction . Oxford 1980 p 79 .

٥٨- عن هذا الشاعر إنظر : عبد الله حسن المسلمى . كاليماخوس القورينى شاعر الاسكندرية القاهرة ١٩٨٧ .

٥٩- عن التعليم فى بلاد اليونان إنظر :

Maron . H : A History of Education in Antquity . London 1981

٦٠- عن الحياة العلمية والثقافية فى الاسكندرية إنظر :

Fraser , P. M : Ptlolemaic Alexandria. Oxford . 1972 pp 312 ff

٦١- عن مكتبة الاسكندرية إنظر :

El - Abbadi , Mostafa : The Life and Fate Of the Ancient Library of Alexandria . France 1990 .

٦٢- Tozer , H . F : op . cit . P 170 .

٦٣- Ball , J : op . cit . PP 46 - 53

٦٤- عن تاريخ مصر فى العصر الرومانى إنظر :

Lewis , N : Life in Egypt Under Roman Rule . Oxford 1983 .

٦٥- Ball , J : op . cit pp . 85 - 130 .

٦٦- قام بنقل هذه الرسالة إلى العربية فى لغة رائعة الدكتور حسن صبحى بكرى . وراجع الترجمة الدكتور محمد صقر خفاجه .

إنظر : رسالة بلوتارخوس عن إيزيس وأوزريس ترجمة الدكتور حسن صبحى بكرى ومراجعة الدكتور صقر خفاجه . القاهرة ١٩٧٧ .

٦٧- Ball , J : op cit. PP. 53 - 70 .

الفصل الثانى
مكانة النيل عند الإغريق

أثار نهر النيل انبهار كل من زار مصر من الاغريق . فالنيل هو من أكثر العجائب فى مصر " بلد العجائب " كما جاء عند أحد الكتاب المحدثين [١] . وقد بدأ هيرودوت [٢] حديثه عن مصر قائلا " والآن سوف أبدأ فى الكلام عن مصر فى إسهاب لأنها دون سواها من بلاد العالم أجمع تحوى الكثير من العجائب [٣] . ومن أجل ذلك سأطيل الحديث عنها . نظرا لأن مناخ مصر منقطع النظير . ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقى الأنهار . ولذلك فقد اختلف المصريون كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم " . ويضيف هيلودوروس Heliodoros مشيدا بفضل النيل " إنه المخلص لمصر العليا . والخالق لمصر السفلى وذلك بفضل ترسيباته المتجددة . فهو الذى يعلن فصول السنه . فالصيف يعنى الفيضان . والخريف هو إنحسار الفيضان . أما الربيع فهو تفتح الزهور على ضفتيه . وهو موسم وضع البيض للتماسيح"[٤].فالنيل فى رأى هليودوروس هو ضابط إيقاع الحياة فى مصر .

وكان الإغريق يعتقدون أن مياه النيل هى أعذب مياه فى العالم . وكانوا يرددون أن ملوك الفرس كانوا يحرصون على جلب مياه النيل إلى سوسة عاصمة الامبراطورية . لكى يشربوا منه . أثناء خضوع مصر للدولة الفارسية [٥]. ويؤكد بلوتارك مدى تقدير ملوك فارس للنيل فيذكر أن هؤلاء الملوك اعتادوا أن يحتفظوا بين كنوزهم ببعض مياه نهرى

النيل والدانوب للتأكيد على عظمة إمبراطوريتهم وعالميتها [٦]. ويرى شاعر التراجيديا المعروف أيسخيلوس Aeschylus أن مياه النيل نقية " لاتمسها الأمراض " كما جاء فى مسرحية الضارعات [٧]. أما يوريبيدس Euripides رفيقه فى نفس المجال فقد وصف مياه النيل بأنها أعظم الأشياء التى تتدفق على الأرض[٨]. وينقل إسترابون عن أرسطو قوله بأن مياه النيل تغلى عند نصف درجة الحرارة التى تغلى عندها مياه باقى الأنهار ويبرر ذلك بقوله أن مياه النيل تمر خلال ممر ضيق كما أنها تعبر مناطق ذات درجات حرارة متفاوته . بينما أنهار الهند تجرى خلال وديان متسعه . وتمر ببلاد واحدة لها نفس المناخ [٩].

أما ديودور فيبرر سبب اعتقاده بأن مياه النيل هى أعذب مياه فى العالم . بأن تلك المياه تأتى من مناطق حارة[١٠] . ومياه النيل عند البعض ليست عذبة وصحية فقط . بل إنها تؤدى إلى زيادة الوزن . وهذا ما نلمسه من نص بلوتارك فى رسالته عن إيزيس وأوزوريس [١١]. حيث يقول عن الكهنة " إنهم يسقون العجل أبيس من بئر خاصة . ويبعدونه عن النيل تماما . لا لأنهم يعدون ماءه كما يعتقد بعضهم دنسا بسبب التماسيح ، فما من شىء يبجله المصريون تبجيلا عظيما مثل النيل . بل يظهر أن شرب ماء النيل يسمن ويشحم ، ولكنهم لايرغبون للعجل أبيس ولا لأنفسهم أيضا مثل هذه الحال . بل يرغبون فى أن يكون الجسم المحيط بالروح خفيفا نحيفا ؛ فلا يكبت العنصر الفانى العنصرالإلهى فيه ويثقل عليه " [١٢].

النيل والأنهار الأخرى :

النيل عند الاغريق ليس نهرا عظيما فحسب بل هو أعظم من الأنهار الأخرى . يقول هيرودوت إن النيل أعظم من نهر الدانوب لأن هذا الآخير تصب فيه العديد من الأنهار الاخرى . أما النيل فعلى الرغم من أنه لاتصب فيه أنهار أخرى فانه يتفوق على الدانوب فى كمية مياهه (١٣). إلا أن هيرودوت يرى أن نهرى النيل والدانوب متساويان من حيث الطول . وهناك وجه آخر للشبه بينهما . وهو أن النيل يشق قارة ليبيا (أى أفريقيا) . بينما يشق الدانوب قارة أوروبا بنفس القدر (١٤). وفى معرض حديثه عن باقى أنهار أوروبا يذكر هيرودوت أن نهر الدنيبر الذى يعد ثانى أنهار هذه القارة بعد الدانوب يعتبر أعظم الأنهار من حيث خيراته . ولكنه استدرك قائلا " فيما عدا نيل مصر " (١٥). ويربط أرسطو بين النيل والدانوب قائلا أنها أعظم الأنهار التى تصب فى البحر المتوسط (١٦).

أما ديودور فانه يرجع عظمة النيل إلى أنه يمر بمناطق عديدة أكثر من أى نهر آخر فى العالم (١٧).

وعند الحديث عن أنهار آسيا ومقارنتها بالنيل . يقول ديودور إن نهر السند يأتى بعد النيل من حيث الضخامة (١٨). ولكن من المستغرب أنه عندما تحدث عن نهرى دجله والفرات قال إنهما أبرز الأنهار فى قارة آسيا بعد النيل والجانج (١٩). ولا ندرى لماذا اختلط الأمر على ديودور لكى يجعل من النيل أحد أنهار قارة آسيا . فهل مرد هذا الخلط إلى الاعتقاد الذى كان سائدا بين الأقدمين بأن شرق أفريقيا كان ملتصقا بالهند . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الاعتقاد ظل سائدا حتى عصر الإسكندر الأكبر (٢٠).

فضل النيل على البشرية .

يقول ديودور إن النيل يتفوق على جميع أنهار العالم فى فضله على البشرية [٢١] . ويرى هيرودوت أن المصريين قد وجدوا على الأرض منذ بدء الخليقة . ولابد أن يكون السبب فى ذلك هو نهر النيل الذى أوجد مصر [٢٢] . ويؤكد ديودودر على وجود الإنسان فى مصر منذ بدء الخليقة قائلاً [٢٣] "عندما ظهر العالم إلى الوجود . فان الإنسان الأول ظهر فى مصر . وذلك بفضل مناخها الجميل وطبيعة نيلها . فان هذا النهر يهب الحياة الوافرة ، ويقدم أغذية طبيعية تساعد الكائنات الحية على التوالد فان البقوليات ونبات اللوتس . ونباتات أخرى على نفس الشاكلة. تمد الجنس البشرى بغذاء جاهز للاستخدام .

ويقدم المصريون الدليل على أن الحياة ظهرت فى بلادهم من خلال تلك الحقيقة التى يسوقونها وهى أنه حتى يومنا هذا فان تربة إقليم طيبة فى أوقات معينة تتوالد فيها الفئران بأعداد وأحجام تثير الدهشة لدى كل من يرى هذه الظاهرة . فان بعض هذه الكائنات تخرج كاملة التكوين فى أجزائها الأمامية . أى الصدر والأقدام الأماميه . وتكون قادرة على الحركة . بينما باقى أجزاء الجسم لم يكتمل تكوينها بعد . وما يزال الطين يشكل تكوينها الطبيعى . ومن هذه الحقيقة يمكن القول بأن العالم عندما بدأ يأخذ شكله . فان أرض مصر هى أكثر الأماكن ملائمة لظهور الإنسان بفضل طبيعة المناخ والتربة . لأنه حتى فى أيامنا هذه فان تربة البلاد الأخرى لاتتوالد فيها مثل هذه الكائنات" .

ومما هو جدير بالذكر أن فكرة خروج الكائنات الحية من طمى النيل ظلت تتردد حتى وقت متأخر . ونجد صداها فى كتابات بومبونيوس ميلا Pomponius Mela وأوفيد Ovid [٢٤]. وفى رأى ديودور أنه ليست الكائنات الحيوانية فقط هى التى عرفت طريقها إلى الوجود لأول مرة فى مصر بل النباتات أيضا . ويذكر أن الربة ديميتر Demeter (ربة الحصاد) هى التى اكتشفت القمح قبل مولد إبنتها برسيفونى Per-sephone . ولكن عندما قام هاديس Hades (إله العالم السفلى) بالاعتداء على إبنتها . دفعها الغضب والحزن إلى إحراق كل شجيرات القمح . ولكن بعد أن عثرت ديميتر على تلك الإبنة شعرت بالرضا . وأعطت تريبتوليموس Treptolemus [٢٥] بذور القمح . وعلمته أن يشارك البشر فى المحصول ، وأن يعلمهم كل ما يتعلق بالزراعة " . ثم يستطرد ديودور قائلا " هناك خلاف حول اكتشاف نبات القمح . فالكثير من الشعوب ترى أن اكتشاف هذا النبات تم فى بلادها أولاً . فالمصريون يقولون أن الربة ديميتر ما هى إلا الربة إيزيس المصرية . وأنها أعطت القمح لأرض مصر أولاً ؛ لأن هذه الأرض يوجد بها نهر النيل الذى يروى الحقول بانتظام . كما أن مناخ مصر معتدل ، بينما يقول الأثينيون إن قرية إليوسيس Eleusis كانت هى أول من تسلم البذور من الربة ديميتر. أما أهل جزيرة صقلية الذين تعد جزيرتهم أرضا مقدسة للربة ديميتر وإبنتها برسيفونى فيقولون إن هبة القمح الأولى كانت من نصيب جزيرتهم التى تغنى بها هوميروس فى ملحمة الأوديسيه . كما أقامت بها الربة ديميتر . وعلى أرض الجزيرة وقع اعتداء الإله هاديس على برسيفونى "[٢٦] .

ويواصل ديودور حديثه عن فضل النيل على الجنس البشرى . فيذكر أن الفيضان السنوى الذى يبدأ فى الصيف ويستمر حتى الخريف جالبا معه الطمى بحيث يجعل الزراعة أمرا ميسورا . فان المزارعين ينثرون البذور فى التربة . ثم يتركون الأرض لكى تجف بعد الفيضان . ويطلقون حيواناتهم لكى تدوس البذور فى التربة . وليس عليهم بعد ذلك سوى العودة لجنى المحصول بعد أربعة أو خمسة شهور [٢٧] . ويعزز ديودور رأيه عن فضل النيل على البشرية بذكر ما جاء فى الأساطير فيقول أن الطوفان الذى وقع فى عهد ديوكاليون [٢٨] Deucalion أفنى كل الكائنات الحية . إلا أن سكان جنوب مصر فقط هم الذين نجوا لأن بلادهم ليست مطيرة . وحتى إذا قال البعض أن تدمير الأرض خلال الطوفان كان شاملا وأن الحياة بعد ذلك دبت على الأرض من جديد . من خلال ظهور كائنات جديدة . فان تلك الكائنات لابد وأنها قد ظهرت فى هذه المنطقة (أى جنوب مصر) لأن بخار الماء الناتج عن الأمطار لابد وأنه اختلط بالحرارة الشديدة فى البلاد الأخرى. أما فى مصر فلابد وأن جوها كان معتدلا وملائما للأجيال الأولى من الكائنات الحية. وحتى فى أيامنا هذه . ففى وقت الفيضان يمكن رؤية الكائنات وهى تتخلق فى البحيرات المتبقية بعد الفيضان . وعندما تنحسر مياه النهر تقوم الشمس بتجفيف سطح الطمى ، فتبدأ الكائنات فى التشكل . فبعضها يكون كامل النمو . بينما يكون البعض الآخر ما يزال متوحدا مع الأرض وهى الفكرة التى أشرنا إليها من قبل [٢٩] .

والواقع أن قصة الكائنات ناقصة النمو ، والتى ما يزال بعض منها متحدا مع الطين لم تكن غريبة على العقلية الاغريقية . فقد ذكر

الفيلسوف أنكسمندر Anaximander (٦١٠ - ٥٧٥ ق . م) أن الأسماك والكائنات قريبة الشبه بها تخرج من المياه الدافئة والأرض[٣٠] .

وقد جاء عند أفلاطون في مجال الحديث عن فضل النيل على الجنس البشرى ، وذلك فى محاورة تيمايوس Timaeus [٣١] أن أحد الكهنة فى مصر قد تحدث إلى المشرع الأثينى سولون Solon [٢٦] أثناء زيارته لمصر . عن النار العظمى التى أحاطت بالأرض فى عهود قديمة . والدمار الذى ألحقته بكل الكائنات . حيث أهلكت كل من كانوا يسكنون الجبال والمناطق المرتفعة الجافة . وعانى منها سكان شواطىء البحار والأنهار " أما نحن (كما ذكر الكهنة) فان النيل هو الذى أنقذنا من هذه الكارثة. وهو المنقذ لنا دائما من كل الكوارث فقد زاد من كمية مياهه " . وكرر أفلاطون الحديث الذى أشرنا إليه من قبل عن الطوفان ونجاة مصر منه . وأنها لذلك تعتبر مهدا للكائنات الأولى .

والنيل عند شاعر التراجيديا إيسخيلوس هو العظيم واهب الحياة كما جاء فى مسرحية الفرس [٣٣]. أما شاعر الكوميديا أرستوفانيس Aris-tophanes فقد قال عن النيل فى مسرحية المحتفلات بعيد الثيسموفوريا " هنا يتدفق النيل تحف به الحوريات . وتنتشر مياهه فى السهل المشرق . ويروى الأرض بدلا من الأمطار . ويجلب الخير لسكان مصر"[٣٤].

مصر هبة النيل

يقول هيرودوت أن الكهنة المصريين حدثوه بأن مصر كانت فى عهد الملك مينا عبارة عن مستنقعات فيما عدا ولاية طيبة [٣٥] . ويقول

معقبا على هذا الرأى " ويظهر لى أن كلامهم عن وطنهم صحيح إذ يتضح لمن يستمع إليهم من قبل . ولمن عساه أن يكون قد رأى البلاد وحسب وكان عليما بصيرا . يتضح له أن مصر التى يبحر إليها اليونانيون أرض مكتسبة . وأنها هبة النيل " (٣٦) . ويردد الفكرة ذاتها فى موضع آخر قائلا "(٣٧) وقد لاحظت علاوة على ذلك أن مصر فى تربتها لاتشبه بلاد العرب التى تقع على حدودها ولاليبيا ولاسورية . بل إن تربتها سوداء وبها شقوق لأنها مكونة من رواسب الطمى التى جلبها النهر من أثيوبية " (٣٨) .

وفى إشارة إلى ترسيبات النيل ذكر هيرودوت " وهذه طبيعة أرض مصر . عندما تبحر إليها لأول مرة - وما زالت على مسيرة يوم من اليابسه - فانك ستخرج طميا إذا ألقيت بالمسبار على عمق أحد عشر باعا (٦٦ قدما) . وهذا يشير بجلاء إلى أن الطبقة الطميية تمتد إلى هذا الحد " . ويريد هيرودوت بهذه الملحوظة أن يؤكد مقولته بأن مصر كانت فى الأصل خليجا فى البحر وأن ترسيبات نهر النيل هى التى ردمته. ونص حديثه فى هذا الأمر كما يلى " ويوجد فى بلاد العرب غير بعيد عن مصر خليج يوغل فى الداخل من البحر الذى يسمى بحر (إروترى) - البحر الأحمر حاليا - وهو خليج طويل وضيق جدا كما سوف أوضح . إذا بدأ المسافر من جوف الخليج وضرب فى عرض البحر فانه يستغرق فى عبوره طولا أربعين يوما مع إستخدام المجاديف . فى حين أن إجتيازه عرضا - فى أوسع أجزائه - يستغرق إبحاره نصف يوم وبه يحدث مد وجزر كل يوم . ويخيل إلى أن مصر كانت فيما مضى خليجا آخر مثل هذا . أحدهما كان يمتد من البحر الشمالى نحو إثيوبيه

(النوبة حاليا) والآخر من البحر الجنوبى جنوب سورية . وأن رأسيهما يكادان يلتقيان الواحد بالآخر . ولاتفصلهما إلا بقعة صغيرة من الأرض. لذلك إذا ما قدر للنهر أن يغير مجراه نحو الخليج المصرى (خليج السويس حاليا) فماذا يمنعه . وهو يصب فى الخليج أن ييبسه فى عشرين ألف عام ؟ إننى شخصيا أظن أنه يستطيع ردم الخليج فى عشرة آلاف عام . فكيف إذن فى العصور التى مضت قبل ميلادى لم يقدر نهر هائل ومخصب مثل هذا أن ييبس خليجا حتى لو كان أكبر من هذا الخليج ؟ "

ثم يستطرد هيرودوت لكى يدعم فكرته بأن مصر كانت جزءا من البحر فيقول [٤٠] " وعلى ذلك فانى لاآخذ برواية من حدثونى عن مصر وحسب بل أنا نفسى أومن كل الإيمان بأن ذلك قد وقع فعلا . فقد شاهدت أن مصر تمتد فى البحر دون غيرها من الأراضى المتاخمه . وأن أصداف البحر ترى فوق الجبال . وأن هناك طبقة ملحية تتأكل بفعلها الأهرام " .

ويتفق ديودور مع هيرودوت فى هذا الأمر فيقول [٤١] " وبشكل عام فان ما يطلق عليه مصر - كما يقولون - لم تكن أرضا بل كانت بحرا عندما كان العالم فى طور التكوين . لأن النيل خلال الفيضان يحمل الطمى من أثيوبيا . لذا فان الأرض أخذت تتكون من هذا الترسيب . كما أن الحقيقة التى تقول بأن أرض مصر عبارة عن ترسيبات ألقاها النهر نجد برهانا ساطعا من وجهة نظرهم فيما يحدث عند مصبات النيل .

ففى كل عام يأتى طمى جديد ، ويأخذ فى التراكم بشكل مستمر عند مصبات النهر . لهذا فان البحر يتراجع أمام الترسيبات بينما يزداد حجم اليابسه " . وقد أبدى إسترابون نفس الرأى حينما قال [٤٢] " إن شيئا شبيها بهذا يحدث فى مصر فقد حول النيل البحر إلى أرض يابسة عن طريق إلقاء الطمى ولهذا السبب ذكر هيرودوت عبارة مصر هبة النيل " .

ويرى بعض الدارسين أن عبارة " مصر هبة النيل " إنما ذكرها هيكاتيه[٤٣] . وأن هيرودوت أخذها عنه . ويدللون على ذلك بالقول بأن هيرودوت اعتاد أن ينقل عن هيكاتيه دون أن يشير إليه . بل يكتفى عادة بأن يقول " ذكر الأيونيون " [٤٤] إلا أنه من الإنصاف أن نذكر أنه على الرغم من كون هيكاتيه هو السابق فى ذكر عبارة " مصر هبة النيل" فانه كان يعنى بمصر الدلتا وحدها دون باقى أجزاء مصر[٤٥] . أما هيرودوت فانه يعنى مصر بأسرها ؛ أى الدلتا والوجه القبلى . ويقول مصداقا لهذا الرأى " وأيا كان الامر فقد كانت طيبة التى يبلغ محيطها ٦١٢٠ ستاد تسمى منذ القدم مصر " [٤٦] . ومن ذلك فاننا نخلص إلى القول بأن نسبة هذه العبارة إلى هيرودوت هو أمر صحيح . إعترف به الكتاب القدماء مثل إسترابون كما ذكرنا فى السطور السابقة . كما ردد هذه العباره أريان Arrian [٤٧] أيضا . وأجمع عليه الباحثون المعاصرون [٤٨] .

أما بلوتارك فقد صور خلق الدلتا وتراجع البحر فى قالب أسطورى . وذلك فى إطار روايته لقصة إيزيس وأوزوريس قائلا " [٤٩] بعد أن عثرت إيزيس على أوزوريس وربت حورس . الذى تقوى بالبخار

والضباب والسحاب قهر توفون[٥٠] (ست) على أمره ولكن لم يقض عليه . لأن الربة التى هى ربة الأرض لاتسمح بأن تفنى المادة الطبيعية التى تقابل الرطوبة فناء مبرما ، بل هى تطلقها ولاتقيدها ثانية لأنها ترغب فى الابقاء على العالم . إذ يستحيل على الكون أن يكون كاملا إذا ولى العنصر النارى عنه وفنى . وإذا لم يأخذوا بتلك الروايات فلا يجوز لأحد أن يرفض القصة التى تقول بأن توفون كان يسيطر فى سالف الزمان على قصة أوزوريس لأن مصر كانت وقتئذ بحرا . ولذلك يوجد حتى يومنا هذا محار كثير فى مناجمها وعلى جبالها . وتحتوى كل الينابيع والآبار وما أكثرها على ماء ملح أجاج . كما لو تجمعت فيها فضالة فاسده من البحر الذى كان ينساب هناك فيما مضى . ولكن حورس تغلب بمرور الوقت على توفون . وبعبارة أخرى عندما هطلت الأمطار فى الوقت المناسب طاردد النيل البحر وتغلب عليه . وكشف عن الوادى وملأه بالرواسب الغرينيه . ودليل على ذلك أننا نلاحظ حتى يومنا هذا أن البحر ينحسر شيئا فشيئا . ويغيض ماءوه . وأن القاع يزداد إرتفاعه بسبب الرواسب الغرينيه عندما يجلب النهر معه طميا جديدا ويضيفه إلى الأرض . ونلاحظ أيضا أن جزيرة فاروس Pharos التى ذكر هوميروس أنها تبعد عن ساحل مصر بمقدار رحلة يوم بحرا (حوالى ١٣٠ ك .م) أصبحت اليوم جزءا منها . وليس معنى هذا أن الجزيرة وسعت رقعتها أو أنها إقتربت من الأرض . بل أن معناه أن البحر الذى كان يفصلهما دفعه النهر أمامه فشكل بذلك الأرض من جديد ووسعها .

وإذا ما نحينا الجانب الأسطورى فى رواية بلوتارك فاننا نلاحظ أنه يؤكد أفكار سابقيه الذين تحدثوا عن تراجع البحر كنتيجة لترسيبات

الطمى . إلا أننا لانوافقه على ما ذكره عن جزيرة فاروس والمسافة بينها وبين الأرض فان هوميروس فى الواقع يقصد المسافة بين جزيرة فاروس وساحل مصر عند كانوب (أبوقير) [٥١] . فان الساحل المواجه لجزيرة فاروس بعيد كل البعد عن ترسيبات طمى النيل وكانت هذه إحدى ميزات هذا المكان التى جعلت الاسكندر يختاره لإنشاء مدينته الجديده . والاتصال الذى حدث بين جزيرة فاروس والشاطىء كان من خلال جسر صناعى أقيم عند إنشاء مدينة الاسكندريه وليس بسبب طمى النيل .

النيل ومصر كيان واحد*

ربط الاغريق بين مصر والنيل على الدوام . فان النيل لم يخلق مصر فقط بل إنه ظل يمنحها الحياة المتجددة [٥٢] . والمصريون فى نظر الاغريق هم هؤلاء الذين يشربون النيل دون سواهم وقد جاء عند هيرودوت[٥٣] ما يلى " وإن إجابة وحى آمون[٥٤] لتوكد الرأى بأن مصر عظيمة الامتداد كما أوضحت هذه الاجابة التى لم أعلم بها إلا بعد أن كونت رأيى الخاص عن مصر حدث أن أهل (مدينتى) ماريا وأبيس[٥٥]. الذين يسكنون مصر أجزا ءها التى تتاخم ليبيا كانوا يعتبرون أنفسهم ليبين لامصريين (وذلك) لما أثقلتهم الشعائر الدينية بما لا طاقة لهم به. ورغبوا فى أن يأكلوا لحم البقر [٥٦] . وأرسلوا إلى آمون مدعين أنه ليست بينهم (وبين المصريين) صلة فى اللغة وأنهم شاءو أن يحل لهم كل الطعام . ولكن الاله لم يسمح لهم بذلك قائلا إن مصر هى البلاد التى يجرى فيها النيل ويرويها . وأن المصريين هم الذين يقطنون البلاد فيما يلى مدينة اليفانتين ويشربون ماء هذا النهر هذا ما أجابهم به الوحى " . وهذا يعنى من وجهة نظر هيرودوت أن سكان هاتين المدينتين مصريون لأنهم يشربون مياه النيل[٥٧] .

* يقول جمال حمدان " الحقيقة الأولى فى الوجود المصرى أن مصر هى النيل ص٢٧٣

أما إسترابون [٥٨] فيتساءل قائلا " ما هى مصر ؟ إنها وادى النيل أى الوادى الذى يفيض فيه النيل " . ويقول فى موضع آخر [٥٩] . أن الأقدمين يطلقون إسم مصر على البلاد التى يرويها النيل . وأن مصر هى أرض النهر Potamia الممتدة حول النهر على الجانبين من حدود أثيوبيا حتى رأس الدلتا . وفى موضع آخر يقول أن مصر هى التى تمتد من أسوان حتى البحر [٦٠] . ويؤكد إسترابون على فكرة التوحد بين النيل ومصر فيقول أن هؤلاء الذين يزورون مصر لن يعرفوا شيئا عن طبيعة هذه البلاد ما لم يعرفوا طبيعة النيل [٦١] .

والنيل عند الاغريق لم يخلق أرض مصر فقط . بل إنه صاحب الفضل فى إطلاق إسم مصر على هذه البلاد . ويقول ديودور[٦٢] أن إسم منف الذى أطلق على هذه المدينة هو فى الحقيقة إسم إبنة الملك الذى بناها ويروى البعض أن إله النيل أحب هذه الفتاة وتمثل لها فى شكل ثور وأنجب منها إيجبتوس Egyptus الذى إشتهر بالفضيلة فأطلق الناس إسمه على البلاد ، وعندما إرتقى العرش كان ملكا طيبا إستحق التكريم الذى أسبغ عليه باطلاق إسمه على البلاد بأجمعها .

ولعل القصة التى ذكرها ديودور عن أصل تسمية مصرتذكرنا بأسطورة أخرى تربط ما بين مصر وبلاد الاغريق ، وهى أسطورة " إيو " "Io" الجميلة التى أحبها زيوس كبير آلهة اليونان . وعندما تكشف أمر هذه العلاقة لزوجته الربة هيرا Hera أراد زيوس أن يبعد محبوبته عن عيون هيرا الحاقده . فحولها إلى بقرة . إلا أن هيرا تمكنت من كشف هذه الخدعة وسلطت على إيو حشرة راحت تلدغها حتى جعلتها تفر إلى مكان قصى وهو مصر . وتذكر بعض الروايات أنها تحولت إلى الربة

إيزيس . ولايفوتنا هنا أن نذكر أن الربة إيزيس كانت تقرن بالربة حتحور التى تأخذ شكل البقرة . وتواصل الأسطورة سرد ما كان من أمر زيوس ومحبوبته فتقول أنه لم يتمكن من الاتصال بهذه المحبوبة إلا عن طريق اللمس . وقد أسفر ذلك عن ميلاد طفل أطلق عليه إسم " إبافوس " Epaphus أى المولود باللمس . وقد أنجب إبافوس هذا العديد من الأبناء كان بينهم إيجيبتوس Egyptos [٦٣] .

وقد أشار إيسخيلوس إلى هذه الاسطورة فى مسرحية الضارعات[٦٤]. ومما هو جدير بالملاحظة أنه فى هذه الاسطورة أن الأب هو الاله زيوس أما الأم فهى إيو التى إتخذت شكل البقرة . ولكن فى حالة القصة التى ذكرها ديودور فان الأب وهو اله الذى اتخذ شكل الثور .

النيل وحدود القارات

يمثل النيل أهمية كبرى لدى الجغرافيين الإغريق عندما يتحدثون عن الحدود بين القارات . وفى هذا الصدد يقول هيرودوت [٦٥]" أما آسيا وليبيا (أفريقيا) فلا نعرف لهما فاصلا ولايوجد بينهما - فى الواقع - إلا الحدود المصرية . ولكننا إذا آمنا بالفكرة السائدة عند اليونانيين فسوف نعتقد أن مصر كلها إبتداء من الشلال ومدينة إليفانتينا تنقسم إلى قسمين . وتسمى بالإسمين معا . لأن أحد جوانبها جزء من ليبيا . والجانب الثانى جزء من آسيا . ذلك لأن النيل في حقيقة الأمر. مبتدئا من الشلال متجها نحو البحر يقسم ، مصر فى النصف ". ومعنى هذا أن هيرودوت يرفض الفكرة التى ينادى بها البعض حين يجعلون النيل حداً فاصلاً بين قارتى آسيا وأفريقيا . ويستطرد هيرودوت فى شرح وجهة

نظره فيما يتعلق برسم الحدود بين القارات . ودور النيل فى هذا الأمر قائلا [٦٦]" والآن إذا صحت آراؤنا فان الأيونيين يخطئون فى كلامهم عن مصر . أما إذا كان رأى الايونيين صحيحا . فأحب أن أبين أن اليونانيين والأيونيين بالذات لايفقهون حسابا حين يزعمون أن العالم جميعه مكون من ثلاثة أجزاء ؛ أوروبا وآسيا وليبيا . إذ يجب عليهم أن يضيفوا رابعا وهو دلتا مصر . ذلك لأنها إذا لم تكن جزءا من آسيا ؛ ولا جزءا من ليبيا لأن النيل على هذا الحساب ليس هو الذى يفصل اسيا عن ليبيا ".

وهذا يعنى أن هيرودوت يرى أن دلتا النيل هى قارة رابعة إلى جانب قارات العالم الثلاث المعروفة آنذاك [٦٧]. إلا أن إسترابون ظل يأخذ بالنظرية التى تقول بأن النيل يمثل الحد الفاصل بين قارتى آسيا وأفريقيا [٦٨]. كما تبعه فى هذا الرأى المؤرخ بوليبيوس [٦٩] Polybius الذى تحدث عن العالم قائلا [٧٠]" إن الأرض تنقسم إلى ثلاثة أجزاء كل منها يحمل إسما منفصلا . فيسمى الأول آسيا والثانى ليبيا أما الثالث فهو أوروبا. وتشكل أنهار تانايس[٧١] Tanais (الدون) والنيل. والمنطقة الواقعة عند أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) على التوالى حدود هذه القارات " . بينما يرى مؤلف مجهول أورده بول Ball ضمن الكتاب الذين تحدثوا عن مصر أن الفرع الكانوبى للنيل هو الذى يشكل الحد الفاصل بين مصر وقارة ليبيا . ولكنه على ما يبدو لم يدل بدلوه فى مسألة الحدود بين القارات . كما أنه لم يذكر شيئا عن الحد الفاصل بين مصر وقارة اسيا من وجهة نظره.

إلا أن ديودور يتفق مع هيرودوت فى مسألة الحدود بين القارات ودور النيل فى هذا الأمر فقد عقب بقوله " إن النيل يشكل أهمية لهؤلاء

الذين يرغبون فى رسم الحدود بين آسيا وليبيا لأنهم يمزقون مصر واثيوبيا. فيضمون جزءاً من مصر واثيوبيا إلى اسيا والجزء الآخر إلى ليبيا . فاذا كانوا لايريدون مثل هذا التمزيق فالاحرى بهم ألا يضعوا حدودا بين القارتين " . ثم يستطرد فى موضع آخر قائلا " من الأفضل للجغرافيين الذين يحاولون وضع حدود بين آسيا وليبيا أن يجعلوا الخليج العربى (خليج السويس) هو الحد الفاصل وليس النيل . ولكن ديودور لا يرى بأسا فى أن يكون النيل حدا فاصلا بين مصر وسوريا .

وعلى أية حال فان الجغرافى بطلميوس حسم الجدل الدائر حول حدود القارات ودور النيل فى رسم هذه الحدود . حين ساق رأيا مفاده أن الذى يفصل بين أفريقيا وآسيا خط يبدأ من البحر المتوسط ما بين العريش ورفح وينتهى عند خليج السويس وذلك حتى لا يتم تقسيم مصر إذا ما إتخذنا النيل كحد فاصل بين اسيا وأفريقيا . لأن الحدود التى ينبغى أن تفصل بين القارات فى رأى هذا الجغرافى . هى البحار وليست الأنهار (٧٦).

تسمية " النيل "

من الذى أطلق على هذا النهر إسم النيل ؟ سؤال ينبغى أن نطرحه على بساط البحث ونحن نحاول إستجلاء كل ما يتعلق بنهر النيل . من الجدير بالذكر أن المصريين كانوا يعبدون النهر باعتباره إلها للخير ويطلقون عليه إسم " حابى " Hapi . فى بعض الاحيان يسمى لديهم البحر والنهر العظيم (٧٧). كما كانوا يطلقون على فروع النيل فى الدلتا أسماء مختلفة مثل " مياه بتاح " أو " مياه آمون " أو " النهر الغربى "(٧٨). ويذكر سميث (٧٩)فى قاموس الجغرافيا عند اليونان

والرومـان أن كلمـة نيلوس Nilus من أصـل عـبـرى . وربما انتـقلت إلى الاغريق عن طريق الفينيقيين . كما أن العبرانيين أطلقوا على النيل أسم ناحال مـيـزرايم Nahal Misraim - أى نيل مـصـر . وذكـر هايد(٨٠) Hyde أن الأقـبـاط أطلقوا على النهر رسم " إيرو " I`ero أى العظيم . وهو إستمرار للاسم المصرى القديم . كما جاء فى اللغة العبرية اسم النيل سينهور أى الأسود .

وقد ذكر ديودور أن نهر النيل كـان يطلق عليـه ايتـوس Aetus أى النسر لأن مياهه تتدفق بقوة . وذكر أن النيل يطلق عليه اسم أو قيانوس (وهو إسم البحر المحيط بالكون) (٨١).

ومما هو جدير بالذكر أن هوميروس أشار إلى النهر باسم أيجيبتـوس Aegyptos فى ملحمة الأوديسه (٨٢) . عندما تحدث عن رحلة مينلاوس الذى تقـاذفتـه الرياح مما جعله يزور بلاد كـثيـرة ومنها مـصـر " فى نـهـر إيجبتـوس مكثت سـفنى " . أمـا إسم نيلوس Neilos فـقـد جـاء فى المصـادر الاغـريـقـيـة لأول مـرة عند الشـاعـر هـسـيـود Hesiod (٨٣). فى قصيدته " أنساب الالهه " .

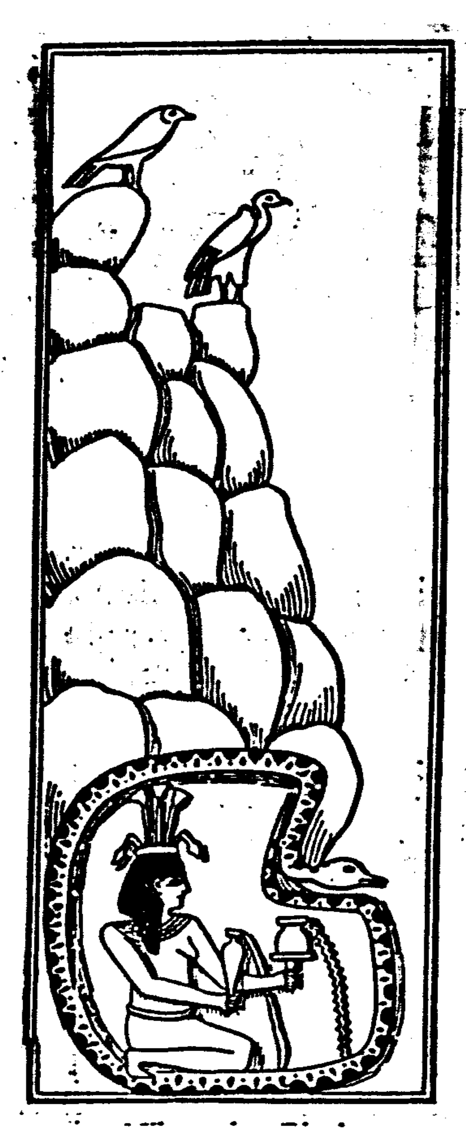
ويذكـر ديـودور أن هذا الاسم لملك قديم بذل جهـودا مشـكـوره من أجل تنظيم مياه النهر فـأقام العديد من القنوات (٨٤) . ومما هو جدير بالذكر أن الكثـيـرين من الجغرافـيين القدمـاء كانوا يرون أن تسمـيـة النيل تسرى على النهر إبتداء من منطقة مروى (٨٥). بينما يرى إسترابون أن هذه التـسمـيـة ينبـغى أن تطلق على الجزء الذى يقع فى مـصـر من مـجرى النـهـر . أمـا النيل فى الجنوب فانه يتخذ اسمـاءً أخرى مثل أستابوس Astapous أى القادم من الظلام (٨٦).

عبادة النيـــل

الإله نيلوس

من المعروف أن المصريين كانوا يعبدون النيل باعتباره إله الخير وكانوا يطلقون عليه حابى . وقد صوروه فى كهف من صخور جزيرة بيجه[٨٧].
ويذكر هيرودوت [٨٨] أن من يموت غريقا فى النيل يكتسب نوعا من التكريم " إذا إختطف تمساح أحد المصريين أو الأجانب على حد سواء أو جرفه النهر نفسه ثم طفت جثته تحتم قطعا على سكان المدينة التى وصلت عندها الجثة أن يحنطوها وأن يعنوا بها كل العناية. ويدفنوها فى مقبرة مقدسة . ولايسمح لشخص ما أن يلمس الميت لامن أقاربه ولامن أصدقائه ، ولكن يباح ذلك لكهنة النيل أنفسهم فهم الذين يدفنون الجثة بأيديهم . إذ تعد هذه شيئا أعظم من جثة فرد عادى" .

وكهنة النيل الذين أشار إليهم هيرودوت هم كهنة الإله أوزوريس الذى كان يعد إماما للشهداء والذى ربط المصريون بينه وبين النيل . ويحدثنا بلوتارك عن أوزوريس والنيل قائلا [٨٩]" ولكننا نود أن نفحص أبسط آراء أولئك الذين يعتقدون أنهم يفسرون الأمور تفسيرا أكثر تفلسفا فكما أن الإغريق يقولون أن كرونوس إسم يطلق مجازا على الزمن وهيرا على الهواء . وأن هيفايستوس يرمز إلى تحول الهواء إلى نار . كذلك فالشائع أن المصريين يقولون إن أوزوريس هو النيل الذى يقترن بالأرض إيزيس وتوفون البحر الذى يصب فيه النيل مياهه فيتوارى عن الأنظار ، ويتفرق اللهم إلا ذلك الجزء الذى تحتجزه الأرض وتمتصه فتصبح به خصبة .



إله النيـل فى شـكله المصـرى يجلس فى
كهفه بجزيرة بيجه يصب الماء.

ولما كان النيل يجرى من الجنوب ويبتلعه اليم فى الشمال . ومن أجل ذلك يتجنب الكهان البحر ويسمون الملح لعاب توفون ، ويحرمون وضعه على المادة " .

وفيما يتعلق بالإغريق فان تأليه النيل كان موجودا فى تراثهم منذ عهود قديمة . فقد ذكر الشاعر هسيود أن النيل كان من بين الآلهة التى ظهرت مع بداية العالم فهو ابن الأوقيانوس والربة ثيتيس Thetes[٩٠] . وقد ربط الإغريق بين النيل وكبير آلهتهم زيوس Zeus . لأن زيوس فى عقيدتهم هو إله المطر : أى أنه هو الذى يعطيهم الماء . وهو نفس الدور الذى يقوم به النيل للمصريين . وقد عبر عن هذه الفكرة الشاعر يوربيديس Euripides عندما قال إن النيل يروى أرض مصر بدلا من أمطار زيوس [٩١].

وفى عصر البطالمة أوجد بطلميوس الأول عبادة جديدة جعل على رأسها الإله سيرابيس Sarapis . الذى يمثل الإله المصرى أوزوريس . لذلك فقد ارتبطت عبادة سيرابيس بعبادة النيل . وعلى المستوى الشعبى كان الناس يقسمون بالنيل . وهو ما جاء فى بردية [٩٢] يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٩ ق . م .

ومن الملاحظ أن الصور والروايات التى ذكرت عن النيل خلال عصر البطالمة كانت ذات طابع إغريقى ، وتبتعد تماما عن شخصية حابى المصرية . وربما كان ذلك بتشجيع من البطالمة الذين أرادوا إضفاء الطابع الاغريقى على شىء شديد الأهمية مثل النيل [٩٣]. لذلك فان تمثال إله النيل يقترب فى شكله من الاله سيرابيس . حيث يأتى فى شكل عجوز

ملتح يبدو عليه الوقار وقد أخذت أهمية إله النيل ذى الشكل الاغريقى تزدادخلال عصر البطالمة . وتوجد مجموعة تكريسات يرجع تاريخها إلى القرن الثالث ق . م من مدينة كانوب حيث نجد الربط فيها بين الربة إيزيس والاله سيرابيس والإله نيلوس (٩٤). كما جاءت فى أحد الخطابات الملكية من عام ١١٥ ق . م إشارة إلى الاله نيلوس العظيم (٩٥) .ومما هو جدير بالذكر أن الاله نيلوس هو الاله الوحيد الذى تم الربط بينه وبين العبادة الاسرية للبطالمة بالإضافة إلى الربة إيزيس والاله سيرابيس (٩٦).

أما فى العصر الرومانى فاننا نلاحظ فتورا فى الاهتمام بالآلهة المصرية على المستوى الرسمى . وتعكس الأعمال الأدبية نظرة عدم الاحترام التى كان يوليها الرومان للآلهة المصرية . فها هو الشاعر بروبرتيوس Propertius يتحدث عن الآلهة المصرية فى معرض حديثه عن الحرب بين كليوباترة وأوكتافيانوس قائلا " نعم لقد اجترأت الملكة العاهرة ملكة كانوب الدنسة والوصمة الوحيدة التى دمغتها فى جبين روما سلاله فيليب على أن تواجه إلهنا جوبيتر العظيم بأنوبيس الذى ينبح كالكلب وأن ترغم التايبر على إحتمال تهديدات النيل " (٩٧) . ولكن فى النصف الثانى من عصر أوغسطس أخذ النيل يظهر على العملة مع الربط بينه وبين الخير . كما بدأت الاشارة إلى ظهور رفيقة لإله النيل . وهذه الرفيقة هى فى الأصل الربة إيزيس . ولكن نظرا لعقلية الرومان النفعية فقد حرصوا على أن تكون هذه الرفيقة تجسيدا للانتاج الزراعى الأول لمصر الذى يهم الرومان . لذلك فقد كانت هذه الرفيقة هى Euthenia التى تحمل على رأسها تاجاً من سنابل القمح(٩٨) . وقد استمر ظهور إله النيل ورفيقته على العملة الرومانية

خلال عصر العائلة اليوليو كلودية . وكانت بداية ظهور إله النيل ومعه الستة عشر طفلا فى عهد الامبراطور فسباسيان . فقد بدأ فى عهد العائلة الفلاقية مزيدا من الاهتمام بالعبادات المصرية . ومن الواضح أن رقم ١٦ له دلالة هامة . فان النيل إذا إرتفع منسوبه إلى ١٦ ذراعاً عند مقياس منف كان ذلك دليلا على أن الفيضان طيب وأن الرخاء سوف يعم (٩٩) .

والواقع أن فكرة إله النيل المتكىء هى من نتاج الفن السكندرى أما وجود الـ ١٦ طفلا من حوله فهى فكرة رومانية . فقد أراد الفنان أن يشعر الرومان بمدى أهمية فيضان النيل ووصوله إلى ١٦ ذراعا . لأن ذلك يؤدى إلى خير الشعب الرومانى بعكس الحال فى فيضان نهر التايبر الذى يحمل لهم الدمار فى العادة .

ومن المعروف أن الامبراطور فسباسيان كان يشعر بالامتنان لمصر . فقد كان فى الأصل قائدا عسكريا أرسله الامبراطور نيرون لإخماد ثورة اليهود فى فلسطين . وبعد مقتل نيرون وقع صراع حول عرش الامبراطورية الرومانية . وكان فسباسيان من بين المتصارعين فى الحلبة . وعندما إعترف به الولى الرومانى فى مصر امبراطوراً سارع بالقدوم إلى الاسكندرية . واعتبر يوم أول يوليو من عام ٦٩ بداية لحكمه وهو تاريخ اعتراف والى مصر به (١٠٠). ويقال أن النيل فى أثناء وجود فسباسيان فى مصر قد إرتفع فى يوم واحد بمقدار أربعة أذرع . وفسر ذلك بأنه معجزه تعبر عن ترحيب الآلهة المصرية بالامبراطور الجديد. وربما كان فسباسيان هو الذى أوحى للفنان بفكرة وجود الـ ١٦ طفلا حول إله النيل ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا هو النمط السائد لتماثيل الاله نيلوس (١٠١) .

وفى مصر كانت تقام مظاهر عبادة الإله نيلوس . وتؤدى الصلوات عند إرتفاعه . وتحدثنا وثيقة بردية [١٠٢] يرجع تاريخها إلى القرن الثانى الميلادى عن مثل هذه الاحتفالات . ويبدو أنه كان يتقدم موكب



تمثال نيلوس بمتحف الاسكندرية وهو يمسك فى يده اليسرى بقرن الخيرات

الاحتفال رجال يحملون تماثيل الإله نيلوس . فقد أشارت الوثيقة إلى المبالغ التى تدفع للرجال الذين يحملون تمثال نيلوس . كما تحدثنا بردية أخرى [١٠٣] يرجع تاريخها إلى نفس الفترة عن الأضاحى التى تقدم إحتفالا بالإله نيلوس ونصها كما يلى" إلى الاستراتيجوس- بيان بالأشياء التى أعدت للتضحية إلى أعظم الآلهة قدسية - نيلوس - فى ٣٠ بؤونه . عدد واحد عجل ٢ إناء من الخمر ذات النكهة الطيبة ١٦

قطعة من الحلوى ١٦ اكليلاً من الزهور ١٦ وعاء للشرب ١٦ كعكه ١٦ من سعف النخيل الأخضر ١٦ عود من القصب . بالإضافة إلى الزيت والعسل وجميع مواد العطارة فيما عدا البخور " .

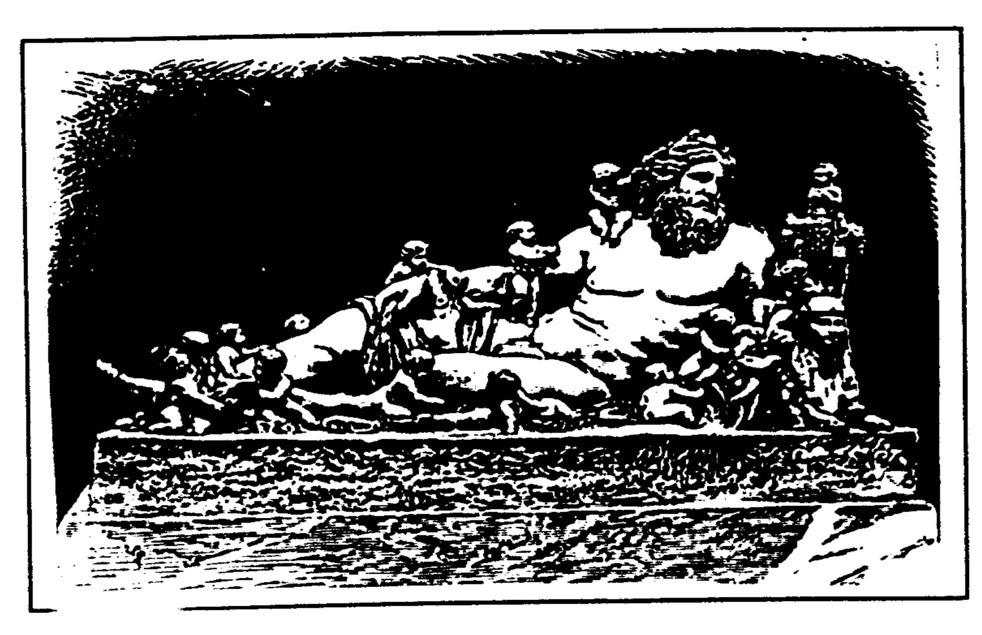


رفيقة إله النيل Euthenia من متحف الاسكندرية .

ولا يخفى علينا بالطبع دلالة رقم ١٦ الذى يتكرر فى عدد الأضاحى المقدمه للإله نيلوس . كما نلاحظ أن إغريق مصر كانوا يطلقون على أبنائهم إسم نيلوس تيمنا باله النيل العظيم وهو ما نجده على سبيل المثال فى بردية (١٠٤) يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادى .

ومجمل القول أن عبادة النيل كانت موجودة لدى المصريين متمثلة فى الإله حابى ، وفى عصر البطالمة إرتبطت بالاله سيرابيس . أما فى العصر

الرومانى فقد لقيت تشجيعا من الأباطرة الرومان بداية بعهد الامبراطور فسباسيان . وإنتشرت هذه العبادة فى إيطاليا إعترافا بفضل النيل على الرومان .



تمثال الاله نيلوس (الموجود بمتحف الفاتيكان) . وهو يستلقى عاريا . وعلى فخذه الأيمن طرف عباءة . ويمسك فى يده اليمنى سنابل القمح . أما يده اليسرى فانه يستند بها على ظهر تمثال (أبو الهول) ويمسك بها قرن الخيرات . ويوجد حول التمثال ١٦ طفلا يلهون . وقد زينت القاعدة بمشاهد نيليه.

الهوامش

١- Hyde, W.W, Ancient Greek Mariners . Oxford 1946 P . 256

٢- Herodot II 35

لايفوتني أن أنبه القارىء إلى أنني أعتمدت فيما أوردته من نصوص لهيرودوت على الترجمة التي أعدها الدكتور محمد صقر خفاجه وقدم لها الدكتور أحمد بدوي . والتي أشرت إليها آنفا .

٣- من الطريف أن آثار مصر التي أثارت إعجاب هيرودوت لم يكن لها نفس التأثير على إسترابون الذي رأى فيها مضيعه للوقت

إنظر : Strabo XVII . 1 . 28

٤- كاتب إغريقي عاش ما بين عامي ٢٢٠ ، ٢٥٠ ميلادية ومن أشهر أعماله روايه ايثيوبيكا Aethiopica . إنظر: Heliod . IX 22:

٥- Smith . W. A , A Dictionary of Greek and Roman Geography . London . 1873 . V . Nilus .

٦- Plutarch . Alex . 36 . 4 . 2 .

٧- Aeschylus . Sup . 561 .

٨- نقلا عن ديودور إنظر : Diodorus I 38 . 1 - 6

٩- Strabo . 15 . 1 . 22 .

١٠- Diodorus . I 40 . 4 .

١١- Plutarch. Isis $ Osiris 353 A 21 .

فيما يتعلق بنصوص بلوتارك فاننا نورد ترجمة الدكتور حسن صبحي بكري التي أشرنا إليها من قبل .

١٢- بل إن مياه النيل عند البعض تشبه الخمر فى عذوبتها . فان أحد أباطرة الرومان عندما كان يطلب الخمر يقول لمن حوله " إعطونى ماء النيل "

إنظر : Smith , W .W . loc . cit .

١٣- Herodot . IV 50 .

يقصد هيرودوت مجرى النيل فى الجزء الذى يقع فى مصر لأن النيل فى أجزائه العليا تصب فيه أنهار أخرى إنظر الفصل الخامس .

١٤- Herodot . II 33 .

يرى هايد أن سعى هيرودوت إلى التشبيه بين النيل والدانوب يأتى فى إطار فكرة التماثل بين الأشياء السائدة فى الفكر اليونانى إنظر :

Hyde , W.W . op . cit . P . 277 .

١٥- Herodot IV 51 . 8 .

١٦- Warmington, E . H , Greek Geography. London 1934 . p 142.

١٧- Diodorus I 32 . 1

١٨- Diodorus II 35.

١٩- Diodorus II 10 . 11 .

٢٠- Warmington , E . H , op . cit . PP . 24 - 25 .

٢١- Diodorus I 36 . 2 .

٢٢- Herodot . II 15 .

٢٣- Diodorus I 10 .

٢٤- عاش بومبونيوس ميلا فى عهد الامبراطور كلوديوس (٤١ - ٥٤ميلادية)

وألف كتابا عن العالم المعروف على أيامه تضمن ملاحظاته عن عادات الشعوب المختلفة إنظر :

Tozer , H . F , op . cit . P 262 .

أما أوفيد فهو شاعر روماني ولد في عام ٤٣ ق . م . ويعد آخر الشعراء الذين ينتمون إلى العصر الاوغسطى . وقد عاش حتى عام ١٨ ميلادية أنظر:

أحمد عتمان . الأدب اللاتيني ودوره الحضارى . سلسلة عالم المعرفة ١٤١ ص٢٦٣ .

وقد جاء في كتاب أوفيد (مسخ الكائنات) Ovid . Met I 422 - 429

" إنا لنجد شيئا من هنا مع فيض نهر النيل ذى المصاب السبعة . حين يفيض تاركا على الأرض الغرين . فما يلبث ذلك الغرين بعد أن ترسل عليه الشمس أشعتها أن يتفرج عن هوام كثيرة يجدها الزارعون حين يقلبون الأرض بفؤوسهم . ومنها ما اكتمل نموه وبات على وشك أن ينبعث بالحياه . ومنها ما دبت الحياة في عضو واحد من أعضائه بينما بقيت الأخرى صصلا لم يتشكل بعد " . إنظر الترجمة العربية .

ثروت عكاشه . مسخ الكائنات . الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٤ . ص٣٩

٢٥- هو ابن الملك كيليوس من قرية إليوسيس (في ريف أثينا) وتحكى لاسطورة أن الربة ديميتر عندما شعرت بالاعياء في أثناء بحثها عن إبنتها وقفت لكى تستريح في أثينا . فأكرمها الملك وعائلته دون أن يعرفا شخصيتها . لذلك فانها تعهدت ابن الملك بالرعاية . وعندما شب على الطوق علمته الزراعة وخصوصا زراعة القمح إنظر :

أمين سلامة . معجم الأساطير اليونانية والرومانية الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٨٨ . ص ١٣٨

٢٦- Diodorus V 68 - 69 .

٢٧- Diodorus I 36 . 2 .

٢٨- تحكى أسطورة ديوكاليون أن زيوس كبير الآلهة غضب على البشر فقرر أن يفنيهم . فسلط عليهم الطوفان . إلا أن ديوكاليون الذى علم بأمر الطوفان صنع صندوقا خشبيا إستطاع أن ينجو بواسطته هو وزوجته . وأخبرهما زيوس برغبته فى خلق جيل طاهر من البشر . وأخذ ديوكاليون يلتقط الأحجار من الأرض ويلقيها . وما لبثت الأحجار التى ألقاها أن تحولت إلى رجال . بينما تحولت الأحجار التى ألقتها زوجته إلى نساء . وهكذا عمرت الأرض من جديد .

إنظر :عبد المعطى شعراوى.أساطير إغريقيه (أساطير البشر) القاهرة ١٩٨٢

٢٩- Ball . J , op . cit . P . 24 .

٣٠- من المرجح أن أنكسمندر كان تلميذا للفيلسوف طاليس . وكان يرى أن الكائنات الحية تولدت فى الرطوبة الناتجة عن التبخر وأن طين البحر هو مزيج من التراب والماء والهواء . كما أن الكائنات الحية كانت فى الأصل سمكا مغطى بالقشر . حتى إذا ما بلغ الانسان أشده نزح إلى اليابسه . ويعتقد هذا الفيلسوف أن الانسان ينحدر من حيوانات مائية إنظر :

يوسف كرم . تاريخ الفلسفة اليونانية . القاهرة ١٩٦٦ ص١٤ ، ١٥

٣١- Plato , Timaeus 22 D .

٣٢- تولى منصب الأرخون فى أثينا فى عام ٥٩٤ . ق . م وأستطاع أن يقوم بادخال إصلاحات سياسية واقتصادية هامه فى الدولة . وبعد إنتهاء مدة شغله للوظيفة غادر أثينا فى رحلة لمدة عشر سنوات زار خلالها مصر وبلدان أخرى .

٣٣- Aeschylus . The Persians II 33 - 34 .

٣٤- Aritsophanes , Thesmophoriazusae 855 .

٣٥- Herodot II 4 .

٣٦- Herodot II 5 .

٣٧- Herodot II 12 .

٣٨- Herodot II 5 .

٣٩- Herodot II 11 .

٤٠- Herodot II 12 .

٤١- Herodot III 2 3 . 3 .

٤٢- Strabo . 12 . 2 . 4 .

٤٣- إنظر تعليق أحمد بدوى على هذه الفقرة عند هيرودوت المرجع السابق . ص٧٤ . إنظر أيضا :

Warmington , E . H . op . cit . p . 85 .

٤٤- إنظر الفقرات رقم ١٦ ، ١٧ من الكتاب الثانى . وكانت المره الوحيده التى ذكر هيكاتيه بالاسم فى الفقرة ١٤٣ إنظر :

Gary , M , Geagraphic Background of Greek $Roman History .Oxford 1949 P . 207 , Thomson , J . O History of Ancient . Geography. Cambridge 1948 P 65 n . 1 .

٤٥- Hyde , W. W , op . cit . P . 259 .

٤٦- Herodot II 15 .

٤٧- Arrian , Anabasis V 6 . 5 .

كاتب عاش فى القرن الثانى الميلادى وسار على نهج الكاتب الاغريقى

المعروف إكسينوفون . وتعتبر كتاباته من أهم مصادرنا عن حملات الاسكندر الأكبر . إنظر: Oxford Cl . Dict .

٤٨- Lloyed , A . B, op cit . p . 128 , Brown , T . S , Herodot speculates About Egypt . Amircan Journal of Philology . 86 . 1965 P . 38.

٤٩- Plutarch V , Isis and Osiris . . 367 B 4 .

٥٠- توفون كما جاء فى الأساطير كان وحشا مخيفا هائل الحجم له مائة رأس وعيون يتطاير منها الشر خلقته جيا Gea (الأرض) لمعاقبة زيوس فأزعج الآلهة فهربوا جميعا إلى مصر متخذين أشكال الحيوانات وكان زيوس على هيئة كبش . إلا أنه إستعاد شجاعته وهاجم توفون مرسلا عليه صاعقته ثم قذف به فى الجحيم . إنظر أمين سلامة . المرجع السابق . ص١٤٢ .

٥١- Odyssey . 4 . 354.

٥٢- Moret , A : Nile and the Egyptian Civilization . P . 25 n . I .

٥٣- Herodot II 18 .

٥٤- أى معبد الاله آمون فى واحة سيوه . وكان من أشهر معابد الوحى فى العالم القديم . وكان الاغريق يأتون إليه لسؤال الوحى ومن أشهر الاغريق الذين زاروا هذا المعبد الاسكندر الاكبر عندما فتح مصر فى عام ٣٣٢ ق .م.

٥٥- المدينة الأولى تقع فى منطقة مريوط الحالية أما الثانية فيذكر إسترابون إنها تقع على مسيرة خمسة أيام من معبد آمون فى سيوة إنظر : بدوى . المرجع السابق ص٩٤ .

٥٦- كانت الربة إيزيس تصور فى هيئة أنثى يزدان رأسها بقرنى بقرة . فلم يكن

من الغريب أن يقدس المصريون إناث البقر ويحرمون على أنفسهم لحومها .

إنظر :

بدوى . المرجع السابق . نفس الصفحة .

٥٧- Ball , J , op cit . P . 12 .

٥٨- Strabo I 2 . 25 .

٥٩- Strabo XVII 1 . 5 .

٦٠- Strabo XVII 1 4-5 .

٦١- Strabo I 2 . 29 .

٦٢- Diodorus I 51 . 1-5 .

٦٣- Graves , R , The Greek Myths I pp . 190 -3 .

٦٤- Aeschylus , sup . 315 . 547 .

٦٥- Herodot II 17 .

٦٦- Herodot II 16 .

٦٧- Warmington , E . H , op cit . P . 82 .

٦٨- Ball , J . op cit . P . 57 .

٦٩- بوليبيوس مؤرخ إغريقى عاش فيما بين عامى ٢٠٠ ، ١٢٠ ق . م ويعد كتابه الذى كتبه باللغة اليونانية أوثق مصدر عن تاريخ الجمهورية الرومانية .إنظر : عبد اللطيف أحمد على . مصادر التاريخ الرومانى بيروت ١٩٧٠ ص ٥٥ - ٥٩ .

٧٠- Polybios III 37 .

٧١- كانت توجد مدينة تحمل هذا الاسم عند مصب نهر اللون كانت تعتبر نهاية

طرق التجارة بين قارة أوروبا وبداية الطرق المتجهة الى قلب آسيا . إنظر :

Cary , M , op cit . P 312 .

٧٢- Ball , J . op . cit . P . 29 .

٧٣- Diodorus I 2 . 25 .

٧٤- Diodorus I 2 . 28

٧٥- Diodorus XVIII 6 .

٧٦- Ball , J . op cit . p . 100

٧٧- Gardiner , A . H . Ancient Egyptian Onomastica II 163 - 5 .

٧٨- Smith , H . S . Varia Ptolemaica. Glimpses of Ancient Egypt. Studies in Honour of H . W . Fairman . London 1979 . P . 163 .

٧٩- Smith , W . .A .op cit . V . Nilus .

٨٠- Hyde , W .W . op cit . P . 257 .

٨١- Diodorus I 19 . 1-5 .

٨٢- Odyssey . 14 . 258 .

٨٣- Theogony . 338

من أقدم شعراء الاغريق ويرجح مؤرخو الأدب أنه عاش فى حوالى القرن الثامن . ق . م ومن أشهر أعماله قصيدة أنساب الألهه .

٨٤- Diodorus I 19 . 1-5 , I 62 1-2 .

٨٥- Strabo XVII 1 . 4 , 1 . 5 .

٨٦- عن الاسماء المختلفة لمجرى النيل خارج مصر كما وردت فى المصادر

الاغريقية إنظر الفصل الخامس .

٨٧- أحمد بدوى . المرجع السابق ص١٠٤

٨٨- Herodot II 90 .

٨٩- Plutarch , Isis . Osiris . 363 D 3 , 363 E 6 .

٩٠- Theogony . 337 .

٩١- Euripides . Hel . 2 .

٩٢- P . Petrie . III 56 D .

٩٣- Bonneau , D . La Crue du Nil . Divinite Egyptienne . P . 326 .

٩٤- Fraser , P . M op cit . p . 263 .

٩٥- SB . 8883 .

٩٦- Fraser , P M . op cit . p . 236 .

٩٧- إنظر : عبد اللطيف أحمد على . مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية - القاهرة ١٩٦٥ ص٣٤ .

٩٨- Bonneau , D . op cit . p . 331 .

٩٩- راجع الفصل الخامس عن مقياس النيل .

١٠٠- مصطفى العبادى . المرجع السابق ص١٧٨ .

١٠١- Bonneau , D op . cit . p . 342 .

١٠٢- P . Oxy . 519 .

١٠٣- P . Oxy . 1211 .

١٠٤- P. Mich . 515 .

الفصل الثالث
منابع النيـــل

لعل من أكثر الأشياء التى أثارت حيرة الإغريق هى محاولة معرفة مصدر مياه نهر النيل . فعلى حين كانت مصادر مياه الأنهار فى بلادهم أمرا معروفا فان مصدر مياه نهر النيل ظلت لغزا يحير الأذهان . ومما زاد من غموض هذا الأمر أن المنطقة التى تقع جنوب مصر كانت عالما مجهولا لأهل ذلك الزمان . لذلك فقد أطلقوا لخيالهم العنان تارة ، وأعملوا العقل تارة أخرى فى محاولة لكشف سر هذا اللغز . ولكن قبل أن نستعرض محاولات الاغريق للكشف عن سر منابع النيل . فانه ينبغى أولا أن نحاول أن نبين فكرة المصريين فى هذا الصدد . وذلك لأن الاغريق حاولوا الاستفادة من معرفة أفكار المصريين فيما يتعلق بمنابع النيل .

المصريون ومنابع النيل .

ازداد اهتمام المصريين بالمنطقة الواقعة جنوب مصر منذ عهد الاسرة الخامسة . فقد كانوا يرسلون الحملات لإحضار خيرات الجنوب واستمر الحال كذلك فى عهد الأسرة السادسة . فأسند ملوك هذه الاسرة إلى أمراء جزيرة الفنتيين مهمة القيام برحلات إلى الجنوب . ويدل على ذلك نص مسجل على واجهة قبر فى أسوان ذكر كاتبه قصة هذه الرحلات وأشار إلى أن إحداها استغرقت مدة سبعة شهور . وذكر القائد المصرى مفاخرا أنه ارتاد فى رحلته الثانية مناطق لم يصل إليها أحد من قبل . وفى الرحلة الثالثة سلك طريق الواحات وعاد منها محملا بالبخور

والآبنوس والعطور وجلود الفهد وأنياب الفيله والسمسم وغيرها أما الرحلة الرابعة لهذا القائد فقد أحضر معه أحد الأقزام . وكان هذا القزم موضع إعجاب الجميع وعلى رأسهم الملك [١].

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة واصل أمنمحات الأول سياسة الاهتمام بالجنوب وأمتد النفوذ المصرى حتى دنقله . وتابع ابنه سنوسرت الأول سياسة أبيه : فأخذ فى التوسع جنوبا . ومن الملاحظ أن كلمة " كوش " أصبحت تتردد بكثرة فى النصوص مما يعنى امتداد النفوذ المصرى إلى هذه المنطقة . ويمكن القول أن ملوك هذه الأسرة تمكنوا من إخضاع المنطقة التى تقع بين الشلال الأول والشلال الثانى اخضاعاً تاماً ولم تقف جهود هذه الأسرة عند هذا الحد بل وصلت حدود مصر إلى جنوب الشلال الثالث. ولم يقتصر الاهتمام بالجنوب على ملك دون آخر من ملوك هذه الأسرة . بل أظهروا جميعا إهتماما كبيرا بالنوبة ،مياه النيل . ولكن أحدهما وهو سنوسرت الثالث بذل اهتماما أكبر بالحدود الجنوبية لمصر . فنزل بنفسه على رأس جيشه عدة مرات[٢].

ويقول إسترابون[٣] أن سيزوستريس (سنوسرت الثالث) قد جاب أثيوبية كلها حتى بلاد الصومال . وأن نصبا تخلد رحلته ونقوشا لاتزال ترى هناك حتى الآن (أى أيام إسترابون) . أما أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة فقد قام بحملة على تلك البلاد لإعادة الأمن إليها ، وعندما ارتقى تحوتمس الأول العرش (١٥٢٥ - ١٤٩٥ ق .م) توغل فى الجنوب حتى وصل إلى دنقلة . وأصبحت مدينة نباتا فى داخل الحدود المصرية . إلا أن النفوذ المصرى فى عهده وصل إلى ما قبل مدينة الخرطوم الحالية . ومن أجل تنظيم الأحوال فى هذه المنطقة الجنوبية فان

الملك جعل البلاد الواقعة ما بين مدينة الكاب (شمال إدفو الحاليه) وحتى حدوده فى السودان وحدة واحدة يحكمها قائد كان يحمل لقب " ابن الملك فى كوش " . وقد نجح تحوتمس الأول فى القضاء على مملكة كوش وجعل منها ولاية مصرية . أما تحوتمس الثالث فقد أوصل حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الرابع [٤].

وفى عصر الأسرة ٢٦ قام الفرعون إبسماتيك الثانى (٥٩٤ - ٥٧٨ ق . م) بحملة على الجنوب فوصل إلى وادى حلفا . وكان جيشه مؤلفا من الإغريق والمصريين والسوريين . ومن آثار تلك الحملة ما تركه الجنود من نقوش على ساق أحد تماثيل رمسيس الثانى أمام معبد " أبو سمبل"[٥] . كما حدثنا هيرودوت عن بعض جنود إبسماتيك الذين فروا إلى بلاد الاثيوبيين قائلا [٦]" فاذا أبحرت من هذه المدينة فانك ستصل إلى بلاد (الفارين) فى الوقت الذى إستغرقه ذهابك من إليفانتينا حتى عاصمة الأثيوبيين . واسم هؤلاء الفارين (أسماخ) وهذه تعنى فى اليونانية الذين يقفون ناحية اليد اليسرى للملك ويبلغ عددهم مئتين وأربعين ألف مصرى من المحاربين وقد لجأوا إلى الاثيوبيين لهذا السبب . وفى عهد الملك إبسماتيك وضعت إحدى الحاميات فى مدينة إليفانتينا تجاه الاثيوبيين . وأخرى فى دافناى البلوزيه تجاه العرب والسوريين . وأخرى فى ماريا تجاه ليبيا .... ظل هؤلاء المصريون يقومون بالحراسة فى إليفانتينا ثلاثة أعوام ولم يأت أحد ليعفيهم من العمل فتشاوروا وقرروا بالإجماع الثورة على إبسماتيك والذهاب إلى إثيوبيه . فلما علم الملك بذلك اقتفى أثرهم وعندما لحق بهم حاول كثيرا إقناعهم بألايهجروا آلهة آبائهم وأولادهم ونسائهم . ولكن يقال إن أحدهم أشار إلى عورته

قائلا : أينما وجدت هذه فسوف يكون لهم أطفال ونساء . ولما وصلوا إلى إثيوبيه قدموا أنفسهم إلى ملك الاثيوبيين الذى كافأهم كما يلى : اختلف معه بعض الاثيوبيين فطلب إلى المصريين أن يطردوهم ويسكنوا أرضهم ولما أقام المصريون بين الاثيوبيين أصبح هؤلاء أكثر تمدينا ؛ لأنهم تطبعوا بالطباع المصرية " . ولكن على الرغم من هذا التوغل المصرى فى الجنوب فان المصريين لم يهتموا بالكشف عن منابع النيل (٧).

ويقول موريه Moret إننا إذا ما حاولنا أن نتتبع ما ورد فى النصوص المصرية بشأن منابع النيل فيمكننا أن نلاحظ أنه لم يكن لديهم فكرة واضحة عن تلك المنابع . فقد جاء فى أحد هذه النصوص وصف النيل بأنه القادم من الظلام (٨). كما ورد فى أحد نصوص الأهرام أن النيل يأتى من السماء (٩). وفى نص آخر من نصوص الأهرام أن النيل ينبع من مكان غامض (١٠). وعند إخناتون فان الذى خلق النيل هو معبوده آتون إذ يقول مخاطبا إياه " أنت خلقت النيل فى العالم الأرضى وأنت تخرجه بأمرك فتحفظ به الناس . أنت الذى خلقت فى السماء نيلا لكى ينزل عليهم ولهم . يتساقط الفيضان على الجبال كالبحر الزاخر فيسقي مزارعهم وسط ديارهم . ما أبدع تدابيرك يا إله الأبدية . فى السماء نيل للأمم الغربية . ولماشية البلاد الآخرى ودوابها .ولكل ما يمشى على رجلين . أما النيل الذى يروى مصر فانه يأتى من باطن الأرض " (١١).

وكان المصريون يعتقدون أن منابع النيل تقع عند الشلال الأول جنوبى أسوان . وأن الكبش الذى كان حيوانا مقدسا لديهم يحرس هذه المنابع . وربما يصور لنا الحوار الذى دار بين هيرودوت وأحد الكهنة المصريين

بعضا مما كان يعتقده المصريون من أمر منابع النيل . يقول هيرودوت[١٢]" وفيما يتعلق بمنابع النيل ، لم يفخر أحد من المصريين أو الليبيين أو اليونانيين الذين تحدثوا إلى بأنه يعرف عنها شيئا حاشا مسجل الخزائن المقدسة لأثينا بمدينة سايس فى مصر [١٣] . وقد بدا لى أنه يمزح حينما ادعى أنه يعرف الحقيقة تمام المعرفة . وهذا ما قاله : يوجد بين مدينتى سوينى (أسوان) فى ولاية طيبه وإليفانتينا تلان ينتهيان بقلتين مدببتين أحدهما يسمى كروفى والآخر موفى . ومن هذين التلين تنفجر منابع النيل وهى ذات عمق سحيق وينساب نصف الماء نحو مصر فى اتجاه الرياح الشماليه والنصف الآخر نحو الحبشه فى إتجاه الرياح الجنوبية وأضاف هذا المسجل أن إبسماتيك ملك مصر أثبت بالتجربة أن المنابع لاغور لها . إذ جاء بحبل مجدول يبلغ طوله عدة آلاف من الأبواع وأدلى به فى هذا المكان فلم يصل إلى قرار . وإذا كان ما قاله المسجل قد حدث فعلا ، فقد بين كما فهمت أنه توجد بهذا المكان- وذلك بسبب إنهمار الماء الشديد على الجبلين- دوامات وتيارات مضادة مما أدى إلى أن المسبار عند الادلاء به لم يستطع بلوغ القاع " .

ويعلق الباحثون على ماورد عند هيرودوت فيما يتعلق باعتقاد المصريين بوجود منابع النيل جنوب الفنتيين قائلين إن هناك من النصوص المصرية ما يؤيد الرأى الذى ساقه هيرودوت . حيث يشير نص مصرى قديم إلى أن النيل يأتى من الفنتين . وأنه ينبع من خليجين بين صخرتين. وفى معبد فيله صور إله النيل (حابى) وهو قابع فى كهف يصب المياه فى بحريين . وأن كلمة كروفى تعنى كهف حابى بينما تعنى كلمة موفى مياه حابى [١٤].

أما أحمد بدوى فيقدم تفسيرا مختلفا لكلمتى موفى وكروفى . فيقول أن كلمة كروفى تعنى الردىء أما موفى فانها تعنى الطيب وأن المصريين أطلقوا على الأولى هذا اللفظ لأنها تبعث بمياهها إلى الجنوب . أما الفرع الطيب (موفى) فهو الذى يأتى بالمياه إلى مصر[١٥].

ويواصل أحمد بدوى تعليقه على هذه الفقرة من كتاب هيرودوت قائلا [١٦]" كلا لم يكن الراوى مازحا كما ظن هيرودوت فالرواية صحيحة فى عقيدة آل فرعون الذين كانت شلالات أسوان لديهم منابع النهر التقليدية حتى بعد أن أدركوا المدى بينهم وبين منابعه ونحن نلتمس العذر لهيرودوت الذى كان يفكر بعقله . على حين كان المصريون يراعون عقيدتهم وتقاليدهم القديمه . ولم يكن عجبا ألا يجد هيرودوت بين المصريين من يدله على منابع النيل . فالنيل فى خيال المصريين أو عقيدتهم الدينية كان يفيض من معينين أحدهما دموع إيزيس على زوجها الشهيد والثانى عرق ذلك الشهيد " .

ويتفق لويد [١٧] Lloyed مع أحمد بدوى فى التعليق على هذه الفقرة فيذكر أن هيرودوت كان ينظر بعين الحذر إلى ما يحدثه به الكهنة لأن كلامهم إنما ينبع من عقيدتهم . وهو أمر يتعارض مع عقل هيرودوت الذى تأثر بالفلسفة الأيونية . ويرى هذا الباحث أيضا أن هيرودوت فى كثير من المواضع كان قادرا على التفريق بين ما هو أسطورى وما هو قائم على العقل .

وقد حدثنا مصدر إغريقى آخر عن فكرة المصريين عن منابع النيل . فقد ذكر ديودور [١٨] أن كهنة مصر حدثوه بأن النيل يستمد مياهه من المياه المحيطة بالعالم المسكون . ولم يقبل ديودور هذه الفكره لأنه ليس

هناك ما يؤيدها ؛ بل إن هؤلاء الكهنة من وجهة نظر ديودور يحلون مشكلة غامضة بشكل يحتوى على المزيد من الغموض .

ويعتقد بعض الباحثين [١٩] أن المصريين ربما عرفوا منابع النيل الأزرق وربما تمكنوا أيضا من معرفة نهر عطبره والنيل الأبيض حتى بحر الغزال . ويمكننا أن نلاحظ أن مسألة غموض منابع النيل فى الفكر المصرى قد ظلت حتى العصر الرومانى . وهذا ما يمكن أن نستخلصه من الصوره التى رسمها الفنان المصرى لإله النيل القابع فى كهفه ويمسك فى يده جرتين يصب منهما الماء [٢٠].

وربما كان الفرس هم أول من فكروا فى الكشف عن منابع النيل أثناء احتلالهم لمصر[٢١].فبعد أن قام الملك الفارس قمبيز(٥٢٥-٥٢٢ق.م) بهزيمة الاثيوبيين قرر إرسال ثلاث حملات . واحدة إلى قرطاجه والثانية إلى واحة سيوة . وهى الحملة التى دمر فيها جيشه تماما . أما الحملة الثالثة فقد وجهها إلى الاثيوبيين الذين يسكنون شواطىء (المحيط الجنوبى) فبادر أولا بارسال عيونه إلى الفنتين لكى يأتوه بأخبار الرجال ذوى القامة الطويلة حتى يتمكن من غزوهم . وأرسل مع رجاله هدايا إلى ملك الاثيوبيين . وقد رفض هذا الآخير تلك الهدايا فيما عدا زق من الخمر . لأنه تشكك فى نوايا هذه البعثة . وأحضر لهم قوسًا قائلا لهم إذا تمكن قمبيز من شد هذا القوس فانه سينجح فى غزو هذه البلاد . ويقال أن قمبيز أرسل جيشا إلى الجنوب قوامه خمسون الف مقاتل . إلا أن هذا الجيش واجه ظروفا قاسيه حيث نفذت مؤونته وأكل جنوده الدواب ثم ما لبثوا أن أكل بعضهم بعضا . وقد بلغ هذا الجيش مروى ، حيث لقى هزيمة منكره على يد ملوك نباتا الذين إلتقوا بهذا الجيش بعد أن

خارت قواه . والحقيقة إننا لانستطيع أن نقرر ما إذا كانت هذه الحملة قد أضافت جديدا فى مجال الكشف عن منابع النيل . لأن أهل مروى لم يكن لديهم فكرة عن منابع النيل . وهذا يتضح بجلاء من الاسم الذى أطلقوه على النيل وهو القادم من الظلام " . وهو ما حدثنا به ديودور[٢٢].

الإغريق ومنابع النيل

إذا كنا قد ذكرنا من قبل أن نهر النيل قد أثار انبهار الاغريق فان منابع هذا النهر كانت من أكثر الاشياء التى ترتبط بالنيل والتى أثارت حيرة الإغريق : لذا فقد أطلقوا لخيالهم العنان فى محاولة لكشف سر منابع النيل . ويرى إسترابون [٢٣] أن هوميروس كان أول من أدلى بدلوه فى مشكلة منابع النيل . فهو القائل بأن مياه النيل تأتى من السماء عندما قال " أنه يأتى من زيوس . يأتى من أمطار السماء [٢٤]. كما جاء عند يوريبيديس [٢٥] عن مصدر مياه النيل ما يلى " لقد ترك مياه النيل . البالغة الصفاء . تلك التى تأتى الأرض من بلاد الرجال ذوى البشرة السمراء - إثيوبيا حيث تنساب بقوة عندما يذوب الجليد ". وهذا يعنى أن يوريبيديس يرى أن منابع النيل تقع فى أثيوبيا . وأن مصدر هذه المياه هو الثلوج التى تذوب فى تلك البلاد . ومما هو جدير بالذكر أن يوريبيديس كان متأثرا برأى أستاذه الفيلسوف أنكساجوراس Anax-agoras [٢٦]. كما ردد هذه الفكرة إيسخيولوس [٢٧] فى مسرحية الضارعات قائلا " أرض زيوس المقدسة حيث تنمو جميع أشجار الفاكهة تلك المروج التى تخصبها الثلوج التى اجتاحها غضب توفون . حيث يوجد النيل ذو المياه الشافية التى لم تنتهك " . وفى مسرحية

بروميثيوس مقيداً قال نفس الشاعر [٢٨] عن منابع النيل " عندئذ ستصل إلى بلاد بعيدة حيث توجد قبيلة من ذوى الوجوه السمراء الذين يسكنون عند ينابيع الشمس . عند مجرى نهر إيثيوبوس Ethiopos . وإذا ما تجولت على ضفتيه فانك ستصل إلى الشلال حيث الجبال التى يصب منها نهر النيل مياهه المقدسة التى تقودك إلى دلتا مصر " . أما كاليماخوس القوريناتى [٢٩] شاعر البلاط السكندرى فقد ذكر فى النشيد الرابع أن النيل يأتى من الهضبة الاثيوبية .

وقد ذكرنا آنفا أن ديودور ذكر أن البعض يعتقدون أن النيل يستمد مياهه من المياه المحيطة بالأرض أى الأوقيانوس . وقد جاء عند كوملان فى كتابه عن الأساطير الإغريقية أن الاوقيانوس نهر كبير يحيط بالعالم وهو أول آلهة المياه . وابن أورانوس Uranos (السماء) وجايا Gea (الارض) وأنه أبو الكائنات كلها ويقول هوميروس إن الآلهة تنتسب إلى الأوقيانوس . ولا يفوتنا فى هذا الصدد ما جاء فى الأساطير من إشارة إلى إثيوبيا باعتبارها المقر الرئيسى للأوقيانوس - مصدر المياه - ويستطرد كوملان فى حديثه عن الأنهار كما جاء فى الأساطير : فيقول أن الأقدمين كانوا يرون أن النهر هو إله حقيقى ، له قصر غامض فى كهف عميق لايستطيع أى فرد أن يذهب إليه دون تصريح إلهى . وفى هذا الكهف يسيطر الإله على سيل المياه ويراقبها ويحكمها ، تحيط به طائفة من الحوريات اللاتى يتبارين فى خدمته[٣٠].

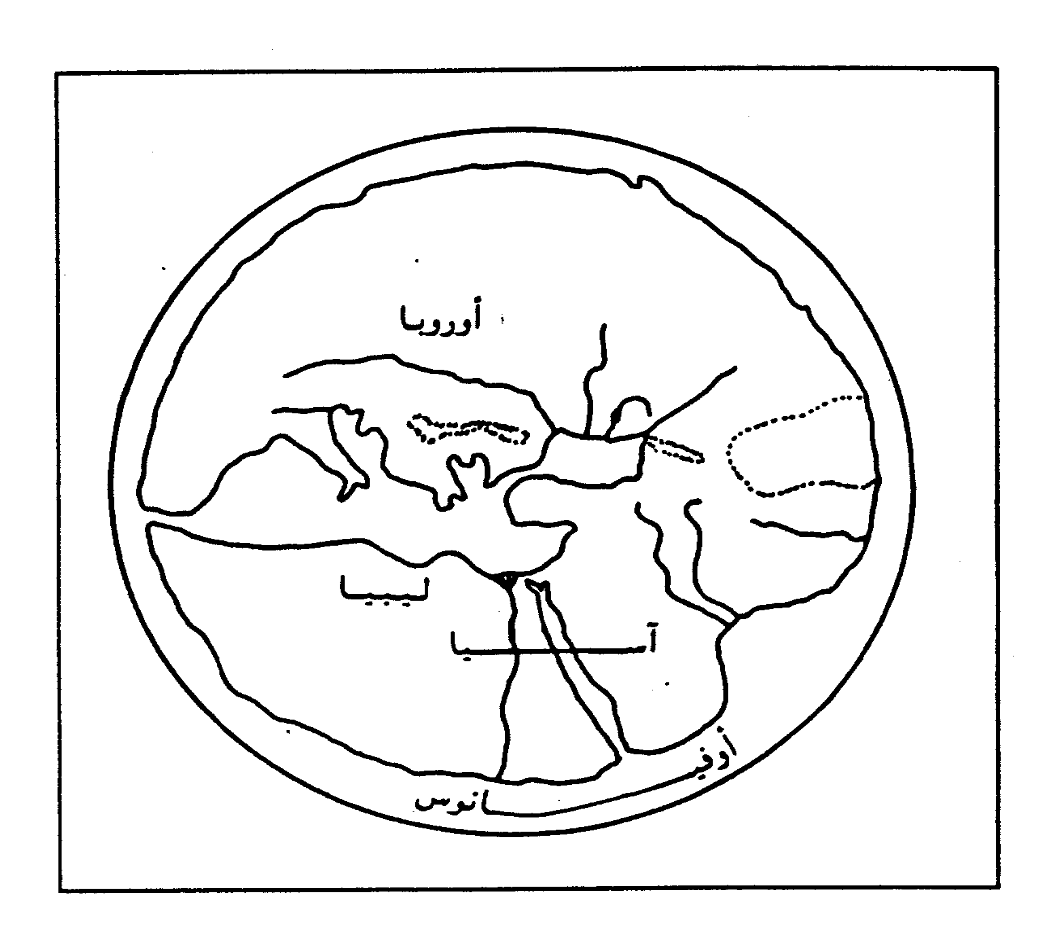
ولعل هذه الصوره التى وردت للأوقيانوس فى الأساطير الإغريقية تذكرنا بالصورة التى اشرنا إليها - من قبل فى معرض حديثنا عن عبادة النيل فى الفصل السابق حيث أوردنا صورة لإله النيل حابى

جالساً فى كهفه ويصبّ المياه من جرتين . كما أن الربط بين النيل والاوقيانوس ظل قائما لدى إغريق مصر فى العصر الرومانى . وهو ما يمكن إستخلاصه من عبارة نقشت على شاهد أحد القبور [٣١] تقول "إننى أشرب من مياه الأوقيانوس إذا أحضرت لى بعضا من مياه النيل . إنثر على بعضا من قطراته " . وقبل أن نترك الشعراء وعالم الأدب والأساطير فاننا يجب أن نشير إلى أن الجهل بمنابع النيل قد ظل قائما حتى عصر الامبراطور أوغسطس (٢٧ ق . م - ١٤ ميلادية) . وهذا ما يمكن أن نستخلصه من أبيات للشاعر هوراس Horac ، إذ يقول الشاعر موجهاً حديثه إلى الامبراطور " إليك يا أوغسطس يعطى النيل آذانه . هذا النيل الذى يخفى منابعه " [٣٣]. وفى عصر الامبراطور نيرون (٥٤ - ٦٨ ميلاديه) يقول الشاعر لوكان [٣٤] Lucanus فى قصيدة فارساليا Pharsalia " إن رغبتك أيها الرومانى فى اكتشاف النيل قد شعر بها ملوك مصر وفارس ومقدونيا . فى كل عصر كان هناك من يرغب فى معرفة الحقيقة ، ولكن طبيعة النيل هى التى تتغلب الاسكندر الملك العظيم كان يغار من النيل الغامض الذى كان معبودا لمنف . حتى أنه أرسل المستكشفين حتى أقاصى أثيوبيا . ولكن تلك السماء الساخنة والبلاد المتوحشة أوقفتهم . فقد رأوا النيل يتبخر . لقد واصل سيزوستريس مسيرته غربا حتى نهاية العالم وربط الملوك إلى عجلته الحربية وشرب من ماء البو والرون قبل أن يشرب من منابع النيل. وذلك الرجل المجنون قمبيز اتجه غربا حيث يوجد الرجال المعمرون ، ولكن عندما تضور جوعا فانه تغذى برجاله . ولكنه لم يشف غليله إلى معرفتك أيها النيل . وحتى الأساطير الموغلة فى

الكذب لم تقامر بالكشف عن منابعك " . ولعل أطرف حل لمشكلة منابع النيل فى العالم القديم ما ذكره الكاتب نونوس [٣٦] Nonnos . إذ قال أن النيل لاتوجد له منابع وأنه نهر يخلق نفسه بنفسه autogonos[٣٧].

أفكار علمية عن منابع النيل

إذا ما نحينا جانبا أقوال الشعراء وأفكارهم عن منابع النيل وكذلك ما ورد فى الأساطير فاننا نحاول أن نتتبع أفكار الفلاسفة والجغرافيين فى مشكلة منابع النيل . وهى أفكار ربما تختلف عن سابقتها فى كونها نتاجا لاجتهاد عقلى . إلا أننا نضع فى اعتبارنا أن هذا الاجتهاد فى كثير من الأحيان يصطدم بالقصور فى المعلومات المتوفرة لدى أهل ذلك الزمان ؛ وبصفه خاصة لدى أوائل الجغرافيين فها هو الفيلسوف الطبيعى طاليس الذى زار مصر فى القرن السابع ق . م يرى أن الاوقيانوس هو مصدر مياه النيل ويتفق معه فى هذا الاعتقاد هيكاتيه الذى قال إن النيل فى الجنوب يرتبط بالاقيانوس . وأن الكهنة فى مصر هم الذين ذكروا له هذه المعلومة [٣٨]. ويعد الفيلسوف الطبيعى ثراسكليز Thrascles هو أول القائلين بأن الأمطار هى مصدر مياه النيل . بينما يرى الفيلسوف أنكساجوراس أن الأنهار بشكل عام تستمد مياهها من مصدرين ؛ أولهما مياه الأمطار ، أما المصدر الثانى فهو المياه الكامنة فى داخل الأرض ، حيث يعتقد أن الأرض مجوفة وأنها تحتفظ بالمياه فى جوفها [٣٩].

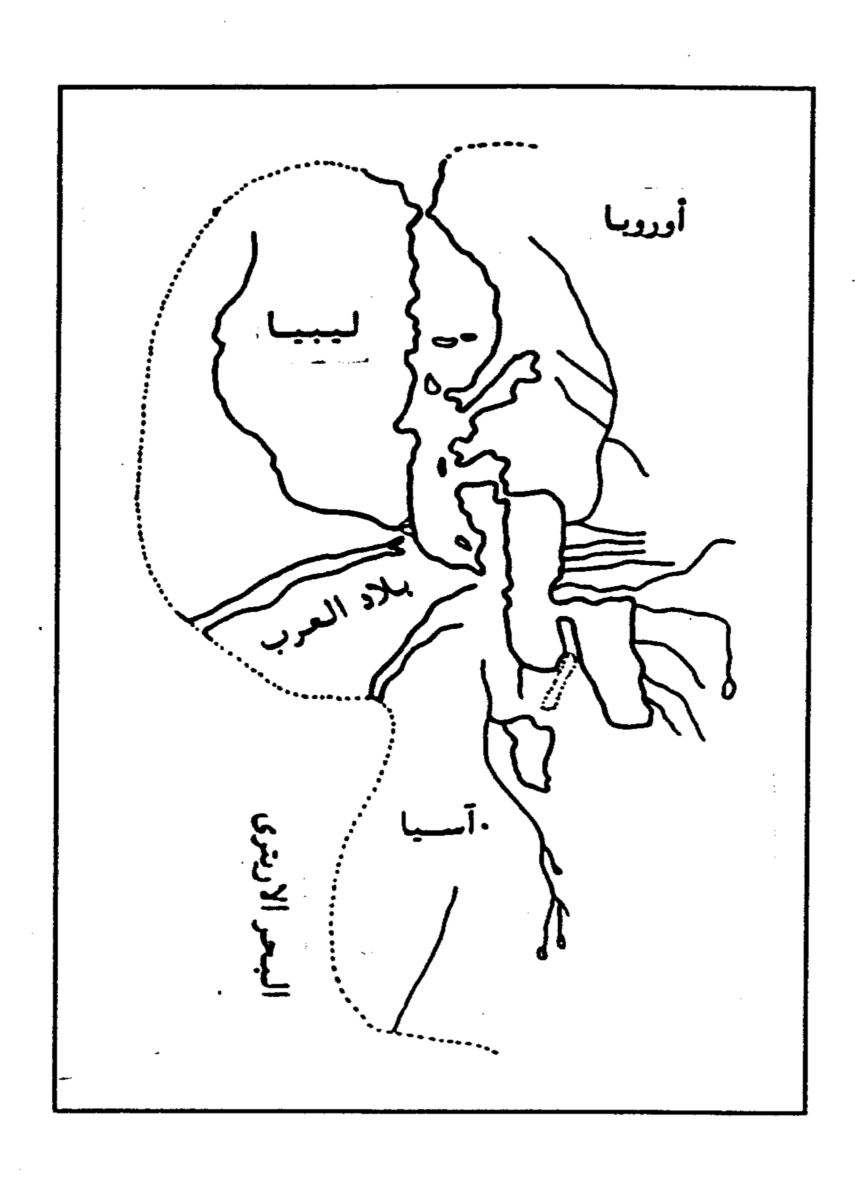


العالم عند هيكاتيه

(النيل يرتبط بالاوقيانوس)

ويرى أرسطو أن منابع النيل تقع عند سلسلة جبال تسمى جبال الفضه[٤٠]. ومن المعروف أن هذا الفيلسوف كان مهتما بالبحث عن منابع النيل ، ويقال إنه أوصى تلميذه الأسكندر الاكبر بأن يعمل على كشف هذه المنابع . وإن كان أحد المتخصصين فى الجغرافيا القديمة وهو طومسون Thomson يرفض هذه الرواية [٤١].

وإذا ما حاولنا التعرف على رأى هيرودوت فيما يخص منابع النيل فاننا نلاحظ أنه رفض ما جاء عند هيكاتيه من أن مصدر مياه النيل هو الأوقيانوس فيقول معلقا [٤٢] " وأنا شخصيا لا أعرف أن الأوقيانوس موجود فعلا ، وأعتقد أن هوميروس أو أحد الشعراء الذين سبقوه ابتكر هذا الاسم وأدخله فى الشعر " . كما وصف هيرودوت كلام الكاهن المصرى الذى ذكر له أن النيل ينبع من فلتين تقعان جنوبى الفنتين بأنه نوع من الهزل . وهو الحديث الذى ذكرناه من قبل عند إشارتنا إلى فكرة المصريين عن منابع النيل . ومما يستلفت النظر أن هيرودوت يعترف بالقصور فى معلوماته حين يقول [٤٣] " ذهبت حتى مدينة إليفانتينا وإعتمدت على مشاهداتى الشخصيه . فأما فيما بعد هذه المدينة فروايتى تعتمد على السماع " . ويرفض هيرودوت الفكرة التى تقول بأن النيل يستمد مياهه من الثلوج الذائبة فى الجنوب قائلا [٤٤] " لا طائل تحت ما يدعى أن النيل يستمد مياهه من الثلوج الذائبة .



العالم عند هيرودوت النيل يجرى من الغرب إلى الشمال

وأنه ينسابَ من ليبيا مارا وسط إثيوبية ويصب فى مصر . فكيف إذن يأخذ ماءه من الثلوج بينما يجرى فى أشد الأقاليم حرارة إلى أخرى أكثر منها برودة ؟ ولكن الأدله كثيرة لمن يستطيع أن يعمل الفكر فى هذه الأمور - على أنه ليس من المعقول أن يستمد النهر ماءه من الثلوج. وأول الأدلة وأقواها (على ذلك) هو أن الرياح التى تهب من هذه الأقاليم تأتى حارة " .

كما يحدثنا هيرودوت (٤٥)عن محاولة جرت لاستكشاف منابع النيل. " ولكن هذا ما سمعت من القورينائيين (٤٦) الذين قالوا بأنهم ذهبوا إلى مهبط وحى آمون وتحدثوا إلى إتيارخوس ملك الأمونيين (٤٧). وبعد الكلام فى مسائل شتى شمل الحديث عن النيل . وكيف أن أحدا لايعرف منابعه فروى إتيارخوس إنه ذات مرة وفد إليه بعض رجال (النسامونيون(٤٨)) ولما جاء إليه النسامونيون وسألهم عما إذا كان بمقدورهم أن يحدثوه بجديد عن صحارى ليبيا ، قالوا إنه كان عندهم شباب أرعن من أبناء السادة . فكروا حين بلغوا سن الرجولة ، فيما فكروا من مغامرات أن يختاروا من بينهم بالإقتراع خمسة لمعاينة صحارى ليبيا ولكى يروا إن كان فى إستطاعتهم أن يعرفوا مالم يعرف الذين بلغوا تلك البقاع من قبل (لأن سواحل ليبيا التى تطل على البحر الشمالى ، إبتداء من مصر حتى رأس سولوس - وهذه هى نهاية حدود ليبيا - تسكنها فى جميع أجزائها شعوب كثيرة من الليبيين ماعدا الأماكن التى يملكها اليونانيون والفينيقيون . وفيما عدا الأجزاء التى تقع على البحر والجهات الساحلية التى يسكنها البشر ، فان ليبية مرتع للوحوش . ولكن فيما يلى المنطقة التى تأوى إليها الحيوانات الضارية.

لاتوجد هناك غير صحراء رملية جرداء شديدة الجفاف) . وتوجه إذن هؤلاء الشباب الذين أرسلهم رفاقهم - بعد أن زودوهم بالماء والمؤن الكافيه وتوجهوا أولا إلى الجهات المأهولة - ولما إخترقوها، وصلوا إلى المنطقة التى تسكنها الحيوانات المفترسة - وعندما بلغوا الصحراء - متخذين طريقهم نحو الغرب وبعد ما قطعوا مسافة طويله من الأرض الرملية خلال عدة أيام ، رأوا فى النهاية أشجارا نامية فى سهل فاقتربوا منها وأخذوا يقطفون ما عليها من ثمر(٤٩). فما لمسوها إلا وداهمهم رجال لايبلغون فى الطول قامة الوسط من الرجال(٥٠) وقبضوا عليهم وساقوهم أسرى . ولم يفهم النسامونيون شيئا من لغتهم ولا فهم الآسرون لغة النسامونيين . وإنما قادوهم عبر مستنقعات واسعة جدا . فلما اخترقوها وصلوا إلى مدينة (٥١) كل من بها سود البشرة فى حجم آسريهم . وبجوار هذه المدينة ينساب نهر عظيم (٥٢) ترى فيه التماسيح ويجرى من الغرب متجها نحو الشمس المشرقة " .

ثم يستطرد هيرودوت فى الفقرة التالية قائلا (٥٣)" ولأكتفى بهذا القدر من رواية إتيارخوس الآمونى إلا أنه روى أن النسامونيين - وفقا لما قاله القورينائيين - قد عادوا إلى بلادهم . وأن القوم الذين كانوا قد وصلوا إليهم كانوا جميعا من السحرة . أما النهر الذى يجرى بالقرب من المدينة قد حسبه إتيارخوس (نهر) النيل والمنطق يؤيد ذلك إذ أن النيل ينبع من ليبيا ويقطعها من نصفها . وهو فيما يخيل بالاستدلال من المعلوم إلى المجهول يبدأ على بعد يساوى بعد الاستروس (الدانوب) لأن الاستروس يبدأ عند الكلتيين ومدينة بوريني وينساب شاطرا أوروبا فى الوسط " ويواصل هيرودوت حديثه قائلا (٥٤)" ولما كان الاستروس

ينساب فى مناطق مأهولة فقد عرفه كثير من الناس . على حين لا يستطيع أحد أن يقول شيئا عن منابع النيل لأن ليبيا التى ينساب فيها صحراء غير مسكونة " .

وعندما نحاول تحليل وجهة نظر هيرودوت فى مشكلة منابع النيل فاننا نجد أنفسنا أمام كاتب أمين لم يقع فى تلك الأخطاء التى وقع فيها عندما تحدث عن عادات المصريين وبالغ فى إظهار غرابتها . فقد إعترف بأنه لم يذهب جنوبا بعد إلفنيين . وأن كل ما ذكره عن المناطق التى تقع جنوب هذه المنطقة إنما جاء بناء على ما سمعه . وعلى الرغم من أن هيرودوت لم يكن مصدقا ما حدثه به الكاهن المصرى عن منابع النيل وقال أن الرجل يهزل . فان البعض مال إلى ظلم هيرودوت ومن بينهم الجغرافى إسترابون الذى قال أن هيرودوت يذكر أشياء لامعنى لها[٥٦].

والواقع أن قصة وجود التلتين لم تكن من إبتداع هيرودوت أو الكاهن الذى حدثه عنها .فقد جاء فى نص مصرى قديم [٥٦] " إنه الذى يعطيك المياه التى تأتى من الفنتين . النيل الذى يأتى من خليجين . النيل الذى يأتى من صخرتين ". كما ظلت هذه الفكره سائده أيضاً خلال عصر البطالمه هذا ما يؤكده نص[٥٧] يرجع إلى عصر بطلميوس الثالث (٢٤٦ - ٢٢١ ق . م) حيث تحدث عن منابع النيل التى تقع جنوبى الفنتين . كما أن المؤرخ تاكيتوس[٥٨] تحدث عن هذه المنابع جنوب الفنتين باعتبارها من العجائب التى شاهدها جرمانيكوس ابن شقيق الامبراطور تيبيريوس عند زيارته لمصر فى عام ١٩ م . مما يدل على أن هذه الفكرة لم تكن أمرا مستغربا فى العالم لقديم . كما إننا نلاحظ

أن هيرودوت يدعو إلى إعمال الفكر ويرفض فكرة أن تكون الثلوج الذائبة فى الجنوب هى مصدر مياه النيل . ثم إنه يتحدث عن المنطق عندما يؤيد وجهة نظر ايتارخوس عن منابع النيل ويتبع أسلوبا منهجيا عندما يقول إنه يمكن الاستدلال من المعلوم عن المجهول . وذلك فى مجال المقارنة بين نهر الدانوب والنيل .

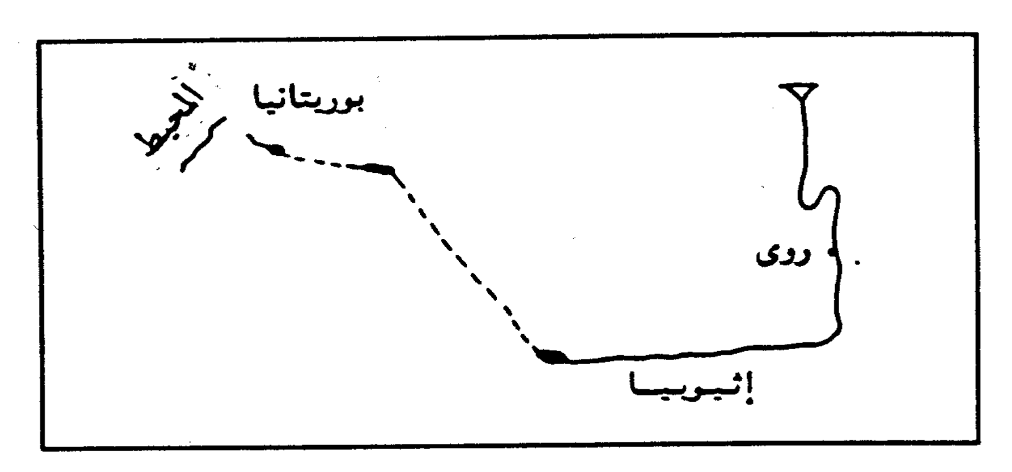
أما ديودور الصقلى الذى زار مصر فى عام ٥٩ ق . م فقد أدلى بدلوه أيضا فى مشكلة منابع النيل . فذكر أن النيل ينبع من الجنوب ويتجه إلى الشمال وتوجد منابعه فى بلاد لم يرها أحد لأنها تقع فى الصحراء فى أطراف إثيوبيا ؛ تلك البلاد التى لايمكن الاقتراب منها بسبب الحرارة الشديدة[٥٩] . ويقول فى موضع آخر[٦٠] إن أحد لايستطيع السفر إلى منابع النيل لأن النيل ينبع من العالم الثانى المقابل لعالمنا . وتفصله عنا بلاد غير مأهولة .

ولا نستطيع أن نترك ما جاء عن منابع النيل عند الجغرافيين دون أن نتعرض للرأى الذى ذكره بلينى[٦١] . فقد تبنى هذا الكاتب رأى يوبا الثانى ملك موريتانيا الذى كان مهتما بالدراسات الجغرافية . وكان يعتقد أن منابع النيل توجد فى موريتانيا بالقرب من شاطىء المحيط الأطلنطى عند سفوح جبال الأطلس حيث توجد بحيرة تغذيها الثلوج التى تذوب عند قمم هذه الجبال . ويرى يوبا أن مياه تلك البحيرة تختفى تحت سطح الأرض وتسير فى مجرى غير مرئى لبضعة أيام ثم تعود إلى الظهور مرة أخرى فى شكل بحيرة وتعاود المياه بعد ذلك اختفائها تحت الأرض وتسير لمدة عشرين يوما . تظهر بعدها فى شكل نهر هو نهر النيجر الذى يقع على الحدود بين إثيوبيا وأفريقيا (على حد تعبيره) .

ثم تختفى المياه فى باطن الأرض وتعود إلى الظهور فى إثيوبيا فى شكل نهر استابوس Astapos (النيل الأزرق حاليا) . وقد أيد المؤرخ كاسيوس ديون نظرية يوبا الثانى وتحدث عن وجود تماسيح فى المياه التى توجد عند سفوح جبال الأطلس : مما يدل على أن منابع النيل تقع فى هذه المنطقة[٦٢].

أما إسترابون عمدة الجغرافيين القدماء ، فعلى الرغم من المعلومات الجغرافية الغزيرة التى أوردها فى مؤلفه الكبير فانه كان شحيحا فيما يتعلق بالحديث عن منابع النيل . حيث أشار فى عبارة مقتضبة إلى أن منابع النيل غير معروفة[٦٣] . ثم عاد فى موضع آخر[٦٤] إلى القول بأن النيل يستمد مياهه من السماء . وهاجم هيرودوت متهما إياه بأنه ذكر أشياء لامعنى لها لمجرد إضفاء عنصر التشويق على ما يكتبه . ومن ذلك ما ذكره هذا المؤرخ عن وجود قنوات بالقرب من أسوان ليس لها قاع[٦٥] . ثم ردد إسترابون ما روى عن الإسكندر الأكبر الذى كان يعتقد أن النيل وأنهار الهند تستمد مياهها من مصدر واحد . لأنه لاحظ وجود التماسيح أيضا فى أنهار الهند . كما أن تربة هذه البلاد تنبت البقوليات شأنها فى ذلك شأن أرض مصر . لذا فان الإسكندر كان يخطط لإرسال حملة بحرية إلى مصر تبدأ من الهند وذلك من أجل إثبات هذه النظرية . إلا أنه لم يلبث أن أدرك صعوبة القيام بمثل هذه الحملة[٦٦] . كما ذكر إسترابون أيضا نظرية يوبا الثانى عن وجود منابع النيل عند سفوح جبال الأطلس وذكر أن المياه فى تلك المنطقة تحتوى على تماسيح وكائنات مثل تلك التى توجد فى نهر النيل[٦٧] . ومما هو جدير بالملاحظة أن إسترابون ذكر رأى يوبا الثانى دون أن يعلق عليه

كما فعل مع رأى هيرودوت الذى هاجمه بشده . وقد أشار إسترابون إلى وجود بحيرة قال إنها تقع أعلى مروى وأطلق عليها إسم بسيبو Psebo واصفا إياها بأنها بحيرة متسعة توجد بها جزيرة مأهولة .



مجرى النيل عند يوبا الثانى النيل ينبع من موريتانيا

محاولات الكشف عن المنابع :

١- الاسكندر الاكبر والبطالمة .

لمدة قرن أو أكثر قليلا : أى فى خلال الفترة التى تقع ما بين زيارة هيرودوت لمصر (عام ٤٥٠ ق . م) وبين غزو الإسكندر (عام٣٣٢ق.م) لم تجر أى محاولات للكشف عن منابع النيل . وخلال فترة بقائه القصيرة فى مصر قام الإسكندر بارسال حملة على رأسها شخص يدعى بوليمون Polemon ومعه ٣٠ سفينة إلى الجنوب من أجل استكشاف منابع النيل[٦٨]. وقد ظلت الرغبة فى معرفة سر منابع النيل تراود الاسكندر . وكما أشرنا من قبل عند عرضنا لرأى إسترابون أنه عندما رأى التماسيح

فى نهر السند بالإضافة إلى نفس أنواع البقوليات التى تنمو فى مصر اعتقد أنه وصل إلى منابع نهر النيل [٦٩]. وهذا ما حدثنا به أريان[٧٠] Arrian قائلا " كان الإسكندر ينوى الإبحار إلى نهر هيداسبيس Hydaspes حتى البحر الاعظم (بحر العرب حاليا). وقبل ذلك كان قد رأى التماسيح فى نهر السند ، وهو النهر الوحيد غير النيل الذى يوجد به التماسيح[٧١]. كما ينمو على ضفاف نهر أسيسينيس Acesines البقوليات مثل تلك التى تنتجها أرض مصر وقد سمع أن هذا النهر يصب فى نهر السند ؛ لذا فانه إعتقد أنه عثر على منابع النيل . وكان هناك أعتقاد شائع بين الهنود بأن نهر السند يأتى من منطقة صحراوية وأنه فى تلك المنطقة لا يحمل إسم السند . حيث يعود بعد ذلك إلى الظهور فى منطقة مأهولة حاملا اسم النيل وهو الاسم الذى يطلقه عليه أهل إثيوبيا وكذلك المصريون ، وبعد ذلك يواصل سيره ليصب فى البحر. ولكن عندما طلب المزيد من البراهين قالوا له أن نهر هيداسبيس ونهر أسيسينيس مرتبطان وأن هذا الأخير يصب فى نهر السند ، وعندما يصبحان نهرا واحدا يطلق عليه السند ويصب فى البحر العظيم . وأن نهر السند له مصبان وليس له علاقة بأرض مصر . وكان الاسكندر قد أعطى أوامره إلى السفن لكى تستعد للإبحار فى تلك الأنهار حتى تصل إلى البحر العظيم ".

ومن الجدير بالذكر أن فكرة الربط بين شرق أفريقيا والهند كانت سائدة لدى آلكثيرين . فقد جاء عند إيسخيلوس[٧٢] على سبيل المثال فى مسرحية الضارعات ما يلى " لقد سمعت أن الرعاة الهنود يمتطون جمالا مسرجة مثل الخيول ويسكنون فى تلك البلاد التى تجاور

إثيوبيا". كما تحدث هيرودوت[٧٣] عن أوجه الشبه الكثيرة بين سكان إثيوبيا وسكان الهند .

ويحدثنا بليني عن شخص يدعى باليون Palion توغل في جنوب مصر في منطقة أبعد من مروى ، وذلك في عصر البطالمة . كما ذكر ديودور أن بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٣ - ٢٤٦ ق . م) قام بارسال حملة إلى إثيوبيا ، وأن أحد الاغريق ويدعى سيمونيديس Simonides قضى خمسة أعوام في هذه البلاد ووضع كتابا عن رحلته[٧٥]. كما جاء عن بليني[٧٦] أيضا أن ضابطا يدعى تيموثنيس Timosthenes كان في خدمة الأسطول النهري لبطليموس فيلادلفوس أبحر من أسوان إلى مروى في ستين يوما .

ويمكن القول بأنه بفضل جهود البطالمة الأوائل فانه مع إنتهاء القرن الثالث ق . م كان الاغريق على دراية بنهر النيل حتى مروى وربما حتى النيل الأبيض وبحر الغزال [٧٧]. فقد وصف إراتوسثينز النيل عند مروى وأشار إلى وجود نهرين حول هذه المنطقة هما نهرا عطبره والنيل الأزرق . وذكر أن هذين النهرين يستمدان مياههما من بحيرات عظيمة تقع في الجنوب . وهو ما عرفناه عن طريق إسترابون[٧٨] الذى نقل إلينا أعمال هذا العالم . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن معظم الرحالة خلال عصر البطالمه كانوا يفضلون السفر إلى الجنوب عبر شواطىء البحر الأحمر وليس من خلال مجرى النيل . ويقول ديودور[٧٩] إنه حتى عصر فيلادلفوس فان أحدا من الإغريق لم يجرؤ على الإبحار في نهر النيل إلى إثيوبيا لأن تلك البلاد تمثل خطورة على الأجانب، وأنه حتى أيامه (القرن الأول ق.م) ظل الخطر ماثلا لمن يفكر في القيام بمثل هذه الرحلة .

٢- الرومان .

فى عام ٣٠ ق . م أصبحت مصر ولاية رومانية وعقد الأثيوبيون (سكان شمال السودان حاليا) معاهدة مع الرومان أصبح لهم بمقتضاها حق السيادة على أراضيهم على أن يكونوا خاضعين للسيادة الرومانية إلا أن جايوس بترونيوس Petronios ثالث الولاة الرومان على مصر اضطر إلى القيام بحملة ضد الأثيوبيين الذين تمردوا على السيادة الرومانية بقيادة ملكتهم التى تدعى كنداكى Kandake . وتمكن هذا الوالى من قهر المتمردين . وواصل زحفه حتى إبريم ونباتا (جبل البرقل) مما مكن الرومان من بسط نفوذهم على المنطقه الشمالية من بلاد الاثيوبيين (النوبة)؛ وبخاصة المنطقة التى تقع ما بين المحرقه وأسوان[٨٠] . وحتى ذلك الحين بقيت منابع النيل أمرا غامضا وهو ما عكسته كلمات الشاعر هوراس التى أشرنا إليها من قبل .

وقد إستمر الحال كذلك في عهد الامبراطور كلاوديوس Claudius (٤١ - ٥٤ ميلاديه) . وقد أشرنا من قبل إلى أن الكاتب ميلا الذى عاش فى عصر هذا الامبراطور قد عبر عن حيرته إزاء منابع النيل وفى عهد الامبراطور نيرون Nero (٥٤ - ٦٨ ميلاديه) . يحدثنا الفيلسوف سينيكا Seneca عن محاولة لكشف منابع النيل قائلا [٨١] "لقد سمعت رواية عن إثنين من القادة الذين أرسلهم نيرون العاشق لكل ما هو جميل والعاشق للحقيقة . لقد أرسلهم للكشف عن منابع النيل وبعد رحلة طويلة تحت رعاية ملك أثيوبيا ومن خلال توصياته للأمراء من جيرانه تمكنت البعثة من الوصول إلى منطقة - حسب إعلان البعثة- تشمل مستنقعات متسعة لا يعرف سكان المنطقه أنفسهم مدى إتساعها ، كما

أنه لا يوجد أمل فى معرفة المزيد . فهى منطقه تغطيها النباتات والمياه ، حتى أن عبورها سواء أكان ذلك بالاقدام أو القوارب يبدو أمرا مستحيلا. وفى أحيان نادرة يمكن عبورها بقارب صغير يتسع لشخص واحد فقط . وقد ذكر أعضاء البعثة أنهم رأوا صخرتين تخرج منهما كمية كبيرة من المياه . ولانعلم إذا كانت هذه هى منابع النيل أم أنها أحد الروافد ، كما أننا لانستطيع أن نقرر هل هى تنبع من هناك أم أنها تأتى من مجارى تحت الأرض. وربما تكون هناك بحيرة عظيمة تحت الأرض هى التى تغذى تلك المجارى ولابد أن المياه المتناثرة فى أماكن مختلفة تتجمع ثم تأخذ طريقها إلى الأعماق ثم لا تلبث أن تخرج بهذا الإندفاع " .

ويتضح من هذا النص بجلاء أن سينيكا يرى أن الهدف الوحيد من وراء إرسال هذه الحملة هو الكشف عن منابع النيل . وليس من المستبعد أن يكون سينيكا الذى كان معلما للامبراطور نيرون هو الذى أوصى بارسال هذه الجملة ، وذلك لما عرف عنه من ولع بالجغرافيا (٨٢) . وربما حاول أن يسير على درب الفيلسوف أرسطو الذى أوصى تلميذه الإسكندر الأكبر بأن يعمل على كشف منابع النيل . إلا أننا نلاحظ أن بلينى الأكبر الذى كان شديد الكراهية للامبراطور نيرون كان يرى أن هدف الحمله عسكرى وأن الامبراطور كان يرغب فى غزو إثيوبيا(٨٣).

وعلى أية حال فان ما يعنينا من أمر هذه البعثة بعيدا عن الخلاف بين سينيكا وبلينى هو أن بعثة الامبراطور نيرون قد وصلت إلى منطقة المستنقعات عند النيل الأبيض ؛ وهى أول نقطة إلتقاء مع نهر السوباط

وتقع على بعد ٤٠٠ ميلا جنوب الخرطوم الحاليه . مما يعنى أن البعثة لم تتوصل لجديد ، لأن هذه المنطقة كانت معروفة من قبل وقد أشار إليها أرسطو[٨٤] . كما أننا نرى أن الصخرتين اللتين أشار إليهما سينيكا وقال أن المياه تتدفق من بينهما ، ربما كان من قبيل التأثر بفكرة هيرودوت . وتعد حملة نيرون هى آخر المحاولات التى جرت فى العالم القديم من أجل إستكشاف منابع النيل . فقد استقر الرأى بعد ذلك على أن مثل هذه المحاولات تبدو عديمة الجدوى بسبب الأعشاب التى تعترض مجرى النهر. وأصبح البديل المتاح هو محاولة كشف المنابع عن طريق السير برا بمحاذاة الساحل الشرقى لأفريقيا [٨٥].

التوصل إلى منابع النيل .

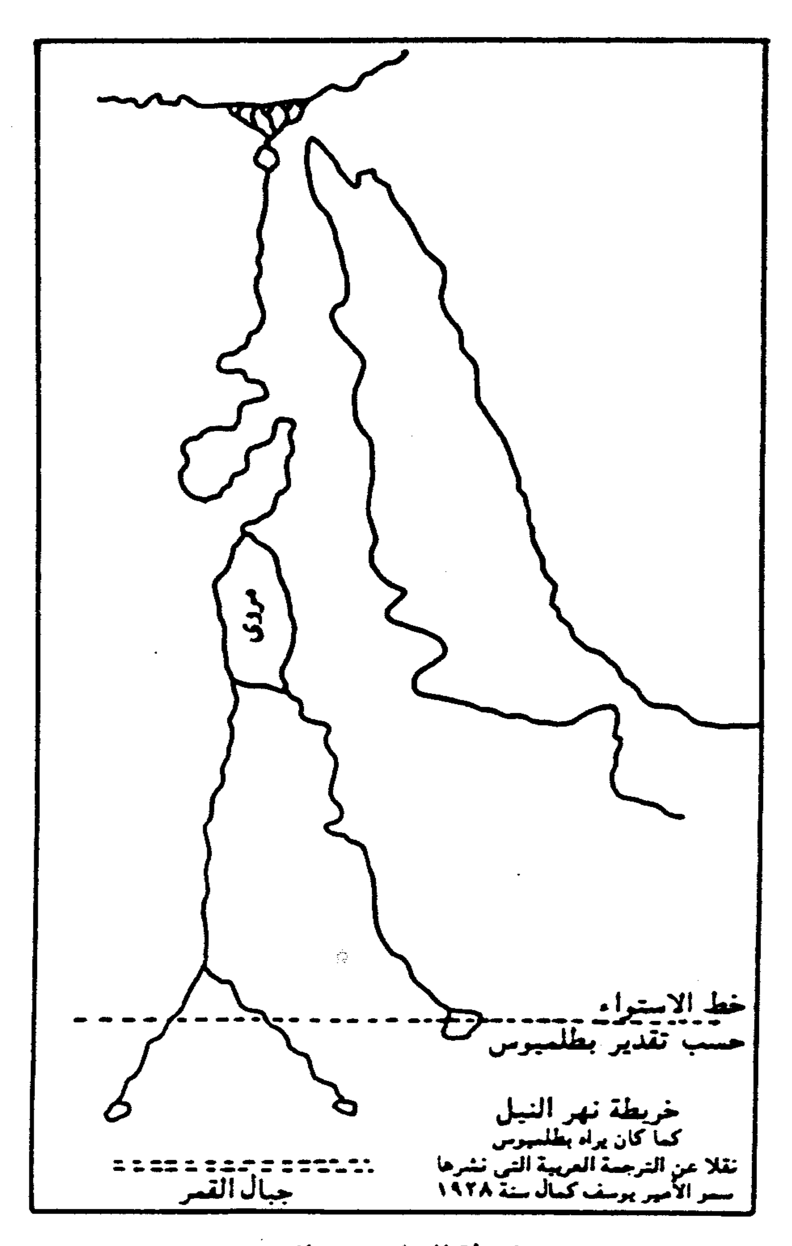
بعد هذه الجولة حول ما جاء عن منابع النيل فى الأساطير وأعمال الأدباء . وكذلك ما ورد لدى الفلاسفة والجغرافيين والمؤرخين .فاننا نختم حديثنا عن مسألة منابع النيل بما جاء عند الجغرافى بطلميوس[٨٦] الذى حدثنا عن رحلة قام بها أحد التجار فى الفترة التى تلى منتصف القرن الأول الميلادى . ويبدو أن أمر هذه الرحلة لم يكن معروفا للكاتب بلينى الذى توفى فى عام ٧٩ م لأنه لم يذكر عنها شيئا . يقول بطلميوس "فيما يتعلق بالرحلة من أروماتا Aromata إلى رابتا Rhapta فان مارينوس يذكر أن شخصا يدعى ديوجينيس Diogenes . وهو أحد الذين اعتادوا السفر إلى بلاد الهند ساقته الرحلة حتى وصل إلى شاطىء أروماتا (منطقة التوابل أسفل جاردفوى Guardafui بواسطة الرياح الشمالية . وبعد الابحار الى تروجلودتيكا Troglodytica (الشاطىء

الشرقى لأثيوبيا الحاليه) وسار الى اليمن لمدة خمسة وعشرين يوما وصل إلى البحيرة التى ينبع منها النيل ويوجد إلى الجنوب منها نتوء رابتوم ورأس دليجادو Delgado " .

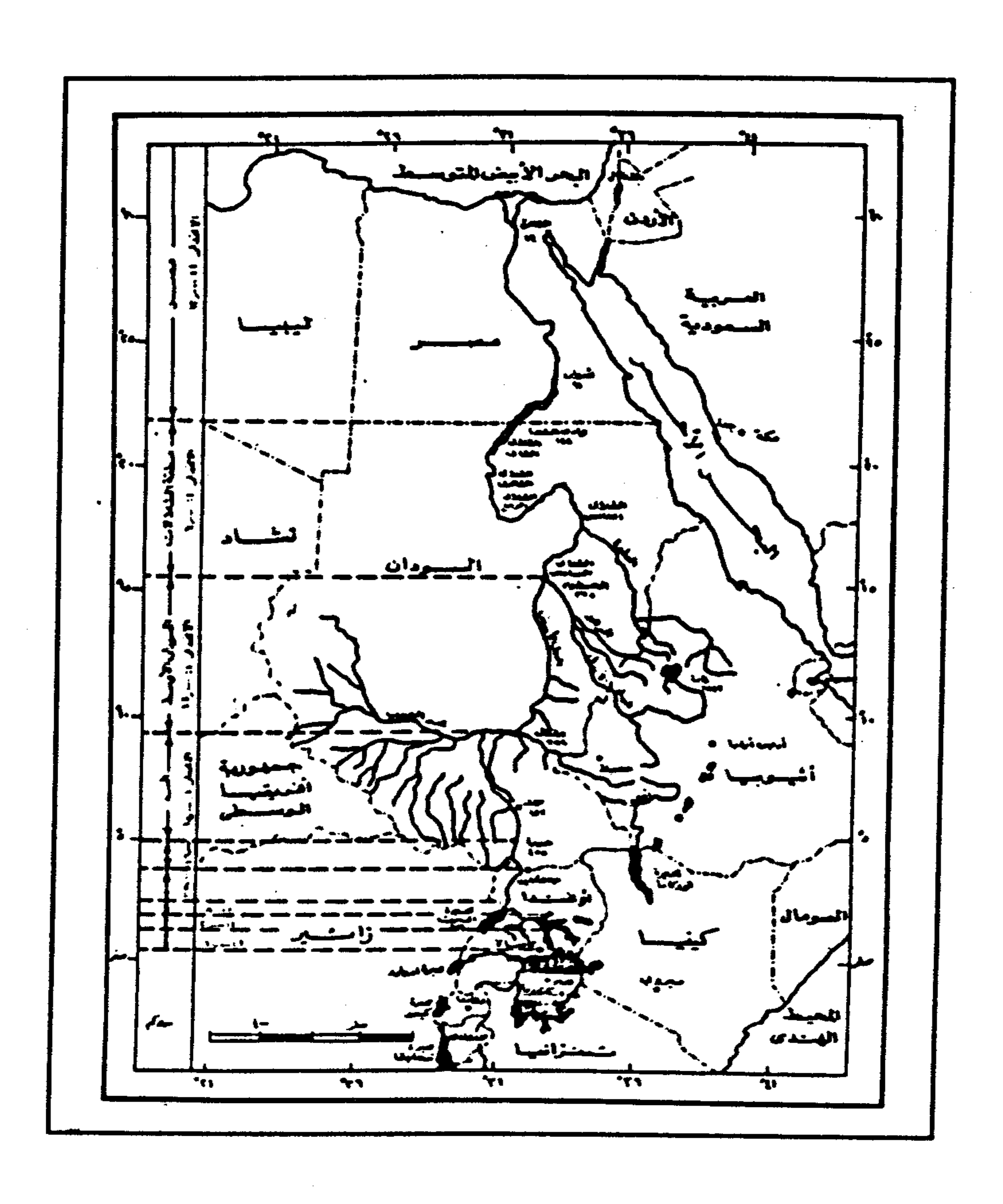
ثم إستطرد بطلميوس متحدثا عن منابع النيل فيشير إلى أنه توجد بحيرتان عظيمتان يخرج من كل منهما نهر ، ولا يلبث هذان النهران أن يتحدا عند خط عرض ٢ شمالا. ويقترب هذا التقدير من الواقع إلى حد كبير لأن مخرج النيل عند بحيرة البرت يقع على خط عرض ٢,١٥ . إلا أن بطلميوس بالغ فى تقدير بعد البحيرتين جنوبا فجعلهما تمتدان إلى خط عرض ٧ جنوبا بدلا من ٣,٣٠ . وقد ميز بطلميوس بشكل واضح بين البحيرات الاستوائية التى ينبع منها النيل الأبيض ، وبحيرة تانا التى أطلق عليها إسم " كلوى" Coloe وقال أن النيل الأزرق ينبع منها وأطلق عليه إسم أستابوس Astapos .

كما أشار بطلميوس إلى وجود جبال شامخة جنوب منابع النيل وذكر أن قمم هذه الجبال تغطيها الثلوج ، وأطلق عليها إسم جبال القمر . وقد جرى خلاف بين المستكشفين والجغرافيين فى العصر الحالى حول المقصود بجبال القمر التى ذكرها الأقدمون . فقال بعضهم إنها جبال مفيمبيرو Mfumbiro التى تقع جنوب بحيرة إدوارد. بينما يرى البعض أنها جبال رويترورى التى تقع شرق نهر السلميكى . إلا أن الغالبية العظمى من الباحثين يؤكدون أن جبال القمر ما هى إلا تلك الجبال البركانية الشاهقة أمثال جبال كينيا وكلمينجارو والغون التى تقع جنوب وشرق بحيرة فيكتوريا . ولعل هذا الرأى هو الأرجح لأن القدماء استمدوا علمهم بمنابع النيل مما سمعوه من الناس فى شرق أفريقيا . والمسافر من شرق

أفريقيا إلى البحيرات يصادف هذه الجبال قبل أن يصادف سواها . وربما لم يكن من محض الصدفة أن البلاد التى تقع جنوب بحيرة فيكتوريا اليوم يطلق عليها آنيا مويزى Unymwezi أى بلاد القمر (٨٨). ويمكن القول بأنه لمدة ما يقرب من أربعة عشر قرنا من الزمان بعد بطلميوس لم ترد معلومات جديدة عن منابع النيل . أما خرائط العصور الوسطى فقد إكتفت بترديد معلومات بطلميوس عن البحيرات الاستوائية وجبال القمر . ومن الملاحظ أن بعض المعلومات التى أضافها الجغرافيون العرب إلى ما ذكره بطلميوس لم تكن صائبة . مثل قولهم أن هناك بحيرة كبرى عند خط الاستواء يخرج منها نيل مصر متجها إلى الشمال ونيل مقديشيو متجها إلى الشرق ونيل غانه متجها إلى الغرب وأن اسم هذه البحيرة هوكورى .



خريطة النيل عند بطلميوس



خريطة واقعيه لحوض النيل

وفى عصر النهضة عندما ترجمت أعمال بطلميوس إلى اللاتينية أصبحت المعلومات الواردة فيها متاحة للجميع . وعلى الرغم من الجدل الذى ثار حول جبال القمر فانها ظلت تذكر على الخرائط حتى القرن التاسع عشر . وهكذا فان رحلة ديوجينيس كانت آخر الجهود الكشفية للاغريق فى قلب أفريقيا .

الهوامش

١- أحمد فخرى . مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٨٦ ص ١٥٢ - ١٥٦ .

٢- أحمد فخرى . المرجع السابق ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

٣- Strabo . 17 . 1 . 5

٤- عبد العزيز صالح . المرجع السابق ص ٢٢١

٥- مما هو جدير بالذكر أن الرحلات التى أرسلتها مصر الى بلاد بونت فى عصر الدولة الحديثه لم تتوغل فى قلب أفريقيا بل اكتفت بالاتصال بشواطىء البحر الأحمر .

٦- Herodot II 30 .

٧- Hyde W .W op cit . P 265 .

٨- Moret , A ; op . cit . P 30 .

٩- Moret , A ; op . cit . 145

١٠- Moret , A ; op . cit . 84 .

١١- برستيد . فجر الضمير . ترجمة سليم حسن . ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

١٢- Herodot II 28 .

١٣- شبه الاغريق الربة أثينا بالربة نية المصرية . والمقصود هنا كاهن نية . أما سايس فهى صالحجر . إنظر : أحمد بدوى المرجع السابق ص ١٠١ - ١٠٢

١٤- Hyde, W .W ; op . cit P . 277 .

١٥- إنظر احمد بدوى . المرجع السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤

١٦- إنظر أحمد بدوى . المرجع السابق ص ١٠٢ ، ١٠٣

١٧- Lloyyed , A . B . op cit . PP . III - 112 , 156 .

١٨- Diodorus I 37 4 . 7 .

١٩- Warmington , E . H .op cit .introd . . P . 34 .

٢٠- Lindsay , J . Men and Gods on the Roman Nile . London 1968 P. 49 .

٢١- Hyde W . W op cit . PP 265 - 66 .

٢٢- Diodorus I 37 . 7 - 11 .

٢٣- Strabo XVII 1 . 5 .

٢٤- Odyssey I V 477 , XV I . 174 .

٢٥- Euripides , Frag . 228 . Hellen . 1 - 3 .

٢٦- ولد أنكساجوراس فى منطقة أيونيا بآسيا الصغى وعاش ما بين عام ٥٠٠ - ٤٣٨ ق . م . وعندما بلغ الأربعين نزح إلى أثينا . وكانت تلك المدينة فى قمة إزدهارها . حيث كان الأدباء والفنانون يلقون تشجيعا من حاكمها الديمقراطى بركليز . وقد أقام أنكساجوراس بالمدينة ثلاثين عاما كان خلالها قطب الحياة الثقافية . إلا أن خصوم بركليز السياسيين وجهوا سهامهم إلى هذا الفيلسوف الذى كان صديقا لبركليز . فاتهموه بالالحاد لأنه كان يقول أن القمر هو أرض فيها جبال ووديان وأن الشمس والكواكب أجرام ملتهبة ، وكانت مثل هذه الأفكار تلقى معارضة أهل أثينا لإعتقادهم بأن كل ما يوجد فى السماء هو أمر يتعلق بالآلهة . لذا فقد إضطر إلى مغادرة أثينا إلى اسيا الصغرى وبقى فيها إلى أن توفى أنظر : يوسف كرم : المرجع السابق ص ٤١ .

٢٧- Aeschylus . Sup . 559 ff .

٢٨- Aeschylus Prom . 809 . ff .

٢٩- Callimachos . IV 205 .

أنظر أيضا عبد الله المسلمى ، المرجع السابق ص ١٨٠ .

٣٠- كوملان . ب . الاساطير الاغريقية والرومانية . مترجم - القاهرة ١٩٩٢ . ص ٩٣ - ١١٠ .

٣١- Lindsay , J , op cit P . 100 .

٣٢- من شعراء العصر الأوغسطى ولد عام ٦٥ ق . م وعاش حتى عام ٨ ق.م وكان مقربا من مايكناس المشرف على الآداب والفنون فى بلاط أوغسطى إنظر :

أحمد عتمان . الأدب اللاتينى ودوره الحضارى . عالم المعرفة الكويت ١٩٨٩ ص ٢٤١ - ٢٥٢ .

٣٣- Odes 4 . 14 .

٣٤- (٣٩ - ٦٥ ميلادية) وقد ولد فى أسبانيا ثم هاجر والده إلى روما حيث تلقى تعليمه . وكان مقربا من الامبراطور نيرون ولكنه أتهم بالاشتراك فى مؤامرة وأعدم ومن أشهر أعماله كتاباته عن الحرب الأهلية إنظر :
ox . CI . Dict .

٣٥- phars . X 268 ff .

٣٦- من إغريق مصر وقد عاش فى مدينة بانوبوليس Panopolis (اخميم) فى القرن الخامس أو السادس الميلادى . وعرف بكتابة أنواع من الملاحم التى كانت تلقى رواجا كبيرا ومن أشهر ما كتبه عن الاله ديونيسوس .

٣٧- Lindsay , J . op cit . PP . 90 - 100

٣٨- Ball, J . op cit . P . 9 .

٣٩- Warmington , E . H . op cit . P 14 .

٤٠- Warmington , E . H op cit . P 44 .

ربما كان المقصود بها جبال روينزورى Ruwenzori الشاهقة التى عرفها العرب باسم جبال القمر ، وتعتبر من أعلى جبال أفريقيا غير البركانية والتى تغطى الثلوج قمتها إنظر :رشدى سعيد نهر النيل . القاهرة ١٩٩٣ ص٣٣

٤١- Thomson , J . O . op cit . P . 89 .

٤٢- Herodot II 2 . 3 .

٤٣- Herodot II 29 .

٤٤- Herodot II 22 .

٤٥- Herodot II 32 .

٤٦- سكان قورينى وهى أول مستعمرة أقامها الاغريق الدوريون الذين قدموا جزيرة ثيرا فى إقليم برقه إنظر : مصطفى كمال عبد العليم . دراسات فى تاريخ ليبيا القديم بنغازى ١٩٦٦ ص١٢١ .

٤٧- هم سكان واحة سيوه حيث كان يوجد معبد الاله آمون الذى كان من أشهر معابد الوحى فى العالم القديم . وقد حرص الاسكندر الاكبر على زيارته عندما وفد إلى مصر .

٤٨- موطنهم شرق خليج سرت الكبير جنوب غربى برقه إنظر : مصطفى كمال عبد العليم . المرجع السابق ص ٧٥ .

٤٩- أغلب الظن أن تكون القافله قد بلغت فعلا قلب أفريقيا حيث يكثر ذلك النوع من الشجر المعروف باسم شجر الزبد وهو شجر ذو ثمر طرى . إنظر بدوى . المرجع السابق ص١١٢ .

٥٠- فى الغالب أن تكون القافله قد بلغت بلاد الكنغو . وهى المنطقة التى بلغها ستانلى ١٨٨٧ وشاهد فى إحدى غاباتها أولئك الاقزام . إنظر بدوى . المرجع السابق ص ١١٣ .

٥١- قد يكون المقصود بهذه المدينة تومبكتو التى عرفت فى العصر الحديث

وتعد من أكبر مراكز التجاره فى الصحراء الكبرى إنظر : بدوى المرجع السابق ص ١١٣ .

٥٢- ليس من المستبعد أن يكون هذا النهر هو نهر النيجر إنظر بدوى المرجع السابق ص ١١٣

٥٣- Herodot II 33 .

٥٤- Herodot II 34 .

٥٥- Strabo . 17 . 1 . 52 .

٥٦- Hyde , W . W , op cit . p 277 n . 101 .

٥٧- O . G . I . S . 1 - 2 .

٥٨- Tacitus . Annales . 2 . 61 .

٥٩- Diodorus I 32 . 1 .

٦٠- Diodorus I 40 . 1 .

٦١- Pliny . 5 . 51 -2 .

٦٢- Cassius Dio . 77 . 13 - 14 .

مؤرخ رومانى الجنسية إغريقى اللسان عاش ما بين عامى ١٥٥ - ٢٣٠ م شغل مناصب هامة فى روما وأعد كتابا ضخما عن التاريخ الرومانى إنظر عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٩ .

٦٣- Strabo II . 2 . 2 .

٦٤- Strabo I . 30 .

٦٥- Strabo . 17 . 1 . 52 .

٦٦- Strabo 15 . 1 . 25 .

٦٧- Strabo . 17 . 3 . 4 .

٦٨- Hyde , W . W . op . cit . pp . 279 - 80 .

٦٩- Warmington , E . H op . cit . P. 150 .

٧٠- Arrian . Anabasis V I 1 . 1 ff .

٧١- أشرنا من قبل إلى ما ذكره إسترابون وبلينى عن وجود تماسيح فى المياه التى توجد عند جبال الأطلس .

٧٢- Aeschylus . Sup . 284 - 86 .

٧٣- Herodot III 97 .

٧٤- Pliny . 6 . 183 - 194 .

٧٥- Diodorus I 37 . 3 . 37 .

٧٦- Pliny . 6 . 183 .

٧٧- Hyde . W . W . op . cit . P . 281 .

٧٨- Strabo . 17 . 1 - 3 .

٧٩- Diodorus I 30 . 3 .

٨٠- إنظر : عبد اللطيف أحمد على . مصر والامبراطوريه الرومانيه فى ضوء الاوراق البردية . القاهرة ١٩٦٥ ص ٦٧ - ٦٨ .

٨١- Seneca . Q . N . VI 8 . 3 .

٨٢- Thomson J . O . op . cit .p . 272 .

٨٣- إنظر عبد اللطيف أحمد على . المرجع السابق ص ١٣٢ .

٨٤- Tozer , H . F . op . cit . PP . 291 - 2 .

٨٥- Hyde , W . W . P . 284 .

٨٦- Hyde W . W . op . cit p 285 .

٨٧- Ptolemy .4 . 7 . 23 - 4 , 4 - 8 . Ball J, op . cit . PP . 100 ff .

٨٨- إنظر : محمد عوض محمد . نهر النيل . القاهرة ١٩٦٢ ص١٣ .

الفصل الرابع
فيضان النيل

لم تكن منابع النيل هى اللغز الوحيد الذى حير الإغريق من أمور هذا النهر . فقد اندهش الاغريق أيضاً لظاهرة فيضان النيل ؛ وذلك منذ أيام الفيلسوف طاليس [١]. وقد وصف هيرودوت[٢] مصر فى وقت الفيضان قائلاً " وعندما يفيض النهر على البلاد تظهر المدن وحدها فوق الماء . وتكاد تشبه الجزائر فى بحر إيجه . على حين تصبح سائر أجزاء مصر بحرا فلا يبدو منها غير المدن . وأثناء ذلك لايتنقل المصريون بمراكبهم فى مجرى النهر ، بل فى وسط السهل " . ويرمى هيرودوت هنا إلى القول بأن كمية المياه التى تأتى إلى مصر فى زمن الفيضان من الضخامة بحيث أنها تجعل مصر أشبه بالبحر فلايبدو ظاهرا فى أرضها إلا الأماكن المرتفعة التى تشبه جزر بحر إيجه .

كما يعلق ديودور[٣] على ظاهرة فيضان النيل قائلاً " إن ظاهرة ارتفاع مياه النيل تبدو مدهشة لمن تقع عينه عليها . أما بالنسبة لهؤلاء الذين يسمعون عنها فانها تبدو غير معقولة لأنه بينما تأخذ باقى الأنهار فى الانخفاض خلال الصيف ، وتوالى انخفاضها ، فانه النهر الوحيد الذى يبدأ فى الارتفاع ويأخذ فى الازدياد يوما عن يوم حتى يغطى كافة أرض مصر . ثم يعود إلى الانحسار تدريجيا بنفس الكيفية حتى يصل إلى مستواه العادى . وبما أن البلاد عبارة عن سهل منخفض . بينما القرى والمدن . وكذلك المنازل تقام على تلال صناعية.فان البلاد فى زمن الفيضان تشبه مجموعة جزر الكيكلاديس". وجزر الكيكلاديس Cyclades هى مجموعة جزر تشكل أرخبيلاً يوجد أسفل بلاد اليونان .

ولعل أشهر تلك الجزر جزيرة ديلوس Delos . ويكرر ديودور نفس المعنى الذى ذكره هيرودوت عن ضخامة كمية مياه الفيضان التى تجعل مصر أشبه بالبحر ، مؤكدا الدهشة التى تعترى كا من يشاهد هذه الظاهرة وعدم التصديق الذى يسيطر على كل من يسمع عنها . وقد صور الفنان مصر فى زمن الفيضان فى لوحة من الموزايك عثر عليها بالقرب من روما يظهر فيها الناس وهم يتنقلون فى الوادى عن طريق القوارب [٥].

ويذكر هيرودوت[٦] أن فيضان النيل يستمر مائة يوم . يكون الناس خلالها بدون عمل فيقضون أوقاتهم فى الاستجمام ويقيمون احتفالات لاتتوقف ، يمارسون خلالها جميع أنواع المتعة . وتبدأ تلك الاحتفالات مع بداية ارتفاع مياه النيل ، حيث يتم وضع قدر من المياه الوافدة مع الفيضان فى الوعاء الذهبى للربة إيزيس وينشد الناس فى مديح هذه الربة قائلين " بقدرتك كل قنوات النيل تمتلىء " وكذلك " إنك تستحثين المجارى الذهبية للنيل وتقودينه فى الوقت المناسب إلى أرض مصر . من أجل سعادة بنى البشر " [٧]. ويقوم الكهنة بوضع قطع من العملة عند جزيرة فيله . وهو التقليد الذى حرص على القيام به أيضا الوالى الرومانى فى مصر ، الذى لم يكن يبحر فى النيل فى زمن الفيضان جريا على سنة الأقدمين [٨].

ويقول بلوتارك إن سمك المرجان يظهر مع فيضان النيل لكى يبشر المصريين بالفيضان . ويربط هذا المؤرخ بين فيضان النيل وأوجه القمر[٩]. فيقول أن أعلى فيضان للنيل عند الفنتين يبلغ ٢٨ ذراعا؛ وهذا هو عدد أيام سطوع القمر التى يستغرقها لإنجاز دورته الشهرية أما اقل فيضان له عند مندس وخويس Chois فهى ستة أذرع وهذا يوافق تربيعه الأول

وأن ارتفاع فيضانه المتوسط عند منف يبلغ أربعة عشر ذراعاً عندما يكون فيضانا عاديا وهذا هو عدد الايام التى توافق طلوع البدر . ويذكر بلوتارك أيضا أنه يمكن معرفة الحد الأقصى لفيضان النيل . لأن إناث التماسيح عندما تضع بيضها تعلم أنه المكان الذى يحد فيضان النيل "وإذا كانت الإناث لاتستطيع أن تضع بيضها فى الماء وتخشى مع ذلك أن تبيضه بعيداً عنه فانها تتنبأ بما سيكون عليه مستوى الماء بالضبط . حتى أنها تستغل النهر مرشدا عندما تضع البيض " (١٠).

الفيضان فى عقيدة المصريين .

وقبل أن نحاول التعرف على محاولات الإغريق لتفسير ظاهرة فيضان النيل فاننا نطرح تساؤلاً وهو هل كان المصريون يعرفون سبب فيضان النيل ؟ والواقع أن فيضان النيل شأنه فى ذلك شأن منابع النيل كان أمرا مجهولا لدى المصريين (١١). ودليلنا فى التعرف على هذا الأمر هو بلوتارك(١٢) إذ يقول " ومن بين النجوم يعتقد المصريون أن سيريوس (كلب الجبار) وهو نجم إيزيس لأنه يجلب الماء (أى الفيضان) ويكرمون الأسد (أى برج الأسد) ويزينون أبواب الهياكل بخطم الأسد لأن النيل يفيض عندما تقترب الشمس من برج الأسد . كما أنهم يعدون النيل سيل أوزوريس وكذلك يعدون الأرض جسم إيزيس وليس الأرض كلها بل ما يغمره النيل منها فقط . فيختلط بها ويعلوها ، ومن هذه المعاشرة ينجبان هورا Hora أى الوقت الذى يصوّن كل شىء ويغذيه . وهو الهواء المركب المحيط بالأرض " ثم يستطرد قائلاً " وهم يطلقون إسم نيفثوس على الأرض النائية التى تجاور الجبال . وتشرف على البحر (توفون)

وبذلك كلما فاض النيل وأرتفع وبلغ تلك الأصقاع البعيدة ، دعوا ذلك إختلاط أوزوريس بنفثوس الذى يستدل عليه من نمو النبات " .

وفى فقرة تالية يفسر بلوتارك سبب انحسار مياه النيل بعد الفيضان فيقول [١٣] " وبذلك ترمز مؤامرة توفون وطغيانه إلى قوة الجذب التى تتغلب على الرطوبة وتشتت شملها . . . . تلك الرطوبة التى أوجدت النيل وأكثرت من مائه . وترمز مساعدته الملكه الاثيوبيه (أسو) إلى الرياح الجنوبية التى تهب من إثيوبيا ؛ إذ كلما تغلبت هذه الرياح على الرياح التجارية التى تدفع بالسحب تجاه اثيوبيا فتمنع نزول الأمطار التى تسبب الفيضان فان توفون ، وقد بلغ ذروة قوته ومنتهاها يحرق كل شىء ويضطر النيل لضعفه إلى أن يحسر ماءه ويغيض فى مجراه ويجرى ضعيفا نحو البحر . وغالب الظن أن حبس أوزيريس فى الصندوق قد لا يعنى سوى تورية مياه النيل واختفائها . ومن ثم يقولون أن أوزيريس يختفى فى شهر هاتور (نوفمبر) عندما يفيض النيل تماما وتعرى الأرض وقد كفت الرياح التجارية حينئذ عن الهبوب - هذا من ناحية- ومن ناحية أخرى عندما يزداد الظلام ويطول الليل وتخبو قوة الضوء وتضعف لذلك يؤدى الكهنه طقوسا كئيبه . فيلقون بقرة مذهبه بثوب من التيل الأسود ويعرضونها بسبب حداد الآلهة أربعة أيام من اليوم السابع وحتى اليوم العاشر . لأنهم يرون فى البقرة والأرض صورة إيزيس . وهناك أربعة أشياء يندبونها : أولها النيل الذى يتوارى وينحسر. وثانيها الرياح الشمالية وقد أخمدتها الرياح الجنوبية تماما وسيطرت عليها . وثالثها أن النهار أصبح أقصر من الليل وفوق كل هذا وذاك جرود الأرض . وكذلك تحرر الشجر الذى سقطت أوراقه . وينزل القوم فى اليوم

التاسع عشر ليلا إلى البحر ويخرج أمناء الأرديه والكهان من ذلك الصندوق المقدس الذى يحتوى على علبة صغيرة من الذهب وينزحون ماء قراحايصبونه فيها ، بينما يصيح الحضور من نشوتهم هانحن قد وجدنا أوزيريس . ثم يقبضون غرينا خصيبا ويخلطونه بتوابل زكيه . وطيوب فاخرة وماء ويشكلون من كل هذا تمثالا صغيرا فى هيئة هلال يكسونه ويزخرفونه . وهم يبينون بذلك أنهم يعدون هذين الالهين (إيزيس واوزيريس) مبدأ الماء والأرض " .

ويتضح مما سبق أن تفسير فيضان النيل عند المصريين يأتى فى قالب أسطورى يدور حول الصراع بين الخير والشر ، أى بين أوزيريس وست (توفون) . فالفيضان هو سيل أوزيريس والأرض جسم إيزيس . وعند إلتقاء أوزيريس وإيزيس ؛ أى الفيضان والأرض تأتى الخضرة والنماء . كما أن توقف الفيضان يعنى انتصار ست رمز الشر .

ومما هو جدير بالملاحظة إشارة بلوتارك إلى الربط بين الربة إيزيس والنجم سيريوس . لذلك فان كهنة الربة إيزيس هم الذين كانوا يؤدون طقوس الاحتفال بفيضان النيل [١٤]. وقد أمر الملك بطلميوس الثالث باقامة إحتفال يشارك فيه الجميع عند صعود هذا النجم [١٥]. لأن هذا الحدث يعنى ثلاث مناسبات فى آن واحد . أولها بداية السنة الجديدة وثانيها الانقلاب الصيفى . أما ثالثها فهو بداية فيضان النيل . مما يؤكد الربط بين الربة إيزيس وفيضان النيل . لأن إيزيس فى عقيدة المصريين هى التى تجلب الفيضان عندما تذرف الدمع على أوزيريس . وتأتى بالرياح الموسمية عندما ترفرف بجناحيها لكى تدفع الرياح الشمالية إلى أنف أوزيريس الميت [١٦]. كما أن ابنها حورس يولد من

جديد فى كل عام متمثلا فى فيضان النيل الذى يلاحق ست (البحر) ويهزمه . وقد ظل الاعتقاد فى قدرة الربة إيزيس على إرسال الفيضان ماثلاً خلال عصر البطالمة والرومان . فقد جاء فى نص قرار كانوب [١٧] الذى يرجع إلى عصر الملك بطلميوس الثالث يورجتيس أن إيزيس هى التى أعطت الملك فيضانا عاليا . كما ورد فى نص برديه [١٨] من العصر الرومانى أن إيزيس هى التى خلقت نهر الجانج فى الهند وكل أنهار ليبيا (أفريقيا) .

الإغريق ولغز الفيضان

عند تناول آراء الاغريق فى ظاهرة النيل فاننا نبدأ بهوميروس . وقد ذكر إسترابون [١٩] أن هوميروس كان يجهل إسباب فيضان النيل . لكن يمكن التماس العذر لهوميروس لأن الكثيرين ممن جاؤوا بعده كانوا جاهلين بأشياء كثيرة . إلا أنه مما يستلفت النظر إن إسترابون - الذى يرى أن هوميروس كان جاهلا فيما يتعلق بفيضان النيل عندما يعرض رأى أحد الفلاسفة فى أسباب فيضان النيل - . يقول إنه أخذ هذه الفكره عن هوميروس وهى الفكرة التى تقول إن الأمطار هى سبب الفيضان لأن هذا الشاعر قال إن النيل يتغذى من السماء [٢٠].

ولعل أول من حاول تفسير ظاهرة فيضان النيل من الإغريق هم الفلاسفة الطبيعيون [٢١]. فقد ذكر طاليس [٢٢] أن الرياح الموسمية التى تهب ضد اتجاه مياه النيل هى التى تمنع تلك المياه من التدفق إلى البحر ، لذلك فانها تغرق مصر لأنها أرض سهلية منخفضة . أما الفيلسوف ثراسيالكيز Thrasylkes (منتصف القرن الخامس ق . م)

فقد ذكر أن الرياح الموسمية عندما تصطدم بجبال إثيوبيا يؤدى ذلك إلى سقوط الأمطار وحدوث الفيضان (٢٣) . وقد تحدث الفيلسوف ديموقريطس Democritus (٢٤) عن مصادر الأمطار فى المنطقة الحارة فأشار إلى أنه عند وقوع الانقلاب الشتوى فان المناطق الشمالية تكون مغطاة بالثلوج . ولكن عندما يحدث الانقلاب الصيفى تميل بدورتها نحو الشمس وعندئذ يبدأ الجليد فى الذوبان وينتج عن ذلك البخر الذى يتحول إلى سحاب تدفع به الرياح الموسمية إلى الجنوب . وعندما تتجمع هذه السحب فى ليبيا وإثيوبيا تتحول الابخرة الكثيفة إلى ندى يتساقط إلى أسفل لكى يسبب فيضان النيل . وقد عرفنا رأى هذا الفيلسوف من ديودور(٢٥).

وإذا كان ديموقريطس يرى أن الثلوج التى توجد فى الشمال هى سبب حدوث فيضان النيل . فان أنكساجوراس (٢٦) يرى أن الثلوج التى توجد فى المناطق الجنوبية هى السبب فى وقوع هذه الظاهرة ، ولكن إفوروس(٢٧) Ephoros يرى أن طبيعة أرض مصر هى التى تؤدى إلى وقوع الفيضان .

هيرودوت

يتحدث هيرودوت عن الفيضان وأسبابه قائلاً :(٢٨) " والنيل وقت الفيضان لايغمر الدلتا فحسب ؛ بل يفيض كذلك على بعض أجزاء من الأرض المسماة بالأرض الليبية . وبعض من الأرض المسماة بالأرض العربية إلى مدى مسيرة يومين من كلا الجانبين . وأحيانا يزيد على ذلك وأحيانا يقل . ولم أتمكن من الحصول على معلومات عن طبيعة النهر، لا من الكهنة ولا من أى شخص آخر . ولو إننى كنت شديد الرغبة فى

معرفة السبب الذى من أجله ينساب النهر فى فيضان جارف لمدة مائة يوم. إبتداء من الانقلاب الصيفى . ثم بعد مضى هذه المده من الايام ينحسر ويغيض ماؤه . ويبقى على هذا الحال طوال الشتاء إلى أن يحين الانقلاب مرة ثانية . لم أستطع أن استقصى أية معلومات بخصوص واحدة من هذه المسائل . كما سألتهم عن قوة النيل التى تختلف بها طبيعته عن سائر الأنهار ولقد أردت أن أستعلم عن الموضوعات التى ذكرتها وسألت أيضا عن السبب فى أن النيل وحده دون سائر الأنهار لايهب على صفحاته نسيم " .

ويواصل هيرودوت حديثه (٢٩)" ولكن بعض اليونانيين وقد أرادوا أن يشتهروا بالحكمه ذهبوا فى تفسير ظاهرة مائه ثلاثة مذاهب مختلفة . أظن أن إثنين منها لايستحقان الذكر لو لم أكن راغبا فى مجرد الإشارة إليهما . أحدهما يقول إن الرياح الموسمية هى التى تسبب فيضان النيل. لأنها تعوق النهر عن أن يصب فى البحر . ولكن كثيرا ما يحدث ألا تهب الرياح الموسمية . ومع ذلك يعمل النيل نفس العمل هذا إلى أنه إذا كانت الرياح الموسمية هى السبب فى ذلك لوجب أن الأنهار الأخرى التى تجرى فى اتجاه مضاد للرياح الموسمية تتعرض تماما لنفس الشىء الذى يتعرض له النيل ، بل يكون تأثرها بهذه الظاهرة أكثر وضوحا لأنها أصغر من النيل ، فيكون تيارها أضعف . ولكن هناك أنهارا عديدة فى سورية وأنهاراً عديدة فى ليبيا لاتتعرض لما يتعرض له النيل . والمذهب الثانى أشد غموضا من الذى تحدثنا عنه وأشد إثارة للعجب . إن صح هذا التعبير . إذ يزعم أن هذه الظواهر تنتج من أن النهر يفيض من المحيط . أما المحيط فيفيض من حول الأرض كلها . أما المذهب

الثالث- ولو أنه فى مظهره أقربها جميعا إلى التصديق - إلا أنه بعيد عن الصحة كل البعد . إذ لا طائل تحت ما يدعى أن النيل يستمد ماءه من الثلوج الذائبة " .

ونلاحظ أن هيرودوت يرفض فكرة الربط بين الفيضان والمياه المحيطة بالأرض . ويقول [٣٠] إن من ينادى بهذه الفكرة " فان كلامه غامض يعوزه البرهان . وأنا شخصياً لا أعرف أن نهر الأوقيانوس موجود فعلا. وأعتقد أن هوميروس أو أحد الشعراء الذين سبقوه ابتكر هذا الإسم وأدخله فى الشعر " . وبعد أن يعرض هيرودوت لآراء من سبقوه ويسخر من أصحابها الذين يدعون الحكمة على حد تعبيره . يدلى بدلوه فى أمر فيضان النيل فيقول [٣١] " فاذا كان من الواجب لدحض الآراء السابقة - أن أدلى برأى بخصوص هذه الأمور الغامضة فانى ساشرح كما يتراءى لى لماذا يفيض النيل صيفا : فى فصل الشتاء عندما تدفع الزوابع الشمس خارج مدارها المعتاد تذهب هذه إلى أجواز ليبيه العليا (أى الجنوبية) ذلك هو تعليلى فى منتهى الإيجاز وقد قلت فيه كل شيء . ومن الطبيعى أن يكون ماء هذه المنطقة التى يقترب منها هذا الإله (أى الشمس) ويحلق فوقها شحيحا للغاية وأن تجف مجارى الأنهار فى هذا الاقليم " .

ثم يعود هيرودوت بعد ذلك إلى شرح وجهة نظره بالتفصيل قائلا[٣٢]" وهذا تعليلى مبينا بالتفصيل .إن تأثير الشمس أثناء عبورها سماء ليبية العليا يكون على النحو الآتى : لما كان الجو فى هذه الجهات صافيا على مدار السنة . وكان الاقليم الحار ليست به رياح باردة ، فان الشمس أثناء عبورها تقوم بنفس العمل الذى إعتادت القيام به خلال

الصيف عندما تجرى وسط السماء . أى أنها تجذب المياه إليها . وتدفع بها بعد أن تجذبها إلى المناطق العليا ، وهناك تستحوذ عليها الرياح وتشتتها وتذيبها ومن الطبيعى أن الرياح التى تهب على هذه البلاد - الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية - تجلب معها أمطاراً أغزر بكثير مما تجلبه كافة الرياح ، ومع ذلك يبدو لى أن الشمس لاتبعث كل سنة بكل ما جذبته من مياه النيل فى هذه السنة . بل تبقى بعضه بجانبها ، وعندما يعتدل الشتاء تعود الشمس ثانية إلى وسط السماء . ومنذ ذلك الحين تجذب المياه من كل الأنهار على السواء . وهنالك تفيض هذه الأنهار بمياه وفيرة لكثرة الامطار التى تختلط بها . وذلك لنزول المطر بالبلاد وامتلاء الأرض بالجداول . أما فى الصيف فتنضب مجاريها بعدم نزول المطر ولامتصاص الشمس لمياهها . ولما كان النيل لايتغذى من مياه الأمطار . وفى نفس الوقت تمتص الشمس ماءه . فانه لذلك - بطبيعة الحال - النهر الوحيد الذى يجرى فى هذا الفصل وقد إنخفض مستواه كثيرا عما كان عليه فى الصيف . وفى الصيف تجذب الشمس ماءه كما تجذب فى الوقت عينه المياه كلها . ولكنه يخضع وحده لتأثيرها فى الشتاء . فانى لذلك أعتقد أن الشمس سبب فيضان النهر".

والحقيقة أننا نجهل الأسباب التى تجعل هيرودوت متحاملا على مواطنيه من أبناء أيونيا . فهو يأخذ عن هيكاتيه دون أن يشير إليه بل يكتفى عادة بايراد عبارة " قال الأيونيون " . كما جاء فى الفقرة رقم ١٦ ، ١٧ من الكتاب الثانى . ثم يقلل من قيمة آراءهم قائلا أنهم أرادوا أن يشتهروا بالحكمة وأن آرائهم لا تستحق الذكر . وعندما يذكر الرأى الأول فى تفسير فيضان النيل نجد أنفسنا أمام رأى طاليس الذى

عرف بأنه كان واحدا من أبرز علماء زمانه . وكان كثير السفر والترحال بحثا عن الحقيقة ؛ فقد زار مصر وكان أول من قدر إرتفاع الهرم . وتنبأ بكسوف الشمس الذى وقع فى عام ٥٨٥ ق . م وكان يعد واحد من حكماء الدنيا السبعة [٣٣]. ثم يعود بعد ذلك إلى الهجوم على رأى هيكاتيه الذى يتبنى فكرة المياه المحيطة بالأرض (الاوقيانوس) كما يستنكر هيرودوت ما قاله أنكساجوراس عن الثلوج الذائبة كسبب لفيضان النيل .

وفى النهاية يسوق هيرودوت رأيه الخاص فى مشكلة فيضان النيل ، فيعزو هذه الظاهرة إلى الشمس التى تجذب المياه إليها ثم تعود إلى دفعها من جديد . ويبدو أن هيرودوت فى هذا الرأى كان متأثرا بآراء بعض الفلاسفة الطبيعيين التى تقول بأن الشمس وما حولها من الأجرام السماوية إنما تتناول شحناتها الغذائية من الابخرة الصاعدة [٣٤].

ديودور

ناقش ديودور بالتفصيل قضية فيضان النيل وعرض لآراء الكثيرين ممن سبقوه قائلا [٣٥]" والآن وبعد أن تحدثنا عن المنابع وعن مصبات النيل فاننا نتناول سبب فيضانه . فان طاليس الذى يعتبر واحدا من الحكماء السبعة ذكر أنه عندما تهب الرياح الموسمية على مصبات النهر فانها تمنع مياهه من أن تصب فى البحر ؛ ولهذا لسبب فانه يفيض ويغرق أرض مصر لأنها عبارة عن أرض سهلية منخفضة . ولكن هذا التفسير على الرغم من أنه يبدو معقولا ظاهريا إلا أنه زائف . لأنه إذا كان صحيحا فان كل الأنهار التى تواجه مصباتها الرياح لابد وأن تفيض

بنفس الكيفية . ولكن لأن هذه الظاهرة لاتحدث فى مكان آخر من عالمنا فاننا يجب أن نبحث عن السبب فى مجال آخر . وقد ذكر الفيلسوف أنكساجوراس أن سبب فيضان النيل يرجع إلى ذوبان الثلوج فى جبال إثيوبيا . وقد وافقه الشاعر يوريبيديس الذى يعد واحدا من تلاميذه على هذا الرأى حين كتب : إنه يحرر مياه النيل أجمل الاشياء التى تتدفق على وجه الأرض . النيل الذى يجرى من أرض إثيوبيا السوداء أرض الرجال حيث يتدفق بقوة عندما تذوب الثلوج . ولكن هذه المقولة بحاجة إلى تفنيد : لأنه من الواضح لأى شخص أن الحرارة الشديدة تجعل من المستحيل سقوط الثلوج فى إثيوبيا . لأن مثل هذه الاقاليم ليس بها جليد أو صقيع . بل ليس بها أى علامات من الشتاء . وربما هذا يبدو واضحا وبخاصة فى موسم الفيضان . وحتى لو إدعى شخص بأنه يوجد كميات ضخمة من الثلوج فى الأرض الواقعة بعد إثيوبيا ، فانه يمكن الرد على هذه الفكرة بالقول بأن كل نهر يستمد مياهه من الثلوج الذائبه يعطى هواءً بارداً . وهذا أمر يتفق عليه الجميع لذلك فانه يؤدى إلى تكثيف الهواء المحيط به . ولكن نهر النيل هو النهر الوحيد الذى لايوجد حوله سحب أو هواء بارد ولايوجد تكثيف للهواء من حوله " .

ويمضى ديودور فى استعراض آراء من سبقوه فى مشكلة فيضان النيل فيقول " يذكر هيرودوت أن حجم النيل فى زمن الفيضان هو الحجم الطبيعى للنهر . ولكن لأن الشمس فى الشتاء تنسحب إلى داخل ليبيا (أفريقيا) فانها تجذب إليها كمية كبيرة من بخار الماء ولهذا السبب فان النهر خلال الشتاء يصبح صغير الحجم . ولكن مع بداية فصل الصيف فان الشمس تعاود اتجاهها نحو الشمال وتقوم بتجفيف أنهار

بلاد الاغريق . وكذلك الأنهار الأخرى التى توجد فى البلاد التى تتشابه مع بلاد الإغريق من حيث الموقع . ويترتب على ذلك أنه لايوجد مجال للدهشة من هذه الظاهرة المتعلقة بالنيل . فالأمر الثالث أن النيل لاتزداد مياهه فى الفصل الحار ولاينكمش فى الشتاء للسبب الذى ذكرناه " .

ويرد ديودور على تفسير هيرودوت قائلا " والآن فان الإجابة على هذا التفسير يمكن أن نطرحها بالقول بأنه إذا كانت الشمس تأخذ بخار الماء من النيل فى الشتاء فانها ينبغى أن تفعل نفس الشىء مع الأنهار الأخرى فى ليبيا ، وتقلل مياهها . ولكن طالما أن ذلك لايحدث فى أى مكان آخر ، فانه من الواضح أن هذا المؤرخ قد ضبط متلبسا باختراع هذا التفسير لأن أنهار بلاد اليونان تزداد فى الشتاء لأمر لايرتبط بالشمس. بل بسبب الأمطار الغزيرة " .

ثم يعرج ديودور على رأى الفيلسوف ديموقريطس قائلاً : "يقول ديموقريطس من أبديرا إنه ليست البلاد الجنوبية المغطاة بالثلوج كما يقول كل من يوريبيديس وأنكساجوراس ؛ ولكنها البلاد التى تقع فى الشمال. وهو أمر واضح لكل إنسان وأن تلك الأكوام الضخمة من الثلوج تظل مجمدة حتى فصل الشتاء .

ولكن عندما يأتى الصيف فانها تذوب بفعل الحرارة ؛ مما يؤدى إلى تكوين كميات من السحب فى طبقات الجو العليا . لأن البخار عادة ما يذهب إلى أعلى فى كميات كبيرة . وهذه السحب تدفعها الرياح الموسمية حتى تصطدم بأعلى الجبال الموجودة على الأرض ، وهى جبال إثيوبيا وعند الاصطدام بقمم الجبال تتكثف وتملأ النهر بكميات ضخمة خلال وقت الرياح الموسمية " .

ويناقش ديودور رأى ديموقريطس قائلاً " ولكن ليس من السهل على أى إنسان أن يرفض مثل هذا التفسير أيضا إذا ما لاحظ بدقة وقت حدوث الفيضان لأن النهر يبدأ فى الفيضان خلال الصيف ، عندما تكون الرياح الموسمية قد خفت . وبدأت فى الانحسار مع بداية الاعتدال الخريفى . مما يعنى أنها توقفت من مدة . والأمر يبدو مجرد إجتهادات لانستطيع أن نثق فيها تماما كما أن القول بأن جبال إثيوبيا هى أعلى الجبال يظل بدون دليل ولا ينبغى أخذه على محمل الجد . لأن شهود العيان لا يؤيدون مثل هذا الرأى ؛ حيث أن هؤلاء الشهود يقولون أن هذه الجبال ليست عالية بدرجة ملحوظة " .

ثم يسوق ديودور رأيا آخرا وهو رأى إفوروس Ephoros [٣٦] فيقول "وأحدث التفسيرات هى التى يقدمها إفوردس وهى عبارة عن رأى فضفاض . فهو يقول أن مصر جميعها أرض رسوبية ذات طبيعة إسفنجية مثلها مثل الحجر الخفاف . فهى مليئة بالمساحات التى تمتص كميات كبيرة من الماء وتحتفظ بها خلال فصل الشتاء . إلا أنها تخرجها فى الصيف فى كل مكان مثل العرق مما يسبب فيضان النهر ". وكعادته فى الرد على الآراء التى يذكرها يقول ديودور " إن هذا المؤرخ كما يبدو لنا لم ير بنفسه طبيعة البلاد . بل إنه لم يجهد نفسه بالاستفسار ممن هم على دراية بطبيعة هذه البلاد . لأن النيل لو كان يستمد فيضانه من مصر ذاتها فلماذا يحدث الفيضان فى أجزائه العليا حيث تسود الطبيعة الصخرية الصلبة . كما أن هناك حقيقة معروفة وهى أن النهر يفيض خلال مجرى يمتد لاكثر من ستة آلاف ستاديا فى أرض إثيوبيا قبل أن

يلمس أرض مصر . وثانيا فانه إذا كان مجرى النيل منخفضا عن الشقوق فى التربة الرسوبية فان (تلك الشقوق) عندئذ تكون فى السطح وذات حجم كبير لايمكنها من الاحتفاظ بكميات كبيرة من المياه . أما إذا كان مستوى النهر أعلى من مستوى الأرض ، فلا يمكن أن نتصور أن المياه تتدفق من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى ، وبشكل عام فان المرء لايمكن أن يتصور أن تكون الأرض قادرة على إخراج كل هذه الكمية من المياه التى تغرق مصر بأكملها . ولهذا فاننى يجب أن أتغاضى عن مقولة إفوروس عن طبيعة التربة وكمية المياه المختزنة فى داخلها . لأن دحض هذه الآراء أمر يسير . وعلى سبيل المثال فان نهر المياندر Meander فى آسيا يرقد فوق تربة رسوبية . ولكن لاتوجد به أى ظاهرة من ظواهر فيضان النيل وكذلك نهر أكارنانيا Acarnania الذى يعرف باسم أخيلووس Achelous (٣٧) ونهر كيفسوس فى بؤتيا الذى ينبع من فوكيس Phocis (٣٨). وهى أنهار قامت بتكوين أودية لا بأس بها . ولعل فى هذه الأنهار ما يدل بجلاء على أن قول هذا المؤرخ ملىء بالأخطاء . وعلى أية حال فان المرء لايمكن أن يأخذ كل آراء إفوروس بجدية لأنه لم يكن يبذل اهتماما فى سبيل الوصول الى الحقيقة " .

ثم ذكر ديودور رأيا نادى به " حكماء منف قائلا(٣٩) "بعض الحكماء فى منف قدموا تفسيرا وجيها للفيضان . وهو يمكن أن يصمد أمام النقد. أكثر من كونه تفسيرا معقولا . وقد قبله الكثيرون . فقد قسم هؤلاء الحكماء الأرض إلى ثلاثة أجزاء : أحدهما هو العالم الذى نسكن فيه . والثانى هو العالم المقابل لعالمنا فى الفصول . أما الثالث فانه يقع بينهما . وهو عالم غير مسكون بسبب الحرارة الشديدة . ولو كان النيل

يفيض فى الشتاء فهذا معناه أنه يستمد مياهه الإضافية من العالم الذى نسكنه . ولكن طالما أن الحال على النقيض ؛ إى أن النيل يفيض فى الصيف ، فانه من الجائز أن الأمطار تهطل فى العالم المقابل لنا . لأن فصل الشتاء يكون هناك ثم تندفع المياه إلى عالمنا " [٤٠].

وعلى الرغم من إشارة ديودور فى البداية إلى وجاهة هذا الرأى إلا أنه لم يسلم من سهام نقده إذ يقول " ولكن هذا الرأى يسهل الدفع بعدم صحته لأنه من المستحيل على نهر ينبع من العالم المقابل أن يصب فى عالمنا . وبخاصة عندما نأخذ فى الاعتبار الفكرة التى تقول بأن عالمنا مثل الكرة . لأنه إذا ما واتت الإنسان الجرأة على النظر إلى الحقائق عن طريق الكلمات المجردة فانه يستطيع أن يفسر كل شىء فى الطبيعة . وبشكل عام فان مثل هؤلاء الرجال عندما يقدمون اقتراحا غير قابل للبرهان ، ويضعون المنطقة غير المأهولة بين عالمين مسكونين فانهم بذلك يتجنبون ما من شأنه دحض أقوالهم " ثم يختم ديودور قوله بأن كل ما ذكره هؤلاء (أى حكماء منف) عن الفيضان يعتبر زائفا .

ونمضى مع ديودور فى عرضه لآراء الآخرين فيما يتعلق بسر فيضان النيل إذ يقول[٤١] " يرى أوينوبيديس[٤٢] Oenopides من خيوس Chios أن المياه الكامنة فى باطن الأرض تكون باردة خلال الصيف .

بينما تكون دافئة فى الشتاء . وهذا ما يمكن أن نلاحظه فى الآبار العميقة . ففى منتصف الشتاء تكون مياهها أقل برودة . بينما فى أشد أيام العام حرارة يمكن أن نستخرج منها مياها أكثر برودة . وبناء على ذلك يمكن القول بأن نهر النيل يكون صغيرا وقليل الماء فى الشتاء لأن

سخونة باطن الأرض تستهلك جانبا كبيرا من البخار بالإضافة إلى عدم وجود أمطار فى مصر . بينما فى الصيف حينما لايوجد استهلاك لبخار الماء فى باطن الأرض ، فان المياه تتدفق بحجمها الطبيعى لأنه لايوجد ما يعوقها " .

ولكن هذا الرأى لايلقى قبولا لدى ديودور فيرد عليه قائلاً " . ولكن الرد على هذا الرأى يكمن فى القول بأنه توجد أنهار أخرى فى ليبيا لها نفس شكل مصبات النيل ومجراه ولكنها لاتفيض مثلما يفيض النيل . بل على العكس تماما فهى تفيض فى الشتاء وتقل فى الصيف[٤٣]. وهى بهذا تدحض الآراء الزائفة لأى إنسان يحاول تزييف الحقائق عن طريق الجدل المخادع " .

وبعد هذه الرحلة الطويلة التى اصطحبنا فيها ديودور عبر الآراء المختلفة حول آسباب فيضان النيل ، نصل أخيرا إلى رأى يلقى قبولا لديه إذ يقول [٤٤]" ولعل أكثر الآراء إقترابا من الواقع هو ما ذكره أجثار خيديس[٤٥] Agatharchides من كنيدوس . وتفسيره للأمر كما يلى : فى كل عام تسقط أمطار مستمرة على جبال إثيوبيا من فترة الإنقلاب الشمسى الصيفى حتى الاعتدال الخريفى . ولهذا فمن الطبيعى أن ينكمش النيل خلال الشتاء ، لأنه يستمد المياه من منابعه فقط ، وأن يزداد حجمه فى الصيف لأن الامطار تصب فيه . وطالما أن أحدا لم يتمكن من معرفة سبب أو أصل مياه الفيضان ، فانه ليس من الإنصاف أن نرفض هذا التفسير الذى قدمه لنا . لأن الطبيعة كثيرا ما تقدم لنا ظواهر متناقضة تكون أسبابها أبعد من قدرة الانسان على المعرفة . وقد أقام البينة على رأيه عندما أشار إلى ما يحدث فى بعض المناطق فى

سكيثيا التى تتاخم جبال القوقاز تهب عواصف ثلجية بشكل استثنائى لأيام متوالية كل عام بعد انتهاء الشتاء فى آسيا .. كما تسقط فى الأجزاء الشمالية للهند فى بعض الفصول حبات الصقيع . وهى من حيث حجمها تفوق التصور . كما تسقط على نهر هيداسبيس[٤٦] Hy-daspes كميات من الأمطار فى بداية الصيف . وفى إثيوبيا يحدث نفس الشىء . ومثل هذه الظواهر المناخية تسبب عواصف فى البلاد المتاخمة . لذا فانه ليس من المدهش أن تهطل الأمطار بصفة مستمرة فى مرتفعات إثيوبيا لأنها تقع أعلى مصر . وعندما تسقط هذه الأمطار فانها تملأ النهر وهذا أمر يؤكده شهود العيان من سكان هذه المنطقة . وإذا ما جادل البعض بالقول بأن هذا عكس ما يقع بيننا فانه لايجب أن نرفض هذا الرأى لذلك السبب. لأن الرياح الجنوبية على سبيل المثال تأتى معها بجو عاصف ، بينما تكون السماء فى إثيوبيا صافية ، وفى أوروبا على الرغم من أن الرياح الشمالية تكون عنيفة فان جو هذه البلاد يكون طيبا " .

وفى النهاية يختم ديودور حديثه عن قضية فيضان النيل بقوله[٤٧] "والخلاصه أنه فيما يتعلق بفيضان النيل ، فعلى الرغم من إننا قادرون على الإجابة من خلال ذكر الآراء المختلفة التى حاولنا أن نقدم تفسيرا له فاننا نقنع بما ذكرناه حتى لانبتعد عن مبدأ الايجاز الذى ألزمنا أنفسنا به منذ البداية " .

وهكذانلاحظ أن ديودور عند عرضه لقضية النيل يطرح كل الآراء التى أثيرت حول هذا الأمر ثم يتولى مناقشتها والرد عليها . وقد وصف بعض هذه الآراء بأنها زائفة . وأن بعض أصحابها يسوقونها لمجرد الجدل

العقيم . بل إن ديودور يتهم أحد أصحاب هذه الآراء بأنه لم يجهد نفسه في سبيل الوصول إلى الحقيقة . ولكنه في النهاية لايملك إلا أن يبدى إعجابه برأى أجثار خيديس . ومما لاشك فيه أن آراء هذا الجغرافي قد إستقاها من الدراسات التي توفرت كنتيجة للجهود الكشفية للبطالمة ، ومن شهود العيان الذين رأوا الأمطار الغزيرة على هضبة إثيوبيا في فصل الصيف (٤٨).

إسترابون

ونختم حديثنا عن مشكلة فيضان النيل عند الجغرافيين الاغريق بما جاء عند إسترابون من آراء يتضح منها بجلاء مدى استفادته من المعلومات التي أوردها ديودور . ورأى إسترابون في هذا الامر كما يلي(٤٩) " لقد كان القدماء يعتمدون على التكهنات . أما المتأخرون وقد أصبحوا شاهدى عيان ، فقد لاحظوا أن النيل يمتلىء بالأمطار الصيفية عندما تغمر الأمطار إثيوبيا الشمالية وخصوصا جبالها القصية البعد . وأنه عندما تكف الامطار ينتهي الفيضان شيئا فشيئا . ولقد أصبحت هذه الحقيقة واضحة جدا للذين أبحروا في البحر الأحمر إلى بلاد الصومال وللذين بعثوا لصيد الفيله أو لأى غرض آخر مما يكون قد حفز ملوك البطالمة لإيفاد بعثات إلى هناك . ذلك أن هؤلاء الملوك كانوا مولعين بأشياء من هذا القبيل وخصوصا الملقب منهم بفيلادلفوس فقد كان محبا للبحث وكان دائم السعي وراء ملاهي ومسليات جديدة بسبب ضعف بنيته . ولم يكن الملوك القدامى مولعين بمثل هذه الامور على الاطلاق . ولو أنهم كانوا مغرمين بالعلم . وكذلك الكهنة أيضا الذين كانوا يمضون معهم الشطر الأكبر من حياتهم حتى أنه ليجدر بنا أن نعجب من ذلك . ومن أن سزوستريس قد جاب إثيوبيا كلها حتى بلاد

الصومال . وأن نصبا تخلد رحلته وأعمدة ونقوشا لاتزال ترى هناك حتى الآن " ثم يواصل إسترابون حديثه قائلا " ومن العجب إذن أن أمر هذه الأمطار لم يكن واضحا تماما لهؤلاء القوم القدماء وقد كانوا يصدرون عن مثل هذه المبادىء . خصوصا وأن الكهنة كانوا يسجلون فى كتبهم المقدسة ويحفظون بشيء من الدقة كل ما يكشف عن معلومات غريبة . ولقد كان لهم أن يبحثوا - إن كانوا يبحثون على الاطلاق - المسألة التى لاتزال محل بحث إلى الآن . وهى لماذا تسقط الأمطار صيفا وليس شتاء فى أقصى الجنوب فى حين أنها لاتسقط فى رقليم طيبة وحول سينى ؟ ولكن ما كان لهذه الحقيقة وهى أن الفيضانات تتسبب عن الأمطار أن تبحث ولا كانت فى حاجه إلى شهود كالذين يذكرهم بوزيدوينوس Bosidonios [٥٠]. فهو يقول مثلا أن كاليسثينس Callisthenes [٥١] هو الذى قال بأن سبب الفيضان هو الأمطار الصيفية . وقد أخذ رأيه هذا عن أرسطاليس وأخذه هذا عن ثراسيالكيس الثاسوسى (وهو أحد الطبيعيين الأول وأخذه هذا عن آخر وأخذه هذا الأخير عن هوميروس الذى يسمى النيل الصادر من الله " .

ومن كلمات إسترابون يتضح أن الرأى قد إستقر لدى القدماء على أن سبب الفيضان يرجع إلى سقوط الأمطار على هضبة إثيوبية فى الصيف .

مقياس النيل

لانستطيع أن ننهى حديثنا عن فيضان النيل دون الإشارة إلى مقياس النيل ؛ وذلك لما كان يمثله من أهمية لدى الدولة والأفراد . فكانت الدولة خلال عصرى البطالمة والرومان تحدد مستحقاتها لدى الأفراد بناء على

ما يحدده مقياس النيل (٥٢). فكان يتم التفرقة بين الأرض الزراعية التى تغطيها المياه خلال موسم الفيضان ، وتلك التى لا تصل إليها المياه بل أن مستحقات الأفراد لدى بعضهم البعض كانت تتأثر بمدى ارتفاع الفيضان . ففى إحدى البرديات التى ترجع إلى عصر البطالمة يتعهد أحد الأفراد بأنه سيدفع لوالدته بعض الالتزامات ، إلا أنه يذكر أنه فى حالة إنخفاض النيل فان مقدار تلك الالتزامات سوف يتغير(٥٣).

ويحدثنا ديودور(٥٤) عن مقياس النيل قائلا " بسبب القلق الذى يحدث نتيجة لإرتفاع النيل قام الملوك بانشاء مقياس للنيل عند منف حيث يقوم هؤلاء الذين عهد إليهم بملاحظة ارتفاع المياه بارسال التقارير إلى المدن لكى يخبروهم بمقدار ارتفاع مياه النيل . وكذلك عند بداية إنحسار الفيضان . وعندما يعلم سكان البلاد ببداية انخفاض النيل فانهم يتخلصون من قلقهم . كما أنهم يمكن أن يعرفوا مسبقا مدى وفرة المحصول لأن المصريين اعتادوا أن يحتفظوا بسجلات عن ملاحظاتهم فى هذا الأمر لمدة طويلة " . ومما هو جدير بالذكر أن ديودور هو أول من أستخدم كلمة إغريقية لوصف مقياس النيل وهى كلمة " نيلوسكوب " Niloscope أما استرابون(٥٥) فقد جاء وصفه لمقياس النيل كما يلى"ومقياس النيل بئر على شاطىء النهر مبنية من حجارة متراصة مؤشر عليها أقصى ارتفاع النهر وأدناه ومتوسطه . ذلك أن الماء فى البئر يرتفع وينخفض مع النهر . وعلى ذلك فتوجد على جدار البئر علامات هى مقاييس لأقصى الارتفاعات ولسائر الدرجات . وعندما ينظر المشرفون فى العلامات ينقلون النتيجة لسائر القوم لإعلامهم ؛ إذ أنهم يستنتجون هذه العلامات . ومن حساب الأيام الارتفاع القادم قبل ميعاده بكثير ويعلنونه . وهذا مفيد للزراع بالنظر إلى توزيع المياه

والجسور والقنوات وسائر ماشاكل ذلك . ومفيد أيضا للحكام فى ربط الخراج لأن الارتفاع الاكبر يعنى دخلا أكبر .

ويستلفت النظر فيما أورده استرابون أنه لم يستخدم كلمة نيلوسكوب فى وصف مقياس النيل كما جاء عند ديودور بل إستخدم كلمة جديدة وهى نيلوميتر Nilometer . ومن المعروف أن إسترابون كتب بعد الاحتلال الرومانى لمصر . وربما أراد أن يلفت نظر الادارة الرومانية فى مصر إلى ضرورة الاهتمام بالنيل باعتباره مصدر الخير للبلاد . ويرى بعض الباحثين(٥٦) أن كلمة نيلو سكوب التى إستخدمها ديودور من قبل لم تكن مألوفة لدى القراء . فأراد إسترابون أن يستخدم كلمة أبسط فاستخدم كلمة نيلو ميتر . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الكلمة هى الشائعة لوصف مقياس النيل كما تدل على ذلك الوثائق(٥٧).

وقد تحدث كل من ديودور وإسترابون من مقاييس النيل فى إلفنتين ومنف. إلا أنه كان يوجد عدد كبير من مقاييس النيل على طول مجرى النهر . فكانت هناك مقاييس رسمية إلى جانب المقاييس الخاصة (٥٨).

وكانت بعض هذه المقاييس مجرد عصا يتم غرسها فى المجارى المائية. أما المقاييس الرسمية فقد إختلفت أشكالها : فقد بدأت بمجرد علامات بسيطة على الصخور ، ثم أصبحت علامات على الأرصفة التى ترسو عليها السفن النيلية ، ثم درجات سلم على ضفة النهر تحتوى على علامات محدده ، وبعد ذلك أصبح مقياس النيل جزءا من الأبنية التى يحتوى عليها المعبد . حيث تصل إليه المياه عبر مجارى خاصة . وكانت مقاييس النيل عادة ما توجد فى الاماكن الخاصة بعبادة الإله حابى .

وقد عددت مدام بونو Bonneau مقاييس النيل التى عرفت فى مصر خلال العصر اليونانى الرومانى [٥٩]. بادئة من تلك المقاييس التى توجد فى الجنوب ثم تلك التى توجد فى مجرى النهر حتى المصبات . فذكرت أنه كان يوجد مقياس للنيل عند الشلال الأول يوجد به ملاحظ عليه أن يتابع ارتفاع الفيضان وأن يسارع بابلاغ السلطات أولا بأول . وكذلك مقياسان فى جزيرة فيله . كما وجد مقياس فى جزيرة إلفنتين وأسوان وهما اللذان أشار إليهما إسترابون . وعندما نتجه شمالا نجد مقياسا فى كوم امبو وآخر عند جبل السلسلة . وهو عبارة عن تدريجات بسيطة منقوشة على الضفة اليمنى للنهر . أما مقياس إدفو (أبو للونو بوليس مجنا) فانه يقع بالقرب من معبد حورس على الضفة الغربية للنيل ، وهو على شكل بئر مستديرة يمكن النزول إليها بواسطة درج . إلا أن مقياس إسنا (لانوبوليس) كان يوجد الشكل التقليدى للدرج الهابط نحو النيل . وفى طيبه كان يأخذ درج مغطى بالإضافة إلى مقياس مدينة هابو .

ثم يأتى بعد ذلك مقياس قفط ثم هرموبوليس (الأشمونين) . وهوعبارة عن رصيف للسفن نقشت عليه علامات . وفى مدينة أنتينوبوليس Antinoupolis (الشيخ عبادة بالمنيا) كان يوجد مقياس للنيل . وعلى الرغم من أن بلدة أوكسير ينخوس (البهنسا) لم تكن تقع على مجرى النيل فانه كان يوجد بها مقياس بالاضافة إلى المقياييس الموجودة على بحر يوسف .

ولما كانت رأس الدلتا تمثل أهمية قصوى لعملية الرى فانه كانت توجد عدة مقاييس بالقرب من المنطقة التى ينقسم عندها النيل وأهمها

مقياس منف . وعندما نجتاز منطقة رأس الدلتا ونتجه شمالا ، فاننا نجد عدة مقاييس فى الدلتا . وذلك على الرغم من أن أهمية المقاييس فى الدلتا تتضاءل مقارنة بما لها من أهمية فى الجنوب . فكان يوجد مقياس فى مندس (شرق المنصورة الحاليه) وخويس Chois (غرب المنصورة) كما كانت توجد مقاييس فى تانيسTanis (صا الحجر) وبلوزيون Pelosion (تل الفرما) وكذلك بالاسكندرية .

وإذا ما وصل ارتفاع الفيضان إلى ١٦ ذراعا كان هذا دليلا على أنه فيضان طيب . ولهذا صور تمثال إله النيل الموجود بمتحف الفاتيكان وحوله ١٦ طفلاً ويذكر استرابون[٦٠] أن قيام الامبراطور أوغسطس باصلاح وسائل الرى فى مصر أدى إلى أن ارتفاع النيل إلى رقم ١٢ ذراعا فقط كان يعني فيضانًا طيبا على البلاد . وحتى عندما وصل ارتفاع النيل ثمانية أذرع فقط فى عهد الوالى بترونيوس Petronius (٢٥ - ٢١ ق .م) لم تقع مجاعة فى مصر . ومما هو جدير بالذكر أن مدى ارتفاع الفيضان يتوقف على موقع المقياس جنوبا أو شمالا . ورقم الـ ١٦ الذى أشرنا إليه هو خاص بمقياس منف أما المقاييس القريبة من البحر المتوسط فان وصول المياه إلى ذراعين فيها كان كافيا لأن يكون هذا دليلا على أنه فيضان طيب .

الهوامش

١- Hyde , W . W, op . cit . P . 258 .

٢- Herodot II 97 .

٣- Diodorus I 36 . 7 - 9 .

٤- Cary , M . The Geographic Background of Greek ,$ Roman History . London 1949 . pp . 93 - 5 .

٥- إنظر التعليق على هذه اللوحة :

Lewis , N . , op . cit . p . 234 .

٦- Herodot II . 19 .

٧- Lewis , N . op . cit . p 95 .

٨- Reinmuth , O . W , The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian Leipzig . 1979 . p . 28 .

٩- Plutarchus . Isis , Osiris . 368 - B . 6 .

١٠- Plutarchus Isis and Osiris . 381 B . 10 .

١١- Moret , A . , op . cit . p . 28 - 9 .

١٢- Plutarchus , Isis and Osiris . 366 A

١٣- Plutarchus , Isis and Osiris . 366

١٤- Witt , R . E , Isis in the Greco - Roman World . London 1971 p . 15 .

١٥- O. G . I . S . 56 .

١٦- Witt , R . E . , op cit . P . 16 .

١٧- O . G . I . S . 56 . 1. 16 .

١٨- P . Oxy . 1380 .

١٩- Strabo . 7 . 3 - 6 .

٢٠- Strabo . 17 . 15 .

٢١- عن الفلاسفة الطبيعيين إنظر : يوسف كرم . المرجع السابق ص ١٢-١٩

٢٢- Warmington , E . H , op . cit . P . 1 .

٢٣- Strabo . 17 . 1 . 5 .

٢٤- الفيلسوف ديموقريطس (٤٧٠ - ٣٦١ ق . م) ولد في أبديرا بمنطقة تراقيا وقام بالعديد من الأسفار وتتلخص فلسفته في أنه كان يعتقد بأن الكون عبارة عن ذرات دقيقة . وأن تلاقي هذه الذرات واقترابها هو الذي يؤدي إلى كافة مظاهر الحياة إنظر .

علي سامي النشار : ديموقريطس . فيلسوف الذرة وأثره الفلسفي حتى عصورنا الحديثه . الاسكندرية ١٩٧٢ .

٢٥- Diodorus I . 39 .

٢٦- Diodorus I . 38 .

٢٧- إفوروس من مدينة كيمي (٤٠٥ - ٣٣٠ ق . م) له مؤلفات عدة من أشهرها كتب في التاريخ . وقد إعتمد عليه ديودور واسترابون في عدة مواضع .

إنظر . OX . cl . Dic .

٢٨- Herodot II 19 .

٢٩- Herodot II 20 , 21 , 22 .

٣٠- Herodot . II 23 .

٣١- Herodot . II 24 .

٣٢- Herodot . II 25 .

٣٣- إنظر : يوسف كرم . المرجع السابق ص١٥ .

٣٤- Cicero , De natura deorum II 15 .

إنظر :

نقل شيشيرون رأيا عن أحد الفلاسفة الطبيعيين جاء فيه " حيث أن الشمس ناريه . وحيث أنها تتغذى من الأبخرة الصاعدة من المحيط . فاما أنها تشبه النار العادية التى تستخدم فى الحياة اليومية أو أنها تشبه حرارة الجسد اللازمة للحياة .

٣٥- Diodorus . I 38 . 1 - 6 .

٣٦- Diodorus . I 39 . 7

٣٧- أكارنانيا هى المنطقة التى تقع بين خليج اكتيوم وخليج كورنث فى غرب بلاد اليونان إنظر : Cary . M . op . cit . P . 58 .

٣٨- المنطقة التى تقع وسط بلاد اليونان ومن أشهر مدنها طيبة إنظر : Cary . M . op . cit . PP . 69 - 73 .

٣٩- Diodorus I 40 .

٤٠- فى ضوء المعلومات المتوافرة لدينا الآن لايبدو هذا الرأى غريبا فان المنطقة الاستوائية وهى منطقة شديدة الحرارة وقليلة السكان تفصل بين عالمين متقابلين هما نصف الكرة الشمالى والنصف الجنوبى فعندما يكون فصل الشتاء هو السائد فى النصف الشمالى . يكون العكس فى نصف الكرة الجنوبى .

٤١- Diodorus I 41 .

٤٢- لاتتوفر لدينا معلومات كثيرة عن أوينوبيديس وكل ما نعرفه عنه أنه كان فلكيا وعالما للرياضيات عاش في القرن الخامس ق . م .

٤٣- لم يذكر ديودور أياً من هذه الأنهار .

٤٤- Diodorus I 41 . 4 - 9 .

٤٥- من علماء الاسكندرية (١٧٠ - ١٠٠ ق . م) وكان معلما للملك بطلميوس الثامن (يورجتيس الثاني) . وقد كتب عن البحر الأحمر واثيوبيا وبلاد العرب . إلا أن أعماله لم تصل إلينا وإنما عرفنا أفكاره من خلال كتاب آخرين . إنظر Tozer , H. F . op . cit . pp . 185 ff

٤٦- أحد روافد نهر السند ويسمى جيلوم Jhelum إنظر :

Tozer , H . F . op . cit . p . 137 .

٤٧- Diodorus I 41 . 10 .

٤٨- Tozer , H . F , op . cit . P 62 .

٤٩- Strabo . 17 . 1 . 5 .

٥٠- عاش فيما بين عامي ١٣٥ - ٥٠ ق . م وقد ولد في أباميا ودرس الفلسفة وإستقر في جزيرة رودس ، وقد أوفده أهلها إلى روما فتعرف على بعض القادة الرومان وكان شديد الاعجاب بالقائد يومبي وكتب رسالة عن فتوحاته في الشرق ، وقد اعتمد استرابون على هذه الرسالة .

إنظر وهيب كامل ، إسترابون في مصر القاهرة ١٩٥٣ ص٥٢ .

٥١- إبن شقيق الفيلسوف أرسطو . وقد صحب الاسكندر في حملاته على الشرق وكان مؤرخ الحمله . وقد حكم عليه بالاعدام في عام ٣٢٧ ق . م وأتهم بالاشتراك في مؤامرة ضد الاسكندر . إنظر : وهيب كامل المرجع السابق ص٥٢ .

٥٢- عن العلاقة بين الفيضان وتقدير الضرائب في مصر خلال العصر اليوناني

الرومانى إنظر : Bonneau , D , Le Fisc et Le Nil . Paris 1971

٥٣- Lindsay . J , op cit p . 16 .

٥٤- Diodorus I 36 . 11 .

٥٥- Strabo . 17 . 1 . 48 .

٥٦- Bonneau , D , la Crue du Nil . p . 25 .

٥٧- e . g . P . Oxy . 43 . P . S . I . VIII 955 .

٥٨- Jequier , G , les nilometer sous I ' Ancien Empire . I . F . A . O . V . 1906 . PP . 63 -64 .

59- Bonneau , D , Le Fisc et le Nil . PP . 25 - 39 .

٦٠- Strabo , 17 . 1 . 3 .



الفصل الخامس

مجرى النيل

والقنوات الصناعية

بعد أن عرضنا فى الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب لما جاء عند الكتاب الاغريق عن منابع النيل وفيضانه . نحاول فى هذا الفصل إلقاء الضوء على ما ذكره هؤلاء الكتاب عن مجرى نهر النيل . وكل ما يتعلق بهذا المجرى مثل المناطق التى يمر بها والشعوب الى تسكن فى تلك المناطق . والجزر التى توجد بمجرى النيل والشلالات التى تعترض مجراه . بالاضافة إلى ما ذكره هؤلاء الكتاب عن الكائنات والاسماك التى تعيش فى النيل . والنباتات تنمو على ضفتيه .

هيرودوت .

يعترف هيرودوت بأن مشاهداته لم تتجاوز مدينة إلفنتين فيقول[1] " ذهبت حتى مدينة اليفانتينا واعتمدت على مشاهداتى الشخصية . فأما فيما بعد هذه المدينة فروايتى تعتمد على السماع ابتداءً من مدينة إليفانتينا " . ثم يستطرد فى وصف النيل حسب الروايات التى سمعها " يجد المسافر صعداً فى البلاد أنها آخذه فى الارتفاع . لذلك يتحتم - للتقدم هناك - ربط القارب من طرفيه كالثور . فأما إذا ما انفلت أمامه حمله التيار الجارف وذهب به . والنيل فى هذه المنطقة التى يتطلب عبورها أربعة أيام بالقوارب . متعرج مثل نهر المياندروس [2]. وطول المسافة التى ينبغى قطعها بهذه الطريقة إثنا عشر إسخينوس[3]. ثم

نصل بعد ذلك إلى سهل منبسط ينساب النيل حول جزيرة تسمى تاخومبسو[٤] ويسكن الأثيوبيون المنطقة التى تلى إليفانتينا مباشرة . كما يقطنون نصف الجزيرة ويقطن المصريون نصفها الآخر . وتجاور هذه الجزيرة بحيرة عظيمة يسكن حولها إثيوبين رحل . فاذا عبرتها فانك ستصل إلى مجرى النيل الذى يصل إلى هذه البحيرة . وبعد ذلك تنزل إلى البر وتسير بحذاء النهر أربعين يوما . إذ توجد فى النيل صخور حادة وجنادل عديدة تتعذر بسببها الملاحة . وبعد اجتياز هذه المنطقة فى الايام الأربعين تأخذ من جديد سفينة أخرى وتبحر إثنى عشر يوما . تصل إلى مدينة عظيمة تسمى مروى . ويقال إن هذه المدينة هى عاصمة الأحباش الآخرين وسكانها لايعبدون من الآلهة إلا زيوس وديونيسوس فقط [٥]. وهم يمجدونهما تمجيدا عظيما ويوجد عندهم وحى لزيوس . وهم يشنون الحروب كلما أمرهم هذا الإله - عن طريق الوحى - ويتوجهون إلى حيث يأمرهم " .

ويواصل هيرودوت حديثه فى الفقرة التالية عن مجرى النيل كما ترامى إلى سمعه ذاكراً بلاد الفارين وهم جنود إبسماتيك الذين فروا واستوطنوا بلاد الاثيوبيين وهى الرواية التى أشرنا إليها فى معرض حديثنا عن التوغل المصرى فى الجنوب وفكرة المصريين عن منابع . وبعد أن يذكر هيرودوت هذه الرواية يواصل حديثه عن مجرى النيل قائلاً[٦] " مجرى النيل معروف إذن إلى مدى رحلة أربعة أشهر برا وبحرا. فضلا عن الجزء الذى يقع من مجراه فى مصر . فاذا قدرنا المدة وجدنا أن المسافر يقضى هذه الاشهر فى الذهاب من إليفانتينا إلى هؤلاء الفارين .

والنيل يجرى من الغرب ومن مكان غروب الشمس ، فأما ما وراء هذه المنطقة فلا يستطيع أحد أن يتكلم عنه في يقين . لأن هذه البلاد مقفرة لشدة الحرارة " .

ومن الملاحظ أن هيرودوت عندما يتحدث عن مجرى النيل بين إلفنتين ومروى فانه يذكر إنحناءة النيل فى هذه المنطقة حيث يتجه النيل شرقا ثم يعاود الاتجاه إلى الشمال . وهذا هو السبب الذى جعل البعض يعتقدون أن النيل فى هذه المنطقة يجرى من الغرب إلى الشرق [٧]. وفى النهاية يعترف هيرودوت بعجزه عن الإتيان بالمزيد من المعلومات عن نهر النيل قائلا[٨] " ولقد تكلمت عن مجراه بقدر ما استطاعت أن تصل إليه أبحاثى " .

ديودور

يقول ديودور عن مجرى النيل " ولأنه أعظم الأنهار بجانب كونه يمر بمناطق كثيرة لذلك يوجد فيه الكثير من الإنحناءات . فانه ينحنى تارة ناحية الشرق وتارة أخرى باتجاه الغرب . وأحيانا غربا باتجاه ليبيا ويجرى النهر من جبال إثيوبيا حتى يفرغ ماءه فى البحر . ويبلغ طوله بما فى ذلك المنحنيات ١٢ ألف ستاديا (٢٢٢٠ ك . م) . وفى أجزائه السفلى يتقلص حجمه ويتوزع بين القارتين . وفيما يتعلق بالفروع التى تخرج منه ، فان التى تتجه إلى ليبيا منها تمتصها الرمال التى توجد هناك بكثرة . أما تلك الفروع التى تأخذ الاتجاه المضاد أى ناحية بلاد العرب فانها تتحول إلى مستنقعات كبيرة وأحراش ويسكن على ضفتيه

شعوب متعددة . وعندما يدخل النهر إلى مصر فان إتساعه يصل إلى عشر ستاديات . وأحيانا أقل من ذلك . كما إنه لايجرى بشكل مستقيم بل في منحنيات متعددة الاشكال ؛ فتارة ينحنى باتجاه الشرق وتارة أخرى باتجاه الغرب . وفي بعض الأحيان يعاود الاتجاه نحو الجنوب . ملتفا حول مجراه . وتنتشر على ضفتى النهر قمم ذات شكل حاد ، وهى تحتل معظم الأراضى التى تحف بالنهر . وبها مناطق شديدة الانحدار ذات ممرات ضيقة . وعند مرور الماء بتلك المناطق يندفع بشدة نحو الوادى. وبعد أن يتجه المجرى جنوبا لمسافة قصيرة يعود إلى السير في مجراه الطبيعى " .

ويتحدث ديودور عن الشلالات التى توجد في النيل قائلا(١٠) " ومما هو جدير بالذكر أننا يجب أن نأخذ في الاعتبار أن النيل هو الوحيد من بين الأنهار الذى يشق طريقه بدون عنف أو أمواج عاتيه ، فيما عدا الشلالات(١١) - كما يطلق عليها - وهى مناطق يكون طولها حوالى عشر ستاديات فقط ولها شكل منحدر . تحف بها المنحدرات ذات الممرات الضيقة التى تشقها بالطول وتحتل الجانب الأكبر من هذه المنحدرات . بالإضافة إلى وجود صخور ضخمة تبدو في الماء مثل القمم. وحيث أن الماء يندفع خلال هذه القمم بقوة . فان المياه عادة ما ترتد إلى الوراء لاعتراض الصخور طريقها مكونة البحيرات . كما يؤدى ارتطام المياه إلى وجود الزبد على السطح . كما يؤدى إلى إصابة من يقترب من النهر بحالة من الذعر . لأن انحدار الماء يكون سريعا وقويا حتى يبدو لمن

يراه مثل السهم المندفع . . . . . ويوجد الآن العديد من هذه الشلالات؛ ولكن أعظمها ذلك الذى يوجد على الحدود بين مصر وإثيوبيا " .

ويذكر ديودور الجزر التى توجد فى النيل قائلا [١٢]" ويحتوى النيل على جزر داخل مجراه ؛ حيث يوجد العديد منها فى إثيوبيا ، إحداها ذات إتساع كبير ويطلق عليها مروى . ويوجد بها مدينة مشهورة تحمل ذات الاسم . وقد أنشأ قمبيز هذه المدينة وأطلق عليها اسم والدته ويقال إن هذه الجزيرة لها شكل الدرع المستطيل . وهى تفوق من حيث حجمها باقى الجزر التى توجد فى تلك المنطقة . فهم يقولون أن إتساعها ثلاثة آلاف إستاديا وعرضها الف . وتحتوى على العديد من المدن أشهرها مروى . وتحيط المياه بهذه الجزيرة لأن النهر يطوقها وعلى الجانب الذى يواجه ليبيا توجد كثبان تحتوى على كميات من الرمال لانهاية لها . أما الجانب الذى يواجه بلاد العرب فتوجد به منحدرات صخرية . ويوجد فى الجزيرة مناجم الذهب والفضة والحديد والنحاس . كما يوجد بها خشب الأبنوس وكل أنواع الأحجار الكريمة . وبشكل عام فان النهر يحتوى العديد من الجزر . وربما كان عددها لايمكن تصديقه . وإذا ما نحينا جانبا ذلك الاقليم المحاط بالمياه الذى يسمى الدلتا . فانه يوجد فى النيل ما يزيد على ٧٠٠ جزيرة ، يقوم الاثيوبيون برى بعضها وزراعتها بنبات الدخن . كما أن بعضها الآخر تغص بالحيات والقردة التى لها وجه الكلب والحيوانات الأخرى من كل نوع ؛ مما يجعل الانسان عاجزا عن إرتيادها " .

ويتحدث ديودور عن شعوب وادى النيل قائلا [١٣]" ويوجد أيضا العديد من القبائل بين الاثيوبيين بعضهم يسكن على ضفاف النيل . بينما يسكن البعض الآخر فى الجزر الموجودة فى النهر . كما يقيم فريق فى المناطق المجاورة لبلاد العرب (أى الواقعة بين النيل والبحر الأحمر). والبعض الآخر يقيمون داخل ليبيا . والغالبية العظمى من هؤلاء وبخاصة الذين يسكنون على ضفاف النيل لهم بشرة سوداء وأنف أفطس وشعر مجعد . أما عن سلوكهم فهو بدائى وطبيعتهم أقرب إلى الحيوانات المتوحشة ولايختلف سلوكهم عن الطريقة التى يعيشون بها . لأن القذارة تغطى أجسادهم ويحتفظون بأظافرهم طويلة مثل الحيوانات البرية . وهم أبعد ما يكونون عن الذوق الإنسانى فهم يتحدثون بشكل صاخب . ولا يزرعون نباتات من تلك النباتات المعروفة بين الأقوام المتحضرة . أما عن سلاحهم فان بعضهم يستخدم الدروع المغطاة بجلد الثور بالإضافة إلى الرماح القصيرة . ولدى بعضهم نبال من الخشب طولها أربعة أذرع يقذفون بها عن طريق وضع أرجلهم فيها لجذبها . وبعد أن تفرغ سهامهم يواصلون القتال مستخدمين الهراوات الخشبية . وهم يسلحون النساء أيضا " .

أما عن ملابسهم فيقول ديودور " فان بعضهم لايرتدون شيئا بالمرة ويمارسون حياتهم وهم عرايا . ولكن بعضهم يستخدم جلود الحيوانات".

ويتحدث ديودور عن نباتات وادى النيل فيقول[١٤] " ولأن النيل ينساب فى هدوء فهو يحمل كمية كبيرة من التربة ، وحيث أن المياه تتجمع فى

بحيرات راكده فى الاماكن المنخفضة . فان النباتات تنمو من مختلف الانواع . وإلى جانب الاعشاب تنمو الفواكه والخضروات بكثرة طبقا لطبيعة البلاد . فتوفر للفقير والمريض من السكان الغذاء دائما . وهى لاتوفر غذاء متنوعا فحسب بل هو جاهز للوفاء بكافة الاحتياجات الضرورية الأخرى للحياة . فان نبات اللوتس على سبيل المثال ينمو بكميات وفيرة . ويقوم المصريون باعداد خبز منه يستطيع أن يفى بحاجة الانسان الطبيعية . وأيضا ذلك النبات الذى يحصلون منه على مايطلق عليه البقوليات المصرية . وهناك أيضا العديد من الاشجار منها ذلك الذى يسمى بالفارسى . لأن الفرس أحضروه معهم من إثيوبيا عندما غزا قمبيز تلك البلاد . الذى يثمر فاكهة ذات حلاوة غير معهودة . وكذلك أشجار ينتج بعضها ومنها التوت بينما ينتج بعضها الآخر فاكهة تشبه التين . وحيث أن هذا النوع الأخير له ثمار طوال العام . فان الفقير يستطيع أن يجد مصدرا دائما يمكن أن يلبى حاجته . وتلك الفاكهة التى تسمى التوت يمكن قطفها عندما يأخذ النهر فى الانحسار . وبسبب حلاوتها الشديدة فانها تستخدم فى التحلية . كما يقوم المصريون باعداد شراب من الشعير له مذاق الخمر . ويستخدمون زيت الخروع للاضاءة . إذن فان الكثير من النباتات التى يمكن أن تمد الانسان بحاجته تنمو فى مصر بكميات وفيرة . إلا أن الحديث عنها جميعا يتطلب مجهودا جباراً.

أما عن الاسماك والكائنات النيلية فيحدثنا عنها ديودور قائلا(١٥) "أما بالنسبة للكائنات الحية فان النيل يحتوى على الكثير من العجائب.

إلا أن اثنين منهما يتفوقان على ما عداهما من العجائب أولهما التمساح أما الثانى فهو ذلك الذى يطلق عليه الفرس (أى فرس النهر) والتمساح هو الأضخم على الرغم من أنه يكون صغيرا فى البداية . لأن أنثاه تضع بيضا فى مثل حجم بيضة الأوزة . ولكن بعد أن تفقس البيضة فان الصغير يظل ينمو حتى يصل طوله إلى ١٦ ذراعا . وهو يعيش مدة تناهز عمر الانسان تقريبا . وليس له لسان . وجسد هذا الحيوان مزود بحماية طبيعية . ويوجد بجلده دروع صلبة . وفى فكيه العديد من الاسنان . إثنان منها عبارة عن أنياب أكبر من الآخرين . ويتغذى التمساح باللحم ، ليس فقط اللحم البشرى ولكن لحم أى حيوان يقترب من النهر . وأسنانه تحدث ندبات كبيرة كما يستخدم مخالبه فى التمزيق. وأيا كان الجزء الذى يمزقه فانه من الصعب أن يلتئم بعد ذلك . وفى العصور الباكره اعتاد المصريون صيد هذا الكائن عن طريق خطاف يتم إخفاؤه فى لحم الخنزير . ولكن بعد ذلك أخذوا فى اصطياده عن طريق شباك قوية مثلما يصطادون بعض أنواع الاسماك . وفى أحيان أخرى يتم الصيد من خلال القوارب باستخدام الحراب التى يوجهونها إلى رأس التمساح . وعدد هذه الكائنات فى النيل والمستنقعات يفوق الحصر؛ لأنها كثيرة التوالد . كما أن السكان نادرا ما يقتلونها . فقد جرت العادة لدى معظم المصريين على عبادة التمساح كاله . كما أنه ليست هناك منافع من الممكن أن يجنيها الأجانب من وراء صيد التمساح لأن لحمه غير قابل للأكل . إلا أنه فى مواجهة هذا التزايد الذى يمثل تهديدا للسكان فانه توجد ظاهرة إيجابية تتمثل فى وجود حيوان يسمى

النمس Ichneumon وهو فى حجم الكلب . وقد اعتاد أن يقوم بتدمير بيض التمساح لأن أنثى هذا الكائن تضعه على ضفتى النهر ، ومن المدهش أنه لايفعل ذلك من أجل إلتهام هذا البيض . أو الاستفادة منه بأى شكل . ولكن كأنه يؤدى خدمه خصصته لها الطبيعة وسخرته من أجل الانسان " ثم يحدثنا ديودور عن أمر آخر يتعلق بالتمساح فيقول(١٦) " وقد بقى أمامنا أمر آخر ينبغى أن نتحدث عنه . وهو عبادة التمساح . وهو أمر فشل الكثيرون فى شرحه . وهو كيف أن هذا الحيوان الذى يأكل لحم البشر أصبح موضعا للتكريم مثل الآلهة . وهو أمر سىء. ولكنهم أجابوا بأن الأمان الذى تتمتع به البلاد لايوفره لها النهر فقط. ولكن يوفره بدرجة أعظم التماسيح التى توجد فى النيل . ولهذا السبب فان اللصوص الذين تمتلىء بهم بلاد العرب وليبيا لايجرؤون على الاقتراب من النيل لأنهم يخافون التماسيح لأن عددها كبيراً " .

وما يزال ديودور يحدثنا عن الكائنات النيلية قائلاً(١٧) " أما ذلك الحيوان الذى يطلق عليه الفرس فان إرتفاعه لايقل عن خمسة أذرع وله أربعة أقدام . بها ظلف مشقوق مثل الثور . أما أنيابه فهى أكبر من تلك التى توجد لدى الخنزير البرى وهى ثلاثه فى كل جانب . ولهذا الكائن آذان وذيل وصوته يشبه صوت الفرس . أما جلده فهو أشد سمكاً من أى حيوان آخر . ولأنه حيوان نهرى وبرى فى آن واحد ، فانه يقضى النهار فى مياه النهر حيث يغوص إلى الأعماق . وفى الليل يطوف باحثا عن القمح والتبن لكى يتغذى . ولو قدر أن يكون هذا الحيوان كثير

التوالد ويلد فى كل عام لدمر حقول مصر . ويقوم الرجال بصيد هذا الحيوان من خلال عمل جماعى عن طريق ضربه بالرماح الحديدية . وعندما يظهر فانهم يندفعون تجاهه بقواربهم ويتجمعون حوله ويأخذون فى إصابته بجسده عن طريق أدوات لها أشواك حديدية . ثم يربطون أطراف الحيوان بحبل ويتركونه حتى يموت من نزيف الدماء . والواقع أن لحم هذا الحيوان سيء ومن الصعب هضمه . كما أن أجزاءه الداخلية غير صالحه للأكل " .

وبعد أن يفرغ ديودور من ذكر فرس النهر يتناول الحديث عن أسماك النيل فيقول[١٨] " وإلى جانب هذه الكائنات السالفة الذكر يوجد فى النيل أنواع مختلفة من الأسماك بأعداد لايمكن تصورها . وهى تقدم لأهل البلاد غذاء وفيرامن الاسماك الطازجة ، فضلا عن الاسماك التى يمكن حفظها عن طريق التمليح " . وبعد أن يعدد ديودور خيرات النيل يختم حديثه بالقول بأن النيل يتفوق على كل أنهار العالم فى خيره على البشرية .

إسترابون

يقول بول[١٩] Ball فى كتابه عن مصر فى كتابات الجغرافيين القدامى ، إن الأجزاء المتبقية من أعمال إراتوسثينز Eratosthenes والتى وصلت إلينا عن طريق إسترابون وبشكل خاص تلك التى تتعلق بنهر النيل يتضح منها أن إراتوسثينز كانت لديه معلومات طيبة عن الأجزاء العليا للنيل . وهى أفضل من تلك التى ذكرها هيرودوت أو من

جاء بعده حتى بطلميوس . ولنستمع إلى كلمات إسترابون[٢٠] عن مجرى النيل والتى يردد فيها أفكار إراتوسثينز " فهو يقول أن النيل يبعد عن البحر الأحمر من ناحية الغرب مسافة ألف وتسعمائة ستاد وأنه يشبه الحرف الهجائى N مقلوبا . ذلك بأنه بعد أن يجرى من مروى ناحية الشمال حوالى ٢٧٠٠ ستاد يرتد ثانية نحو الجنوب والغروب الشتوى حوالى ٣٧٠٠ ستاد وأنه بعد أن يوشك أن يواجه المناطق المحيطة بمروى ويندفع كثيرا فى الناحية الليبية يرتد ثانية وينساب نحو الشمال مسافة ٥٣٠٠ ستاد إلى الشلال الكبير منحرفاً قليلاً نحو الشرق ثم يجرى مسافة ١٢٠٠ استاد إلى الشلال الصغير بالقرب من سينى (أسوان) ثم يجرى مسافه ٥٣٠٠ ستاد أخرى إلى البحر . ويصب فى النيل نهران ينسابان من بعض البحيرات فى الناحية الشرقية ويحيطان بمروى وهى جزيرة كبيرة أحدهما يسمى استابوراس Astaboras وهو الذى ينساب على الجانب الشرقى (نهر عطبره) ويسمى الآخر أستابوس[٢١] As-tabous . ويسميه البعض أستاسوباس (النيل الأزرق) ويذهب البعض إلى أن الإستابوس نهر آخر (يقصد نهر النيل الازرق) ينساب من بعض البحيرات من الجنوب وأن هذا النهر هو الذى يكون الجزء المستقيم تقريبا من بنية النيل . وأن الأمطار الصيفية هى التى تزوده بالماء " .

وعن مروى يقول إسترابون[٢٢] " وتقع مروى إلى الشمال من ملتقى الاستابوراس والنيل بمسافة ٧٠٠ ستاد . وهى مدينة تحمل إسم الجزيرة وتوجد جزيرة أخرى أعلى مروى يستحوذ عليها الفارون من المصريين

الذين ثاروا فى عهد إبسماتيك ويسمون سمبرتيون[٢٣] Simbritae . وهى كلمة تعنى الأجانب . وتحكم هؤلاء إمرأة وهم خاضعون لحكام مروى" ثم يتحدث فى موضع آخر عن سبب تسمية هذه الجزيرة بمروى فيقول[٢٤]" هذا إلى أن قمبيز بعد أن استولى على مصر تقدم مع المصريين حتى مروى . وقد أطلق هذا الإسم على كل من الجزيرة والمدينة لأن أخته مروى (وينهب البعض إلى أنها زوجه) قد ماتت هناك " .

وقد استحوذت مروى على قدر كبير من إهتمام إسترابون فهو لا يكتفى بما ذكره بل يستطرد فى ذكر معلومات أخرى عنها فيقول[٢٥] "ومروى هى أكبر مقر ملكى عندهم . وهى مدينة بنفس اسم الجزيرة . ويقال إن الجزيرة كالدرع المستطيلة فى الشكل . أما حجمها فقد قيل على سبيل المبالغة فيما نظن أنه حوالى ٣٠٠٠ ستاد طولا وألف ستاد عرضا . وفى الجزيرة جبال شاهقة وأحراش كثيفة . ويسكنها الرحل والصيادون والزراع وبها مناجم النحاس والحديد والذهب وأنواع مختلفة من الأحجار الكريمة . وتحد الجزيرة من الناحية الليبية بكثبان رملية عظيمة . ومن الناحية العربية بسلسلة متصلة من الصخور . ومن عل من ناحية الجنوب بملتقى الأنهار - نهر الاستابوراس والأستابوس (والاستاسوباس) . ومن ناحية الشمال بمجرى النيل التالى الذى يمتد إلى مصر فى انحناءاته التى ذكرتها آنفا " .

ثم يقول عن منازل مَروى ومنتجاتها " وتتخذ البيوت فى المدن من أعجاز النخل المشقوقة بعد ربطها معا ، أو من اللبنات ، وهم

يستخرجون الملح كما يفعل الاعراب . وينبت فيها بكثرة من النباتات النخيل واللبخ . والأبنوس والخرنوب . وعندهم من الصيد الفيله والأسود والنمور وهناك أيضا الثعابين محاربة الفيلة وحيوانات مفترسة أخرى كثيرة : فالحيوانات تفر من المناطق الاكثر حرارة وجفافا إلى المناطق المائية المستنقعية " .

وثمة جزيرة أخرى يحدثنا عنها استرابون فيقول[٢٦] "وتقع فوق مروى بسيبو وهي بحيرة واسعة تضم جزيرة آهلة بالسكان على وجه مرضى . وحيث أن الليبيين يسكنون الجانب الغربى للنيل ، ويسكن الاثيوبيون الجانب المقابل ، فيحدث أن تكون السيطرة على الجزر وعلى ضفتى النهر مناوبة بينهم . فالفريق منهما ينسحب ويخلى السبيل للفريق والآخر الذى يكون حينئذ أكثر غلبة " .

وعن ديانة أهل مروى وعقائدهم يقول إسترابون[٢٧] "ويقدس أهل مروى هرقل وبان وإيزيس بالإضافة إلى إله بربرى آخر . وهم يتطلبون البر بالقسم بالموتى ، ويعظمون هذا القسم أكثر من سائر الأشياء المقدسه كلها . وينصبون ملوكا أولئك الذين يمتازون بالجمال أو بالبراعة فى تربية الماشية أو بالثراء . ولقد كان للكهنة فى مروى المكانة العليا فى العصر القديم ، إذ كانوا يسيطرون حتى على الملك وأحيانا كانوا ينفذون إليه الرسول حتى بان يموت وينصبون ملكا غيره مكانه . وأخيرا كسر أحد الملوك هذا التقليد بأن سار مع رجال مسلحين إلى المعبد حيث يوجد الهيكل الذهبى وقتل كل الكهنة ".

ثم يعرج استرابون الى الحديث عن شعوب أخرى تسكن وادى النيل فيقول " ويسكن الأجزاء السفلى على جانبى مروى على طول النيل من ناحية البحر الأحمر الميجاباريون والبلميون (٢٨) . الخاضعون للأثيوبيين والمجاورون للمصريين . ويسكن التروجلوديتيون المواجهون لمروى على مسيرة ١٠ أو ١٢ إستاد من النيل . أما الأجزاء الواقعه على الضفة اليسرى من مجرى النيل والواقعة فى ليبيا فيسكنها النوبيون وهم قبيلة كبيرة ينتشرون من مروى إلى منحنيات النيل . وهم ليسوا خاضعين للأثيوبيين ولكنهم مقسمون إلى ممالك منفصلة " .

ثم يواصل استرابون وصفه(٢٩) للمناطق التى تقع على ضفاف النيل "ولكن ينبغى أن نتحدث بشىء من الإسهاب أولا عن البقاع المجاورة لمصر حتى ننتقل من الأماكن المعروفة نوعا إلى التى تليها بالترتيب لأن النيل يؤثر بعض تأثيرات مشتركة فى هذا الإقليم وفى الإقليم الذى يتاخمه ويقع جنوبه . أى بلاد الأثيوبيين من حيث أنه يرويها فى ارتفاعه. ويخلف منها صالحا للسكنى ذلك الجزء الذى يغمر أثناء الفيضان فقط . ويخترق فحسب كل الأجزاء العاليه والمرتفعة ويتركها على الجانبين غير آهلة بسبب عدم وجود المياه . ولكن النيل لايخترق إثيوبيه كلها لا وحده ولا فى خط مستقيم ولايخترق الأجزاء الآهله جدا . ولكنه وحده يخترق مصر كلها فى خط مستقيم . بادئا من الشلال الصغير جنوبى سَينى وإليفنتينى وهى الحدود بين مصر وإثيوبية إلى مصباته فى البحر . والواقع أن الاثيوبيين يحيون فى الأكثر حياة الرحل

الخشنة لشدة قحولة البلاد ولعدم اعتدال مناخها ولبعدها عنا والأمر بالنسبة للمصريين على العكس من ذلك من حيث جميع الاعتبارات ، لأنهم كانوا يحيون منذ البدء حياةً مدنية مهذبة " .

ويعود استرابون في مواضع لاحقة إلى الحديث[٣٠] عن الاثيوبيين "لقد ذكرت فيما تقدم الشيء الكثير عن الاثيوبيين ؛ حتى أن وصف بلادهم قد يضم أيضا إلى وصف مصر . وعلى العموم فان أطراف المعمورة التي تقع في المنطقة القاسية غير المسكونة بسبب حرها أو بردها لابد وأن تكون فاسدة وأقل صلاحية من المنطقة المعتدله . وهذا ظاهر من حياة سكانها وافتقادهم إلى مقومات الحياة الانسانية . فهم في الواقع يحيون حياة خشنة وهم في الاعم عراة رحل . وماشيتهم الضان والماعز والبقر ضئيلة الحجم . وكلابهم ضامرة ولو أنها شكسة مقاتلة . ولعل صغر حجم السكان كان مصدر توهم الناس للاقزام واختراعها ؛ لأن أحدا من أهل الثقة لم يقل أنه رآهم رأى العين . ويعيش الاثيوبيون على الذرة والشعير . ويستخرجون منها شرابا . وهم يستعملون بدلا من زيت الزيتون الزبد والدهن وليس عندهم من أشجار الفاكهة غير قليل من النخيل في الحدائق الملكية . ويتخذ بعضهم الحشائش خبزا . وكذلك الأعشاب الرقيقة والبشنين وجذور البوص . وهم يتعاطون اللحوم والدم واللبن والجبن . وهم يعظمون كآلهة ملوكهم الذين يبقون في الغالب في بيوتهم ".

ويتحدث ديودور عن عقائد الأثيوبيين قائلاً "وهم يعتقدون أن الإله هو ذلك الكائن الخالد الذى هو مبدأ كل شىء . . . . ولكنهم على الاغلب يعتقدون أن محسنيهم ونبلاءهم آلهة ويرون أن الملوك من بين هؤلاء مخلصون عامون . وحراس للناس كافة وأنهم متفردون كأنهم آلهة. بالنسبة للذين نالوا منهم حسن الصنيع على وجه الخصوص . ويعتبر البعض من يسكنون بالقرب من المنطقة الشديدة الحرارة كفارا . لأنهم فيما يقولون يكرهون الشمس ويلعنونها عندما يرونها طالعة . باعتبار أنها تلومهم وتشن الحرب عليهم . ويهربون منها إلى المستنقعات " أما عن الأسلحة التى يقاتل بها الأثيوبيون فيقول إسترابون(٣١) " والاثيوبيون يستعملون النشاب ذات الأربع أذرع الخشبية التى صقلتها النار . وهم يسلحون نساءهم . وأكثرهن يتخذون حلقًا نحاسيا فى شفاتهن ، وهم يلبسون جلود الماشية ، إذ لا صوف عندهم لأن أغنامهم لها وبر كوبر الماعز . وبعضهم عار والبعض الآخر يتمنطق بقطعة صغيرة من جلد الشاه أو من الوبر المجدول جدلا حسناً ".

وعن النباتات والكائنات النيلية يحدثنا إسترابون قائلاً " وينبغى أن أضيف إلى وصف مصر ذكر كل ما يعد مصرياً قحاً مثل البقل الذى يسمونه مصريا . والذى تتخذ منه الكؤوس . والبردى ذلك أنه لايوجد إلا هنا وفى الهند فحسب . أما اللبخ فيوجد هنا فقط وفى إثيوبية وهى شجرة ضخمة لها ثمرة حلوة كبيرة . والسيكافيوس (شجرة الجميز) وهى تخرج الثمرة المسماة سيكومورروس لأنها تشبه السيكوم (التين).

ولكن لاقيمة لها من حيث المذاق ، وينبت أيضا الكورسيون . ويشبه الفلفل بعض الشيء ولكنه أكبر منه قليلاً ".

أما عن أسماك النيل فيقول[٣٢] " والأسماك في النيل كثيرة مختلفة الأنواع ولها صفات أصيلة خاصة . أما أشهرها فالقنومة والشبوط والقشر واللبيس والفرخ النيلي وحمار البحر والابرميس ويسمونه أيضا الفاجروس . وكذلك القرموط والقمر والبلم والبوري وقنديل البحر والفوسا والبوس . أما القواقع فمنها محار كبير يصدر عنه صوت مثل نقيق الضفادع " .

وعن الاسماك أيضا يقول " إنه بسبب التماسيح لاتقوم سمكة واحدة من البحر إلى النيل إلا البوري والبلم والدخس (الدرفيل) أما الدخس فلأنه أقوى من التمساح . وأما البوري فلأن الخنازير تصاحبها على الشاطئ لتشابه ما في طباعهما . والتماسيح تتجنب الخنازير لأنها مستديرة ولها في رؤوسها فقار يكمن فيها الخطر على التماسيح . والبوري تسبح مصعدة في النهر في الربيع حاملة بيضها ولكنها قبل غروب الدب الاكبر بقليل تعود أدراجها لتكون أسرابها حتى إنها لتصاد في أسرابها بالحواجز الشبكية " .

وقبل أن نورد الجزء الختامي من وصف إسترابون لمجرى النيل فاننا نسوق ما جاء عنده عن الشلال الأول فقد ذكر[٣٣] وإلى الشمال بقليل يوجد الشلال الصغير حيث يعرض أصحاب المراكب على الحكام نوعا من الألعاب . والشلال في منتصف النهر وهو كحاجب صخري أعلاه مسطح

حتى إنه ليستقبل مياه النهر وينتهى بمسقط تهوى عليه المياه وعلى جانبيه من ناحية الشاطىء يوجد مجرى من الممكن دائما الإبحار فى النهر حتى تصعيدا . وعلى ذلك فان الملاحين يصعدون فى النهر عن طريق هذا المجرى ، ثم ينكفئون نحو الشلال فيجرفون هم ومراكبهم دون أذى . وعلى مسافة قصيرة شمال الشلال تقع فيلاى . وهى موطن مشترك بين الاثيوبيين والمصريين . وهى مبنية مثل إلفنتينى ومساوية لها فى الحجم وتضم معابدمصريه " .

وأخيرا نختم حديثنا عن إسترابون وما جاء لديه من وصف لمجرى النيل بالاشارة إلى ما ورد لديه عن هذا المجرى فى الجزء الذى يقع داخل مصر . فقد جاء[٣٤] عنده " وجملة القول أن مصر تتألف من أراضى النهر فحسب . وهى آخر وادى النهر على الجانبين . الذى يبدأ عند حدود إثيوبيه ويمتد إلى رأس الدلتا . ويشغل حيزا آهلا باستمرار عرضه ٣٠٠ ستاد . وعلى ذلك فالوادى حين يجف يشبه شريطا ممتدا باستثناء إنحناءاته الكبرى . والذى يحدد شكل الوادى هذا الذى أتحدث عنه ومنظر البلاد كلها هى الجبال التى تمتد على الجانبين من المناطق التى حول سينى إلى البحر المصرى . لأنه بقدر ما تكون هذه الجبال متقاربة أو متباعدة عن بعضها بقدر ما يكون وادى النهر ضيقا أو واسعا ويعطى البقاع المأهوله أشكالها المختلفة . ولكن الأرض فيما وراء هذه الجبال غير صالحة للسكنى إلى حد بعيد " .

بطلميوس

وصف بطليموس مجرى النيل وصفا دقيقا حتى مدينة مروى ولكنه جعل نقطة إتصال النيل الأبيض بالنيل الازرق عند خط عرض ١٣ بدلا من ١٠ , ١٥ وهى غلطة يسيره لكاتب من هذا الزمان (٣٥). وقد وصف بطليموس نهر عطبرة والنيلين الأزرق والأبيض لكن معلوماته عن المنطقة الواقعة شمال الخرطوم كانت بالطبع أكثر مما علمه عن المنطقه التى تقع فى جنوبها .

وجملة القول أن الكتاب الذين أوردنا وصفهم لمجرى النيل قد اعتمدوا على السماع . فقد اعترف هيرودوت بأنه لم يتجاوز إلفنتين أما ديودور فعلى الرغم من زيارته لمصر فى عام ٥٩ ق . م فليس لدينا أخبار عن قيامه بزيارة الاماكن التى تقع جنوبها . أما إسترابون فقد وصل حتى جزيرة فيله فى صحبة صديقه أيليوس جاللوس والى مصر . وفيما عدا وصفه للشلال الأول الذى رآه رأى العيان فان ما جاء عنده عن وصف لمجرى النيل هو ترديد ما سمعه .

ويمكننا أن نلاحظ أوجه التشابه فى كثير مما ورد لدى هؤلاء الكتاب فعلى سبيل المثال اتفق كل من ديودور وإسترابون على اعتبار أن مروى جزيرة فى النيل ؛ على الرغم من أنها ليست كذلك . وبينما ذكر إسترابون أن أهل مروى يقدسون هرقل ديان وريزيس بالاضافة إلى إله آخر. فان هيرودوت يقول أن أهل مروى لايعبدون سوى ديونيسوس وزيوس (آمون) .

وقد ذكر إسترابون حوالى ١٤ نوعا من الأسماك بينما تذكر المصادر الأخرى أنه كان يوجد فى النيل ٥٢ نوعا منها (٣٦). ومما هو جدير

بالذكر أن المصريين لم يكونوا يحبون بعض أنواع السمك ويشرح لنا بلوتارك السبب فى هذا الأمر قائلا[٣٧] " ولقد عثرت إيزيس على كل أعضاء أوزيريس إلا عضو التذكير فلم تجده إذ ألقى به على الفور فى النهر . فاكله السمك اللبيس والمرجان والكراكى ذلك الذى يصدف المصريون أشد الصدف عن أكله " .

ولعل من أكثر العجائب التى شدت اهتمام الإغريق من الكائنات النيلية التمساح وفرس النهر . وقد رأينا كيف أسهب ديودور فى الحديث عنها بشكل واضح . ولايفوتنا أن نورد ما ذكره بلوتارك عن التمساح إذ يقول[٣٨] " حقا لم يكرم التمساح دون أن يكون لتكريمه سبب معقول . بل يقال أنه صورة للإله . لأنه الحيوان الوحيد الذى لا لسان له . ولأن العقل الإلهى (أو الكلمة الالهيه) لاتحتاج إلى صوت . ويقولون إن التمساح هو الحيوان المائى الوحيد الذى يغطى عينيه غشاء رقيق شف يتدلى من جبهته حتى أن يستطيع أن يرى دون أن يرى . وهذه مزية الإله الأول أيضا " . وفى رأى ديودور أن التمساح هو الذى يحمى أرض مصر من اللصوص إذ أن ليبيا تمتلىء بهم : ولكنهم لايجرؤون على الاقتراب من مصر خوفا من التمساح . ولكنه لم يخبرنا على أية حال كيف يمكن لهذه التماسيح أن تتعرف على اللصوص حتى تخيفهم وتشكل مصدر خطر عليهم .

القنوات الصناعية

لايفوتنا ونحن نتحدث عن مجرى النيل كما جاء فى المصادر الاغريقية أن نتحدث أيضا عن القنوات الصناعية التى أقيمت من أجل

الربط بين النيل والبحر الأحمر وكذلك تلك التى أقيمت للربط بين مجرى النيل وبعض البحيرات الداخلية فى مصر .

قناة البحر الأحمر

ولعل فكرة الربط بين النيل والبحر الأحمر قد حظيت باهتمام حكام مصر على مر العصور [٣٩]. وكانت توجد قناة قديمة تم حفرها فى عصر الدولة الحديثة على الأرجح ، ولكنها أهملت حتى إنطمرت [٤٠]. ويحدثنا هيرودوت عن إحياء هذه القناة فى عصر الاسرة ٢٦ على يد الفرعون نخاو قائلا [٤١]" وأنجب إبسماتيك ولدا هو نيخوس . حكم مصر وهو أول من شرع فى حفر القناة التى تؤدى إلى بحر أروترى ، والتى أتم حفرها عن بعده دارا الفارسى وطول القناة يساوى إبحار أربعة أيام . وقد حفرت عريضه ؛ حتى أن سفينتين من ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف تمخرانها جنب إلى جنب . ويؤدى إليها بالماء منصرفا من مكان فوق مدينة يوباسطس بقليل . بالقرب من المدينة العربية باتوموس[٤٢] وتنتهى إلى بحر أروترى (البحر الأحمر) حفر منها الجزء الذى فى السهل المصرى من جانب بلاد العرب . ويتصل بهذا الجانب إلى الشمال من السهل . سلسلة الجبال التى تواجه ممفيس والتى توجد بها المحاجر وعلى ذلك فالقناة تجرى بحذاء أسفل الجبل . ممتدة من الغرب إلى الشرق ثم تسير فى منحدرات متجهة من الجبل نحو الجنوب ونحو مهب الريح الجنوبية حتى تبلغ الخليج العربى (خليج السويس) . وهناك حيث يوجد أصغر طريق وأقصره للذهاب من البحر الشمالى (أى البحر المتوسط) إلى البحر الجنوبى - وهذا نفسه يسمى بحر " أروترى " - من جبل كاسيوس . الحد الفاصل بين مصر وسورية .

تبلغ المسافة من هذا المكان حتى الخليج العربى (خليج السويس) ألف إستاد هذا هو أقصر طريق . أما القناة فهى أطول من ذلك بكثير بقدر ما هى أكثر تعرجا . وقد هلك من المصريين أثناء عملهم فيها فى عهد نيخوس مئة وعشرون ألف عامل . وتوقف نيخوس فى منتصف عملية الحفر لأن نبوءة عاقته بقولها أنه يعمل لصالح البربر[٤٣] . والمصريون يسمون كل من لايتكلم لغتهم بربرا "[٤٤].

أما ديودور فقد حدثنا عن القناة التى تربط ما بين البحر الأحمر والنيل بقوله[٤٥] " وتخرج من الفرع البلوزى قناة صناعية إلى الخليج العربى والبحر الأحمر ، وأول من بدأ العمل فيها هو نخاو بن إبسماتيك. وبعده داريوس الفارسى[٤٦] الذى واصل العمل فيها . ولكنها تركت دون أن تكتمل لأن البعض أخبروه بأنه سيكون مسئولا عن غرق مصر لأن مستوى البحر الاحمر أعلى من مستوى مصر . وفيما بعد قام بطلميوس الثانى باستكمالها . وفى مكان مناسب جدا تم عمل هويس يمكن التحكم فيه بدقة . وقد أطلق على هذه القناة رسم قناة بطلميوس . وعند نهايتها أقيمت مدينة تسمى مدينة أرسينوى " .

كما تحدث إسترابون عن هذه القناة قائلا[٤٧] " وهناك قناة أخرى تصب فى البحر الأحمر والخليج العربى بالقرب من مدينة أرسينوى (السويس تقريبا) التى يسميها البعض كليوباتريس ، وهى تنساب خلال البحيرات التى تسمى المرة . وقد كانت من قبل مرة ، ولكنها حينما حفرت القناة المذكورة تغيرت بتأثير النهر . وهى الآن غاصة بالسمك . ومليئة بالطيور المائية . ولقد حفر القناة فى أول الأمر سيسوستريس قبل الحرب الطروادية . ولكن يذهب البعض إلى أن حافرها

كان ابن إبسماتيك الذى بدأ العمل فقط ثم فارق الحياة . وفيما بعد حفرها دارا الأول الذى استأنف العمل فى حفر القناة . ولكنه هو أيضا بعد أن إقتنع برأى ضال ترك العمل وهو على وشك الانتهاء . ذلك أنه اقتنع بأن منسوب البحر الأحمر أعلى من سطح أرض مصر . وأنه لوشق البرزخ الذى بينهما لغمرت مياه البحر مصر . ومهما يكن من شىء فقد إحتفر الملوك البطالمة القناة . وجعلوا المضيق مغلقا . حتى أنهم كانوا كلما شاءوا يبحرون إلى عرض البحر ويعودون بالتالى بغير عائق ..... وتبدأ القناة التى تصب فى البحر الأحمر من قرية فاقوسه (صفط الحنه) التى تتاخمها قرية فيلو . وعرض القناة مائة ذراع ، وعمقها كاف لتعويم مركب ذات حموله كبيرة " .

وإذا ما حاولنا البحث عن أوجه الاختلاف والإتقان فى روايات هؤلاء الكتاب عن قناة النيل - البحر الأحمر فاننا نلاحظ ما يلى : اتفق ديودور مع هيرودوت فى أن أول من بدأ العمل فى حفر هذه القناة هو نخاو أما استرابون فقد ذكر أن أول من بدأ العمل فيها هو سيزوستريس.وإن كان قد أشار إلى قول البعض بأن ابن إبسماتيك هو الذى حفرها . ولكنهم اتفقوا جميعا على أن الملك الفارس دارا هو الذى أكملها .

ومما هو جدير أن الملك دارا اهتم بحفر هذه القناة فى إطار رغبته فى زيادة القوة البحرية الفارسية . فى إطار الصراع المحتدم بين الفرس والإغريق [٤٨]. وقد جاء فى أحد النقوش [٤٩]قول دارا مفاخرا " إننى فارسى . من بلاد الفرس . قمت بقهر مصر . وأمرت بحفر هذه القناة من النيل الذى ينساب فى مصر إلى البحر الذى يأتى من بلاد فارس . ولأن

هذه القناة حفرت كما أمرت فان السفن تمر بمصر من خلالها إلى فارس لأن هذه هى إرادتى " .

وبينما ذكر هيرودوت أن السبب فى توقف العمل فى حفر القناة فى عصر الملك دارا كان راجعا إلى تلك النبوءة التى ذكرت أن الأجانب فقط هم المستفيدون من حفر هذه القناة . فان ديودور وإسترابون ذكرا أن السبب فى توقف العمل فى حفر هذه القناة فى عهد دارا يرجع إلى تلك الفكرة التى رددها البعض على أسماع الملك ، والتى تقول بأن منسوب مياه البحر الأحمر أعلى من أرض مصر . وأن إزالة البرزخ الذى يفصل مصر عن البحر الأحمر من شأنه إغراق البلاد .

أما عن طول القناة فقد ذكر هيرودوت أن المرء يقطعها فى أربعة أيام. وأن عرضها يكفى لمرور سفينتين من السفن ذوات الصفوف الثلاثة من المجدفين متجاورتين . وبينما لم يحدثنا ديودور عن طول القناة وعرضها فان إسترابون يقول إن عرضها مائة ذراع وعمقها كاف لتعويم مراكب ذات حمولة كبيرة . وبالطبع فان هيرودوت لم يتحدث عن قناة بطلميوس لأنها حفرت فى عهد لاحق لأيامه . وهى القناة التى أشار إليها ديودور وقال أن بطلميوس الثانى هو الذى حفرها . وأنه أطلق عليها اسم قناة بطلميوس لهذا السبب ، أما استرابون فقد ذكر أن ملوك البطالمة (دون تحديد) حفروا القناة .

وقد وردت الإشارة الى هذه القناة فى لوحة بيثوم التى ترجع إلى عصر بطلميوس الثانى كما يلى[٥٠] " وفى السنه الثانية عشرة من توليه عرش الملك زار بطلميوس مقاطعة الخطاف الشرقية وهى المقاطعة الثامنة من مقاطعات الوجه القبلى . ومعه أخته وزوجه " أرسينوى الثانية " .

وكانت نتيجة هذه الزيارة أنه أنجز حفر القناة التى تربط بين البحرين الأحمر والأبيض وكذلك حصنها . وكان ذلك فى العام السادس عشر من حكمه " .

وعن مسار قناة النيل - البحر الاحمر فقد ذكر هيرودوت أنها تبدأ من مكان فوق مدينة بوباسطس بالقرب من مدينة تدعى باتوموس . وتنتهى عند البحر الاروترى (البحر الاحمر) . بينما ذكر ديودور أنها تخرج من الفرع البلوزى وتصب فى الخليج العربى (خليج السويس) . وربما كان إسترابون أكثر تحديدا إذ أنه ذكر أن القناة تخرج من النيل عند قرية تسمى فاقوسه . وتمر بالبحيرات المرة ثم تصب فى البحر الأحمر عند مدينة أرسينوى التى يطلق عليها البعض كيلوباتريس .

إلا أن الكاتب الرومانى بلينى ذكر رأيا يختلف عن سابقيه . فقد أشار إلى هذه القناة لم يتم الانتهاء من العمل فيها حتى أيامه (٢٣ - ٧٩ م) وأنه على الرغم من أن كل من سيزوستريس ودارا قد اعتزما حفر هذه القناة فان العمل فيها لم يجر إلا فى عهد لطلميوس الثانى وأن هذا الملك بعد أن شرع فى حفر القناة وأوصلها حتى البحيرات المرة فانه توقف عن المضى فى العمل فيها لأنه وجد أن مستوى البحر الاحمر أعلى من مستوى أرض مصر . وأن حفر هذه القناة من شأنه إغراق مصر . أو على الأقل فساد مياه النيل نتيجة لاختلاطها . بماء البحر . وثمة إختلاف آخرين بلينى والكتاب السابقين فى أمر هذه القناة وهو قوله أنها تنتهى فى البحر الأحمر عند ميناء داناى Danai ويرجح " بول "[٥١] أن هذا اسم آخر لميناء أرسينوى .

وإذا ما حاولنا استطلاع ما جاء عند بطلميوس بشأن قناة النيل -

البحر الاحمر . فاننا نلاحظ أنه أشار إليها باسم قناة تراجان Trajan .
ومن الواضح أن تلك القناة فى أيام بطلميوس (٩٠ - ١٦٨ م) كانت تخرج من المجرى الرئيسى للنيل عند نقطة بالقرب من بابليون (مصر القديمة) ثم تمر بمدينة هرؤنوبوليس Heroonopolis (تل المسخوطة). بدلا من الموقع القديم لخروجها وهو الفرع البلوزى عند بلدة فاقوسه (صفط الحنه) . كما كانت على أيام إسترابون . ويبدو أن هذا التغيير الذى تم فى عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م) كان الهدف منه ضمان تدفق المياه بشكل أكبر[٥٢] . وقد عاشت قناة تراجان مدة أطول من سابقاتها لأنها لم تجدد إلا فى العصر الإسلامى[٥٣].

قناة الفيوم

وعلى الرغم من أن قناة النيل - البحر الأحمر كانت تعد أهم القنوات التى تخرج من النيل إلا أنها لم تكن الوحيدة فهناك قنوات أخرى جاء ذكرها عند الكتاب الإغريق . فقد حدثنا هيرودوت عن البحيرة الصناعية التى حفرها الملك موريس[٥٤] Moeris من أجل إستيعاب مياه النيل الزائدة فى وقت الفيضان والتى أثارت إعجاب هذا المؤرخ قائلا [٥٥]" ومع أن اللابيرنث على هذه الدرجة من العظمة لكن البحيرة المسماة ببحيرة موريس . والتى بنى اللابيرنث بالقرب منها تثير عجبا أشد، فطول محيطها ٣٦٠٠ ستاد أو ستون إسخينوس . وهذا مدى يساوى إمتداد مصر نفسها على ساحل البحر . وتمتد البحيرة نحو الشمال والجنوب . وغورها فى أعمق الجهات خمسون باعا . وهى ذاتها تشير إلى أنها صناعية . صورتها السواعد إذ يقوم فى وسطها هرمان يرتفع كل منهما فوق الماء خمسين باعا وما بنى تحت الماء منهما يعادل هذا

القدر ويوجد فوق كل منهما تمثال ضخم من الحجر يجلس على عرش . .
. . . والماء الذى بالبحيرة ليس فيها بالطبيعة (فالاقاليم فى هذه المنطقة شديد الجفاف) بل يصل إليها من النيل بواسطة قناه وينساب الماء من النيل إلى البحيرة مدة ستة أشهر ثم يرجع منها إلى النيل ثانية مدة ستة أشهر " .

والقناة التى يشير إليها هيرودوت هى التى تعرف الآن ببحر يوسف حيث تخرج من النيل عند ديروط وتجرى حتى واحة الفيوم . وأغلب الظن أن القناة القديمة كانت أوسع من قناة اليوم .

وقد حدثنا ديودور(٥٦) عن بحيرة موريس والقناة قائلا " وحيث أن النيل لايرتفع إلى مستوى محدد له كل عام . كما أن رخاء البلاد يعتمد على انتظام مياه الفيضان . لذلك فقد قام بحفر بحيرة من أجل استيعاب المياه الزائدة . وذلك حتى لايحدث فيضان جارف عند زيادة كمية المياه يؤدى إلى تكوين البرك والمستنقعات . وحتى لايحدث تلف للمحاصيل من جراء نقص المياه فى حالة عدم إرتفاع النهر إلى الحد المطلوب . وقام أيضا بشق قناة طولها ٨٠ إستاد أما عرضها فهو ثلاث بليثرا(٥٧). إبتداء من النهر وحتى البحيرة . ومن خلال هذه القناة تنساب المياه من النهر إلى البحيرة . وأحيانا يحدث العكس . وقد تمكن من تزويد الحقول بكميات وفيرة من المياه من خلال فتح وإغلاق مدخل القناة بهذه الحيلة البارعه . وهى مكلفة قليلا . لأن تكلفة فتح أو إغلاق القناة لاتقل عن خمسين ثالنت . وقد استمرت هذه البحيرة فى الوفاء بحاجة المصريين حتى يومنا هذا ".

وقد جاء حديث إسترابون عن بحيرة موريس والقناة التى تربطها بالنيل فى إطار وصفه لمديرية أرسينوى (الفيوم) وقد ذكر ما يلى [٥٨]" وهى تشمل كذلك البحيرة التى تسمى بحيرة موريس . وهى فى إتساعها بحر . ولون مياهها كلون البحر ، وتبدو وشواطئها شبيهة بشواطىء البحر " . ثم يواصل وصفه للبحيرة . فى موضع لاحق [٥٩]" بحيرة مويوريس كافية لضخامتها وعمقها أن تستوعب المياه الفائضة عند ارتفاع النيل دون أن تفيض على البقاع المسكونة والمزروعة ثم تعود المياه الزائدة إلى النهر عند انخفاضه عن طريق القناة نفسها عند كلا مصبيها . والبحيرة كافية مع القناة لأن تختزن الماء الباقى للرى . وهذه هى خصائصها الطبيعية . وتقوم على مصبى القناة كليهما أهوسة يضبط المهندسون بواسطتها المياه الداخلة والخارجة " .

وهكذا فقد اتفق هؤلاء الكتاب على ضخامة البحيرة . فذكر هيرودوت طولها وعرضها بالتحديد . مؤكداً أن طولها يساوى امتداد مصر كلها على شواطىء البحر وأن عمقها خمسون باعا . أما إسترابون فقد شبه هذه البحيرة لضخامتها بالبحر . وقال إنها عميقة بدرجة كافية لإستيعاب مياه الفيضان الزائدة . أما عن القناة التى تنساب من النيل إلى البحيرة فقد أشار إليها هيرودوت فقط ولكن ديودور ذكر طولها وعرضها بالتحديد . ومما هو جدير بالملاحظة أن كلا من ديودور وإسترابون ذكر أنه كان يتم التحكم فى المياه التى تنساب فى القناة عن طريق أهوسة . وهو الأمر الذى لم يشر إليه هيردودت . وإذا ما رجعنا إلى حديثنا عن قناة البحر الاحمر فاننا نلاحظ إن هيرودوت لم يشر أيضا إلى وجود هويس فى مدخل هذه القناة بينما أشار كل من ديودور

واسترابون إلى وجود هويس فى مدخل هذه القناة يمكن التحكم من خلاله فى انسياب المياه خلال القناة . فهل يمكن أن نغزو ذلك إلى تطور هندسة الرى فى مصرخلال عصر البطالمة ؟

وثمة أمر آخر جدير بالملاحظة وهو أن إسترابون يتحدث عن وجود مصبين لقناة الفيوم بينما لم يرد عند هيرودوت وديودور إلا ذكر لمصب واحد . فهل جاء عمل مصب جديد للقناة فى بحيرة موريس فى إطار الجهود التى قام بها الامبراطور أوغسطس من أجل إصلاح الرى فى مصر . وهى الجهود التى أشار إليها إسترابون بشكل غير مباشر حين قال(٦٠)" ومهما يكن من شىء فانه فى العهد السابق لبترونيوس Petronius كان المحصول أكبر ما يكون والفيضان أعلى ما يبلغ إذا إرتفع النيل ١٤ ذراعا ويكون القحط إذا ما ارتفع ثمان أذرع فقط . ولكن عندما سجل مقياس النيل إثنى عشر ذراعا فحسب أثناء حكمه للبلاد . كان المحصول أكبر ما يكون وسجل المقياس مرة ثمانية أذرع فقط ولكن أحداً لم يشعر بالقحط " وبترونيوس الذى يذكره إسترابون فى هذا النص هو ثالث الولاة الرومان على مصر فى عصر أوغسطس . وكان واليا فى الفترة ما بين عام ٢٥ - ٢١ ق . م . وكان الإمبراطور أوغسطس قد أستخدم الجنود لإصلاح نظام الرى فى مصر (٦١).

قناة الاسكندرية

بقى أن نتحدث عن القناة التى كانت تخرج من الفرع الكانوبى للنيل وتصب فى بحيرة مريوط وكانت تلك القناة تخرج من النيل عند سخيديا Schēdia (قرية النشو البحرى بمركز كفر الدوار) وتسير فى نفس طريق

ترعة المحمودية من أجل تغذية الاسكندرية بالمياه العذبة[٦٢] ومصدرنا الرئيسى هو إسترابون حيث نلاحظ أنه فى إحد المواضع يتحدث عن قنوات (جمع) إذ يقول[٦٣] عن بحيرة مريوط " ويملأ النيل هذه البحيرة بواسطة قنوات عديدة من أعلى ومن الجوانب " إلا أنه فى موضع آخر يشير إلى وجود قناة واحدة قائلاً [٦٤]" وعلى يمين الخارج من البوابه الكانوبية توجد القناة التى تمتد من البحيرة إلى كانوبوس . والذى يبحر بطريق هذه القناة لايصل إلى سخيديا فحسب بل إلى النهر العظيم وإلى كانوبوس (أبوقير) كذلك . ولكنه يصل أولا إلى إليوسيس Elcusis وهى ضاحية قريبة من الاسكندرية ومن نيكوبوليس . واقعة على الفرع الكانوبى نفسه وبها منازل وشرفات للذين يبغون العبث من الرجال والنساء وهى مقدمة الحياة الكانوبية والفجور هناك فاذا تقدم المرء قليلاً من إليوسيس إلى اليمين توجد القناة التى تؤدى إلى سخيديا . وهذه تبعد عن الإسكندرية بمقدار أربعة سخوينوس وبها مرسى المراكب ذات الغرف . التى يبحر عليها الحكام مصعدين إلى المنطقة العليا وهناك أيضا محطة للمكوس على البضائع الهابضة إليها من أعلا والقادمة من أسفل . ومن أجل ذلك أقيمت قنطرة (سخيديا) على النهر ومنها أشتق اسم المدينة . وفيما يلى القناة التى تؤدى سخيديا تكون المرحلة التالية إلى كانوبوس " .

الهوامش

١- Herodot . II 29

٢- أحد أنهار فريجيا بآسيا الصغرى إنظر :

Cary , M . op . cit . p . 159 .

٣- إسخينوس من المقاييس التى إستخدمها الاغريق ويقدر عادة بنحو ستين ستاديا أى حوالى ٨٨ , ١١ ك .م كما جاء عند هيرودوت إلا أنه يقدر بنسب أخرى فى بعض الأحيان إنظر : أحمد بدوى المرجع السابق ص٧٥ .

٤- مكان يقع جنوب أسوان . وقد إختلف المؤرخون فى تحديد موقعه فبعضهم يجعله على الشاطىء الشرقى والآخرون يجعلونه على الشاطىء الغربى . وفريق يرى أنه جزيرة . وربما يكون هيرودوت قد خلط بين فيله وتاخومبسو . إنظر أحمد بدوى المرجع السابق ص ١٠٦ .

٥- يقصد هيرودوت الاله آمون الذى شبهه الاغريق بالاله زيوس كبير آلهتهم . حيث هاجر إلى هناك مجموعة من الكهنة المصريين وأقاموا هذه العبادة . أما ديونيسوس فهو أوزوريس أنظر :

أحمد بدوى . المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨

٦- Herodot , II 31 .

٧- Toser , H . F , op cit p . 39 .

٨- Herodot . II 34 .

٩- Diodorus . I 32 . 2 - 6 .

١٠- Diodorus . I 32 . 7 - 11

١١- عن الشلالات يقول محمد عوض محمد " وفى تسميتنا لهذه المندفعات بالشلالات شىء من التجاوز . وكذلك فى تسميتها بالانجليزية Cataract إذ

ليس هناك مساقط للماء في موضع ما وإنما هي كما سنرى مواضع من النهر يشتد فيها انحدار مجراه وتعترضه في بعضها صخور وجنادل "

والشلالات في النيل كما يلي :

- الشلال السادس . على بعد ٦٠ ك . م من الخرطوم .
- الشلال الخامس . على بعد ٣٢٧ ك . م شمال الخرطوم .
- الشلال الرابع . بعد مدينة أبوحمد .
- الشلال الثالث . عند النقطة التي تفصل دنقله عن وادى حلفا .
- الشلال الثاني . عند حلفا .
- الشلال الأول جنوب أسوان

إنظر محمد عوض محمد المرجع السابق ص ١١٦ . ١٢٠ - ١٢٥

١٢- Diodorus . I 33 . 1 .

١٣- Diodorus .III 8 .

١٤- Diodorus. I 34 . 3 - 11 .

١٥- Diodorus I. 35 . 1 - 9 .

١٦- Diodorus . 1 89 . 1 - 3 .

١٧- Diodorus . I 35 . 8 - 11 .

١٨- Diodorus. I 36 . 1 - 2 .

١٩- Ball , J . op . cit . P . 43 .

٢٠- Strabo . 17 . 1 . 2 .

٢١- يقول ديودور أن معنى هذا الاسم هو القادم من الظلام إنظر :
Diodorus. I 37 . 9 .

٢٢- Strabo . 17 . 1 . 2 .

٢٣- أطلق عليهم هيرودوت " أسماخ " إنظر : Herodot . II 30 .

٢٤- Strabo . 17 . 1 . 5 .

٢٥- Strabo . 17 . 1

٢٦- Strabo . 17 . 2 . 3 .

٢٧- Strabo . 17 . 2 . 3 .

٢٨- البلميون هم قبائل البجه الحاليه . ويرى البعض أن الميجا باريون والبلميون هم أصل البشاريه والعبابده . إنظر : وهيب كامل . المرجع السابق ص٤٣

٢٩- Strabo . 17 . 1 . 3 .

٣٠- راجع ترجمة وهيب كامل وتعليقاته إنظر : وهيب كامل . المرجع السابق ص١٢٤

٣١- Strabo . 17 . 2 . 3 .

٣٢- ترجمة اسماء هذه الاسماك إلى العربيه كما جاءت عند وهيب كامل في ترجمته لهذه .

إنظر : وهيب كامل . المرجع السابق ص١٢٨ .

٣٣- Strabo . 17 . 1 . 49 .

٣٤- Strabo . 17 . 1 . 4 .

٣٥- Ball , J . op . cit . pp . 100 - 101 .

إنظر أيضا . محمد عوض محمد . المرجع السابق ص ١٠ ، ١١

٣٦- Smith , W . A . op . cit . v . Nilus .

كان اليهود في التيه يشتاقون إلى أسماك مصر وخضرواتها .

٣٧- راجع ترجمة حسن صبحي بكرى فقرة ١٨ . من الطريف أن أهل النوبة لايأكلون أنواعا معينة من الاسماك ويتردد في التراث الشعبي النوبي أن

سمك القرموط هو الذى إلتهم جدهم الاكبر وهى إشارة إلى الإله أوزيريس .

٣٨- راجع ترجمة حسن صبحى بكرى فقرة ٧٥ .

٣٩- Posner , G . Le Canal du Nil a la mer Rouge , Chronique d'Egypte . 26 . 1938 . PP . 259 - 273 .

٤٠- أحمد فخرى . المرجع السابق ص ٤٢٥ .

٤١- Herodot . II 158 .

٤٢- مدينة مصرية قديمة ورد ذكرها فى التوراة وقد إختلف المؤرخون حول موضعها الحالى . فجعلها البعض عن تل المسخوطة إنظر أحمد بدوى . المرجع السابق ص ٢٩١ .

٤٣- يمكن الربط بين هذا القول والدور الذى لعبته قناة السويس فى إحتلال مصر فى العصر الحديث .

٤٤- تعبر البرابرة تعبير إغريقى وليس مصريا . فقد كان الاغريق يطلقون لفظ " باربارو س" Barbaros على كل من لايتحدث الاغريقية .

٤٥- Diodorus I 33 . 8 - 12 .

٤٦- ملك الفرس الذى كانت مصر من بين ممتلكاته (٥٢١ - ٤٨٥ ق . م)

٤٧- Strabo . 17 1 . 25 - 26 .

٤٨- إنظر سيد الناصرى . المرجع السابق ص ٢٣٩ .

٤٩- إنظر هامش ٢ ص١١٣ كما جاء فى تعليق ناشر كتاب ديودور .

٥٠- إنظر سليم حسن . مصر القديمة جـ١٥ ص٢٣

٥١- Ball , J . op . cit . P . 82 .

٥٢- Ball , J . op . cit . P . 130 .

٥٣- عرفت فى العصر الاسلامى بقناة أمير المؤمنين .

٥٤- يرجح أحمد بدوى أن يكون موريس هو الفرعون إمنمحات الثالث إنظر أحمد بدوى . المرجع السابق ص٨٤ .

٥٥- Herodot . II 149 .

٥٦- Diodorus . I 52 . 1 - 3 .

٥٧- أى أن طول القناة تسعة أميال وعرضها ٣٠٠ قدم

٥٨- Strabo . 17 . 1 . 35 .

٥٩- Strabo . 17 . 1 . 37 .

٦٠- Strabo . 17 . 1 . 3.

٦١- Lewis , N . Life in Egypt under the Roman Rule . PP . 111-112 .

٦٢- Fraser , P . M . Ptolemaic Alexandria . P . 144 I . 252 II .

٦٣- Strabo . 17 . 1 . 7 .

٦٤- Strabo . 17 . 1 . 16 .

الفصل السادس
الدلتا وفروع النيل

عند حديثنا عن مجرى النيل فى الفصل السابق توقفنا عند النقطة التى ينقسم عندها النيل إلى عدة فروع ، ونعنى بذلك دلتا النيل . وفى هذا الفصل نواصل رحلتنا مع نهر النيل فى منطقة الدلتا حتى مصبات هذا النهر فى البحر المتوسط كما جاء عند الكتاب الاغريق . وكلمة الدلتا استخدمت لأول مرة عند كل من هيرودوت وديودور اللذين ذكرا أن الدلتا لها شكل المثلث أو حرف △ فى اللغة اليونانية . وأن قاعدة هذا المثلث هى شواطىء البحر المتوسط [١] . وقال هيرودوت إن الدلتا كانت فى الأصل خليجا من البحر إلا أنه لم يلبث أن تحول إلى أرض يابسة بعد أن إمتلأ بترسيبات النيل[٢] وقاعدة الدلتا كما جاء عند كل من ديودور وإسترابون طولها ١,٣٠٠ استاد . وهى المسافة بين المصب البلوزى والمصب الكانوبى للنيل[٣] . وقد وصف هيرودوت الجزء الشمالى من الدلتا بأنه أرض أحراش[٤] . إلا أن ديودور وصف أرض الدلتا بأنها أفضل أراضى مصر[٥] .

ودلتا النيل عند هيرودوت هى قارة رابعة ويشير إلى ذلك قائلا[٦] "والآن : إذا صحت آراؤنا فى ذلك ؛ فان الأيونيين يخطئون فى كلامهم عن مصر . أما إذا كان رأى الأيونيين صحيحاً ، فأحب أن أبين أن اليونانيين والأيونيين بالذات لايفقهون حساباً حين يزعمون أن العالم جميعه مكون من ثلاثة أجزاء ، أوروبا ، وآسيا ، وليبيا . إذ يجب عليهم أن يضيفوا إلى ذلك رابعاً ، (وهو) دلتا مصر ، ذلك لأنها إذا لم تكن جزءاً من آسيه ولاجزءاً من ليبيا . لأن النيل فى الواقع على هذا

الحساب ، ليس هو الذى يفصل اسيه عن ليبيا ، ولكن عند رأس هذه الدلتا يتفرع النيل فرعين بحيث تصبح مشاعاً بين آسيه وليبيا" .ونحاول فى الصفحات التالية أن نعرض لآراء الكتاب الإغريق عن الدلتا وفروع النيل بشكل مفصل . ولنبدأ بما جاء عند أبى التاريخ هيرودوت إذ يقول(٧) فى هذا الصدد ": وينساب النيل فى مجرى واحد حتى مدينة "كركاسوروس" . ومن عند هذه المدينة يتفرع إلى فروع ثلاثة ، أحدهما يتجه نحو الشرق ، ويسمى الفرع البيلوزى ، والثانى يسير نحو الغرب وهذا يسمى الفرع الكانوبى . أما الفرع المستقيم من النيل فيجرى هكذا: عندما ينحدر النهر ويصل إلى رأس الدلتا ، (عند هذا الرأس) يشطر الدلتا فى الوسط ، ويصب فى البحر . وليس هذا الفرع هو أشح الفروع ماء ولا هو أقلها شهرة واسمه الفرع السبنيتى . وهناك أيضاً فرعان آخرن ينفصلان عن هذا الأخير ويجريان إلى البحر ، أحدهما يسمى الفرع " السايسى" والثانى الفرع " المنديسى " . أما الفرعان البولبيثى والبوكولى فليسا طبيعيين ولكنهما صناعيان " .

ومدينة كركا سوروس التى ذكرها هيرودوت هى منطقة الوراق الحالية(٨). وهى المنطقة التى ينقسم النيل عندها إلى ثلاثة فروع ، وهى الكانوبى والسبنيتى والبلوزى . ويخرج الفرع الكانوبى غربى جزيرة الوراق ويسير قليلا فى مجرى فرع رشيد الحالى إلى قرية زاوية البحر ثم إلى نقطة شرق كوم جعيف (نقراطيس) ويأخذ بعد ذلك مسار ترعة الخطاطبه مارا بالقرب من مدينة دمنهور الحاليه (هرموبوليس بارفا) ثم مع مسار ترعة المحمودية حتى يصل إلى موقع قرية ترعة الغيطاس ثم يتجه شمالا حيث يصب فى " أبو قير" عند نقطة تسمى الطابيه الحمراء.

ويخرج الفرع البلوزى من الجانب الشرقى للوراق ويأخذ مسار ترعة الشرقاوية فى بلدة شبين القناطر ثم يسير فى مسار ترعة الخليل إلى قرية ميت بشاير ثم يلتوى شرقا مارا بشمال تل بسطا (بوباسطس) ثم صفط الحنه (فاقوسه) ثم إلى قرية عزاز حيث يأخذ مسار ترعة السعيدية حتى قرية الصالحية ثم يواصل سيره شرقا حتى يصل إلى تل الفرما (بلوزيون) . أما الفرع السبنيتى فهو يبدأ من رأس الدلتا ويقسمها إلى قسمين ويمر بالقرب من قرية بوتو ثم يسير شمالا بغرب مع خط ترعة الباسوسية حتى قرية كفر إليم . ثم يأخذ مسار فرع دمياط حتى قرية شبرا اليمن (حوالى ١٤ ك . م جنوب سمنود) وقد استمد هذا الفرع إسمه من المدينة الرئيسية فى مساره وهى سمنود ويواصل هذا الفرع اتجاهه شمالا بغرب مارا ببعض القرى مثل شبرا بابل وقلين وشباس ثم يقوم بانحناءة خفيفة جهة الشرق حتى يدخل البحر فى بحيرة البرلس بالقرب من قرية البرج .

والفرعان السايتى والمنديسى يخرجان من الفرع السبنيتى كما جاء عند هيرودوت . وقد كان كلامه فى هذه النقطه غامضا إلى حد كبير؛ فلم يخبرنا عما إذا كان خروج هذين الفرعين من جهة واحدة من الفرع السبنيتى أم من جهتين مختلفتين ولكن لما كانت كل من مندس وسايس (صا الحجر) تقعان حول الخط الفاصل لوسط الدلتا إحداهما إلى الغرب والثانية إلى الشرق فانه يبدو من المنطقى الاعتقاد بأن أحدهما كان يخرج من الضفة الغربية بينما يخرج الآخر من الضفة الشرقية . فيغادر السايتى الفرع السبنيتى عند قرية المعصره ثم يتجه شمالا بشرق حتى ديرب نجم ثم صان الحجر (تانيس) ويصب فى البحر عند الجميل شمال غرب بور سعيد .

ويخرج الفرع المنديسى من الفرع السبنيتى شمال ميت غمر الحاليه متجها شمالا بغرب حتى يصل إلى قرية تماى الأمديد (ثوميس) ثم مندس . وبعد إنحناءة صغيرة جهة الشرق يصل إلى قرية ميت فارس ثم أشمون الرمان ثم يأخذ مسار ترعة البحر الصغير متجها شمالا حيث يصب فى البحر عند حلق الوحل على بعد ١٣ ك . م جنوب شرق رأس البر .

ويتفرع البولبتينى من الفرع الكانوبى أمام دمنهور الحاليه ثم يتجه شمالا بشرق إلى الرحمانيه مع مسار فرع رشيد . وبصفه هيرودوت بأنه فرع صناعى . ثم يأتى أخيرا الفرع البوكولى وهو كسابقه لم يكن طبيعيا وإنما من صنع البشر وهو يخرج من الفرع السبنيتى عند قرية شبرا اليمن ثم يأخذ مسار فرع دمياط .

ومن الطريف أن هذين الفرعين الأخيرين اللذين أشار إليهما هيرودوت باعتبارهما فرعين صناعيين هما الوحيدين اللذين بقيا من فروع النيل . وهما تقريبا فرعا رشيد ودمياط الحاليين .

وقد جاء حديث ديودور عن الدلتا وفروع النيل كما يلى[٩] " ومجرى النيل فى مصر ينقسم إلى عدة فروع مكونا المنطقة التى تتخذ شكل الدلتا . ويشكل الفرعان الرئيسيان جوانبها أما قاعدتها فهى البحر حيث توجد مصبات مختلفة للنهر . وهذا النهر يصب فى البحر من خلال سبعة فروع أولها من الشرق يسمى البلوزى Pelusiac والثانى التانيتى Tanitic ثم المنديسى Mendesian والفاتنتى Phatintic والسبنيتى Sebennytic والبولبتينى Bolbitine والكانوبى Canopic والذى يدعى الهرقلى Heracleotic أيضا . ويوجد فرعان شقتهما

أيدى البشر وليس هناك داعٍ للكتابة عنهما . وَيوجد على كل مصب مدينة مسورة يقسمها النهر إلى شطرين يربطهما جسر عائم كما توجد مراكز للحراسة فى النقاط الهامة " .

ثم يستطرد ديودور فى الفقرة التالية واصفا الدلتا بقوله[١٠] " والدلتا مثل جزيرة صقلية من حيث الشكل وطول كل ضلع من أضلاعها ٧٥٠ ستاديا . وقاعدتها التى يحدها البحر ١٣٠٠ ستاديا . ويوجد بهذه الجزيرة العديد من القنوات الصناعية . وبها أفضل أراضى مصر لأن تربتها رسوبية وجيدة الرى " .

ومما يستلفت النظر أن أسماء فروع النيل وعددها عند ديودور يختلف عما جاء عند هيرودوت . فعلى حين ذكر هذا الأخير أسماء خمسة فروع طبيعية بالإضافة إلى إثنين صناعيين . فان ديودور ذكر أسماء سبعة إضافة إلى إثنين من صنع البشر لم ير داعيا للكتابة عنهما.

ونتابع ما جاء عن الدلتا وفروع النيل عند إسترابون وهو كثير إذ يقول[١١]" وامتداد مصر من الفرع البلوزى إلى الفرع الكانوبى هو ١٣٠٠ ستاد " وفى الفقرة التالية نجده أكثر إسهابًا إذ يقول " ينساب النيل من الحدود الاثيوبية فى خط مستقيم نحو الشمال إلى الاقليم الذى يدعى الدلتا ، وعندئذ يشق رأسه كما يقول أفلاطون[١٢] و يجعل هذه المنطقة كأنها رأس مثلث وضلعا المثلث الشقان اللذان ينسابان كل فى اتجاه ويمتدان إلى البحر ، فينساب الواحد إلى اليمين عند بيلوزيوم والآخر إلى اليسار عند كانوبوس وما يجاورها أى مدينة هيراقليوم . أما القاعدة فشاطىء البحر الواقع بين بيلوزيوم وهيراقليوم .تكونت إذن جزيرة من البحر وفرعى النيل وهى تدعى الدلتا لشدة شبه شكلها بحرف

الدال اليونانية ∆ وقد سميت المنطقة الواقعة عند رأس الدلتا بهذا الإسم لأنها مبدأ الشكل المذكور وتسمى القرية التى تقع فيها الدلتا أيضاً . وإذن فللنيل مصبان أحداهما الذى يسمى الفرع البيلوزى والآخر المسمى الفرع الكانوبى أو الهيراقلى . ولكن يوجد بين هذين خمسة مصبات أخرى تستحق الذكر ومصبات عديدة أخرى أصغر منها . ذلك أنه قد تفرعت من الفرعين الأولين فروع كثيرة فى الجزيرة كلها وكونت مجارى وجزرا حتى أن الدلتا كلها أصبحت صالحة للملاحة ، وقد شقت فيها ترع فوق ترع . وهذه يبحر فيها بسهولة حتى أن بعض الناس يتخذون مراكب من الفخار ويبلغ محيط الجزيرة كلها ٣٠٠٠ ستاد ، وهم يسمونها أيضاً مصر السفلى هى وما يقابلها من أراضى الدلتا النهرية . وهى فى أثناء الفيضان تغطى كلها وتغمر فيما عدا المدن ، وهى منشأة على تلال طبيعية أو تلال صناعية وهى مدن وقرى جديرة بالذكر تبدو كالجزر عندما ترى من بعيد . ويبقى الماء أكثر من أربعين يوماً من الصيف وعندئذ يبدأ فى الانخفاض شيئاً فشيئاً كما ارتفع . وينكشف السهل تماما ويأخذ فى الجفاف فى ستين يوما وما أن تجف الأرض حتى يبادروا إلى الحرث والبذر ، ويكون الجفاف سريعاً فى الجهات التى تزيد فيها الحرارة .

ويتحدث إسترابون عن المدن التى تقع على مصبات النيل فيقول[١٣]- وكانوبوس مدينة تقع على مسافة ١٢٠ ستاد من الإسكندرية للسائر على الأقدام ، وقد سميت باسم كانوبوس ربان مينيلاوس الذى مات هناك . وهى تضم معبد سيرابيس الذى يعظم بتقديس بالغ وهو يهب الشفاء ، حتى أن أشهر الرجال يؤمنون به ويبيتون فيه هم أو من ينوبون

عنهم . ويسجل البعض الأدوية ويسجل آخرون مميزات الوحى هناك .
ويقابل كل هذا الورع جماهير العابثين الذين يهبطون من الإسكندرية
بطريق القناة ، ذلك أنها تعج كل يوم وكل ليلة بجماعة من الرجال
والنساء فى القوارب يعزفون الناى ويرقصون سادرين فى غاية الفجور ،
وتعج بأهل كانوبوس نفسها . وهؤلاء يملكون بيوتاً واقعة على القناة ،
معدة لمثل هذا العبث واللهو " يواصل حديثه فى الفقرة التالية عن
هيراكليون حيث يفرغ النيل ماءه فى البحر قائلاً (١٤)" ويلى كانوبوس
هيراقليوم وهى تحتوى على معبد لهرقل ثم يأتى الفرع الكانوبى ومبدأ
الدلتا . وعلى يمين الفرع الكانوبى توجد مقاطعة مينيلاوس ، وقد سميت
كذلك اشتقاقاً من اسم أخى بطلميوس الأول وليس وأيم الله من اسم
البطل مينيلاوس كما يدعى بعض الكتاب ومنهم ارتميدوروس . وبعد
الفرع الكانوبى يأتى الفرع البولبتينى ثم السبينيتى والفاتنبتى وهو
الثالث فى الضخامة بالمقارنة بالفرعين الأولين اللذين يكونان حدود
الدلتا ، لأنه يتفرع فى الداخل غير بعيد من رأس الدلتا ، والفرع
المنديسى قريب جداً من الفرع الفاتنيتى ويليه التانيسى وأخيراً الفرع
البيلوزى . وبين هذه المصابت توجد المصبات ليست بذات أهمية حيث
إنها مصبات وهمية . وللمصبات مداخل لاتسمح بدخول السفن أو
المراكب الكبيرة بل الزوارق فقط بسبب الضحالة والمستنقعات .

وبعد الفرع البولبتينى يمتد إلى مسافة طويلة رأس واطىء رملى
يسمى أجنوكراس (قرن الصفصاف) ، ويلى ذلك برج برسيوس
وقلعة الميليسيين . وذلك أنه فى عهد بسماتيك الذى عاصر
كياكساريس(١٥) الميدى ، أبحر الميليسيون بثلاثين مركباً ورسوا فى

الفرع البولبيتى ونزلوا هناك وابتنوا المعقل السالف الذكر وبعد ذلك بردح من الزمان صعدوا فى النهر إلى مقاطعة سايس وبعد أن هزموا مدينة إيناروس فى موقعة بحرية أنشأوا مدينة نوقراطيس فوق سخيديا بقليل . ثم بعد قلعة الميليسيين إذا تقدم المرء نحو الفرع السبينيتى توجد بحيرات تسمى إحداها بوطية نسبة إلى مدينة بوطوس ، ثم مدينة سبينيتوس .

وسايس عاصمة مصر السفلى تعبد أفروديتى . وفى معبدها يوجد قبر بسماتيك وبالقرب من بوطوس توجد هرموبوليس الواقعة فى جزيرة وفى بوطوس يوجد وحى ليطو ". ثم يستطرد واصفا الدلتا والمدن التى توجد فيها (١٦)" وفى الداخل فيما يلى المصبين السبينيتى والفاتنيتى تقع كسويس وهى جزيرة ومدينة فى المقاطعة السبينيتية ، وتوجد هرموبوليس وليكوبوليس ومنديس حيث يعبدون بان ويعبدون من الحيوان التيس ، وهنا كما يقول بينداروس تتصل التيوس بالنساء .

" منديس على مقربة من سيف البحر " .

" ناصية النيل القصية " .

" حيث تتصل التيوس التى تعلو المعزى بالنساء " .

وبالقرب منديس توجد ديوسبوليس والبحيرات المحيطة بها ومدينة ليونتوبوليس ثم على مسافة بعيدة توجد بوسيريس فى مقاطعة بوسيريس وكذلك كينوسبوليس . وتتاخم المقاطعات البوسيرية المقاطعة الأثريبية ومدينة أتريبين وكذلك المقاطعة البروسوبية التى فيها مدينة أفروديتوبوليس . وفيما وراء الفرعين المنديسى والتانيسى توجد بحيرة

كبيرة والمقاطعتان المنديسية والليونتوبوليسية ومدينة أفروديت والمقاطعة الفاريتية ، ثم يلي ذلك الفرع التانيسي ويسميه البعض الفرع السايسي والمقاطعة التانيسية وفيها تانيس وهي مدينة كبيرة . وتوجد بين الفرعين التانيسي والبيلوزي بحيرات ومستنقعات متصلة وفيها قرى عديدة ، وبيلوزيوم نفسها تحيط بها المستنقعات ويسميها البعض جباً والبعض الآخر بركا، وهي تقع على بعد يزيد عن عشرين ستاد من البحر ، ومحيط سورها عشرون ستاد واسمها مشتق من كلمة "بيلو" أي حما البرك ، ويتعذر الوصول إلى مصر من هذه الناحية أي من الناحية الشرقية المواجهة لفينيقية واليهودية ومن ناحية بلاد العرب النبطية المتاخمة لها ، فالطريق إلى مصر يخترق هذه المناطق . والبلاد الواقعة بين النيل والبحر الاحمر هي بلاد العرب ، وفي طرفها تقع مدينة بيلوزيوم ولكن الإقليم كله صحراء لايمكن أن يجتازها جيش ، والبرزخ الواقع بين بيلوزيوم وتجويف البحر الأحمر بالقرب من هيروبوليس طوله ألف ستاد ، ولكن عرضه يقل عن ١٥٠٠ ستاد كما جاء في بوزيدونيوس ، وعلاوة على كونه خال من الماء ورملي ، فهو غاص بالزواحف التي تستخفي في الرمال .

وإذا صعد المرء في النهر من سخيديا نحو منفيس يجد إلى اليمين عدداً كبيراً من القرى تمتد حتى بحيرة ماريا ، إحداها القرية التي يسمونها خابرياس . وتقع على النهر مدينة هرموبوليس وتليها مدينة جينايكوبوليس . والأقليم الجينايكوبوليسي ، ويليها مومفيس والأقليم المومفيسي . وتتخلل هذه المقاطعات قنوات عديدة تصب في بحيرة مريوطيس وأهل مومفيس يعبدون أفروديتي ، ويحتفظ هناك ببقرة

مقدسة كما يحتفظ بأبيس فى منفيس ومنيفيس فى هليوبوليس . والآن، فان هذه الحيوانات تعد آلهة ، أما الحيوانات التى فى البلدان الأخرى (ذلك أنه فى كثير من البلدان الأخرى ، سواء فى الدلتا أو فى الصعيد أو فيما يليهما يحتفظ بعجل أحياناً وبقرة أحياناً أخرى) فلا تعد آلهة وهى مع ذلك مقدسة .

وفوق مومفيس يوجد واديان للنطرون يحتويان على كميات كبيرة من النطرون ، والإقليم النطرونى . وهناك يعبد سيرابيس ويضحى بالماشية عند أهل هذا الإقليم دون غيرهم فى مصر . وهناك على مسافة قريبة توجد مدينة مينيلاوس . وإلى اليسار فى الدلتا توجد نوقراطيس على النهر . أما سايس فتقع على مسافة ٢ سخينوس من النهر . وفوق سايس بقليل يوجد حرم أوزويريس الذى يرقد فيه - فيما يقولون - أوزيريس . ولكن الكثيرين يرون غير هذا الرأى ، وبوجه خاص سكان فيلاى التى تقع فوق سينى والفنتين لأنهم يأخذون بالأسطورة القائلة بأن إيزيس دفنت توابيت أوزيريس تحت الثرى فى مواضع عديده (واحدها فقط يضم رفات أوزيريس وهذا خاف على الجميع) وأنها فعلت ذلك لأنها أاردت أن تخفى رفاته عن طيفون لئلا يجدها فيذر الجثة خارج القبر .

وفى النهاية يختم إسترابون حديثه عن الدلتا قائلا [١٧] " وهذا هو وصف البلاد من الاسكندرية . إلى رأس الدلتا " .

وهكذا فاننا نلاحظ أن إسترابون كان أكثر سخاءً من سابقيه فى الحديث عن الدلتا التى وصفها بأنها جزيرة . وهو فى هذا يتفق مع ديودور الذى وصف الدلتا بأنها جزيرة أيضاً [١٨] . كما نلاحظ وجود

تطابق بين أسماء الفروع عند كل من ديودور وإسترابون . وقد اختلفت الأسماء الواردة عند هذين الكاتبين عما جاء عند هيرودوت . ويرى بول[١٩] Ball أن أسماء الفروع التى وردت عند كل من ديودور وإسترابون كان أول من استخدمها كاتب غير معروف وأنهما أخذاها عنه وثمة إختلاف آخر بين هذين الكاتبين وهيرودوت . وهو إشارتهما إلى أن الفرع الكانوبى كان يطلق عليه أيضا الفرع الهرقلى نسبة إلى مدينة هيراكليوم (الكوم الاحمر) التى كان النيل يفرغ ماءه عندها . وقد سميت بهذا الاسم لوجود معبد للاله هرقل فيها وهو المعبد الذى ذكره هيرودوت بقوله [٢٠]" وكان يوجد على الشواطىء وما زال موجودا حتى الآن - معبد لهيراكليس إذا لجأ إليه عبد أو أحد من البشر ووسم نفسه بالعلامات المقدسة واهبا نفسه للإله . فلايحل لأحد أن يمسه بسوء " . ولكن على الرغم من إشارة هيرودوت إلى هذا المعبد فانه لم يطلق على هذا الفرع اسم الهرقلى كما فعل لاحقوه . وربما يكون من المفيد أن نورد أسماء فروع النيل كما جاءت عند الكتاب الثلاثة .

أولا : هيرودوت .

١- الفرع البلوزى Pelusiac

٢- الفرع السايسى Saitic

٣- الفرع المنديسى Mendesian

٤- الفرع السبنيتى Sebennytic

٥- الفرع البولبتينى Bolbtine (صناعى)

٦- الفرع البوكولى Bucolic (صناعى)

٧- الفرع الكانوبى | Canopic

ثانيا : ديودور

١- الفرع البلـوزى | Pelusiac

٢- الفرع التانيتى | Tanitic

٣- الفرع المنديسى | Mendesian

٤- الفرع الفاتنتى | Phatintic

٥- الفرع السبنيتى | Sebennytic

٦- الفرع البولبتينى | Bolbtine

٧- الفـرع الكانوبى (الهـرقلى) (Heracleotic) Canopic

بالاضافة إلى فرعين صناعيين .

ثالثا : إسترابون .

١- الفرع البلـوزى | Pelusiac

٢- التانيتى (ويسميه البعض السايسى) | Taniti

٣- الفرع المنديسى | Mendesian

٤- الفرع الفاتنتى | Phatintic

٥- الفرع السبنيتى | Sebennytic

٦- الفرع البولبتينى | Bolbtine

٧- الفرع الكانوبى (الهرقلى) (Heracleotic) Canopic

بالاضافة إلى عدة فروع أخرى صغيرة .

أما بطلميوس فقد تناول الحديث عن فروع النيل بشكل مختلف عن سابقيه . ذلك لأنه فرق بين الفروع والمصبات ووصف الفروع بكلمة أنهار . كما أن المصبات لديه لاتحمل بالضرورة اسم الفرع الذى ترتبط به . وذكر أسماء تسعة مصبات قال إن اثنين منها صناعيان . وأنها تختلف عن الآخرين على الرغم من إنه لم يحدثنا عن أوجه الاختلاف . • ويرجح بول[٢١] Ball أن هذه المصبات الصناعية تم حفرها فى ذلك القطاع الضيق من اليابسة الذى يفصل بين البحيرة التى يصب فيها أحد الفروع وشاطىء البحر . وفيما يلى قائمة بأسماء المصبات والفروع المرتبطه بها كما ذكرها بطلميوس .

المصب	الفرع
١- الهرقلى (الكانوبى)	أجاثا دايمون Agathdaemon
٢- البولبيتينى	نهر تالى Taly
٣- السبينتى	النهر الثيرموسى Thermuthiac
٤- بنبتيمى Pineptimi (الصناعى)	النهر الأثريبى Athritbic
	________________
٥- ديولكوس Diolcus	________________
٦- الباثميتى Pathmitic	النهر البوزيرى Busiric
٧- المنديسى	________________
٨- التانيتى	________________
٩- البلوزى	النهر البلوزى

وقد صور بطليموس خطوط الطول والعرض التى تقع عندها الفروع الستة التى ذكرها وبالنسبة للمقارنة بالفروع التى ذكرها السابقون فالأمر كما يلى : ١- الأجاثا دايمون يساوى الفرع الكانوبى عند هيرودوت وإسترابون ٢- البوزيرى يقابل الفرع البلوزى عند هذين الكاتبين ٣- نهر تالى يقابل الفرع البولبتينى ٤- الشيرموسى هو السبنيتى ٥- الاثريبى يسير فى مسار الفاتنتى حتى سمنود ثم يأخذ مسار الفرع السبنيتى ٦- النهر البوزيرى يأخذ مسار الفرع السايسى عند هيرودوت ثم يأخذ مسار الفرع المنديسى ولكنه أكثر تشابها مع مسار الفرع الفاتنتى عند إسترابون ٧- الفرع المنديسى والتانيتى أصبحا أقل أهمية لدى بطلميوس . فلم يشر إليهما كفرع للنيل بل إعتبرهما مجرد مصبات. ٨- ديولكوس أشار إليه بطلميوس باعتباره صناعى كما أنه لم يربطه بنهر .

وتوجد اختلافات كثيرة فى مسارات فروع النيل عند الكتاب الذين أوردنا نصوصهم . ولابد أن نتوقع أن ثمة تغييرات كثيرة كانت تحدث . وأنه ما بين عصر هيرودوت (منتصف القرن الخامس ق .م) وعصر بطليموس (٩٠ - ١٦٨ م) قد حدثت تغييرات كثيرة فى طبيعة الدلتا .

الهوامش

١- Moret , A , op . cit . p 26 . N . I .

٢- إنظر الفصل الثانى " مصر هبة النيل .

٣- Warmington, E . H . op . cit . p . 187 .

٤- Herodot II 140 .

٥- Diodorus I 34 .

٦- Herodot II 17 .

٧- Herodot II 17 .

٨- Ball , J . op . cit . pp . 25 - 28 .

٩- Diodorus I 33 . 5 - 8 .

١٠- Diodorus I 34 . 1 - 2 .

١١- Strabo . 17 . 1 - 4 .

١٢- Plato . Timaeus . 21.

١٣- Strabo . 17 . 1 . 17 .

١٤- Strabo . 17 . 1 . 18 .

١٥- هو إكسركسيس Xerxes بن دارا وكان ملكا على الفرس من ٤٨٦ - ٤٦٥ ق . م

١٦- Strabo . 17 . 1 . 19 . 20 . 21 . 22 . 23 .

١٧- Strabo . 17 . 1 . 24 .

١٨- Diodorus I . 33 . 4 , 34 . 1 - 2 .

١٩- Ball , J . op . cit . p. 29 .

٢٠- Herodot II 113 .

٢١- Ball . J . op . cit . p . 124 .

الخاتمة

وهكذا فقد تتبعنا كل ما جاء عن النيل العظيم فى المصادر الإغريقية وقد رأينا أن نقدم لهذا الموضوع بفصل تمهيدى عن العلاقات بين مصر وبلاد اليونان منذ أقدم العصور . حيث أشرنا إلى وجود علاقات بين مصر وتلك البلاد فى عصر الحضارتين المينوية والموكينية ، كما تأثر الفن الإغريقى بالفنون المصرية وبخاصة فى الفترة التى يطلق عليها عصر المؤثرات الشرقية فى تاريخ الفن الإغريقى ، وفى خلال القرن السابع ق.م إزداد تدفق الثروة على بلاد اليونان كنتيجة لحركة الاستعمار . وإزدادت العلاقات توثقا بين مصر وبلاد اليونان . وفى خلال هذا القرن تم إنشاء مدينة إغريقية فى مصر هى مدينة نقراطيس التى أخذت تلعب دورا نشطا فى تقوية العلاقات بين البلدين . فراح الإغريق يتدفقون على مصر زرافات ووحدانا . وقد شجعهم على ذلك فراعنة الأسرة ٢٦ الذين فتحوا أبواب البلاد على مصاريعها أمام الإغريق ، وأستعانوا بهم للخدمة فى جيوشهم كجنود مرتزقة . ومنحوا التجار الكثير من التسهيلات كما إستعان فراعنة هذه الأسرة بخبراء البحرية الإغريق فى بناء القوة البحرية المصرية . كما حظيت مصر بالمساعدة العسكرية من الإغريق حينما رغبت فى التخلص من ربقة الحكم الفارسى . وإلى جانب الجنود والملاحين والتجار فقد تقاطر على مصر عدد من رجال الفكر الإغريق مثل المؤرخين والجغرافيين والفلاسفة والشعراء والمشرعين . فأشادوا بحضارة مصر ونهلوا من علمها . وبعد غزو الإسكندر الأكبر لمصر فى عام ٣٣٢ ق . م أصبحت مصر جزءا من العالم الإغريقى سياسيا وثقافيا وصارت الإسكندرية من أعظم مراكز الحضار الإغريقية فى البحر

المتوسط . وإنتشر الإغريق فى ريف مصر ومدنها ، وحتى بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية فى عام ٣٠ ق . م ظلت الثقافة الإغريقية هى السائدة فيها .

وفى الفصل الثانى تحدثنا عن مكانة النيل عند الإغريق ، الذين راحت مصادرهم تتحدث عن النيل باعتباره أكثر العجائب فى مصر بلد العجائب ، وأخذوا يشيدون بفضله على بنى البشر ، ويقارنون بينه وبين أنهار العالم الأخرى . فهو يبز الأنهار جميعا ، ومياه النيل هى أعذب المياه ، وهى أعظم الأشياء التى تتدفق على سطح الأرض ، والنيل هو خالق مصر ، وهى بحق هبة النيل كما قال هيرودوت ، والنيل لم يخلق مصر فقط بل إنه يهبها الحياة المتجددة فالطمى الذى يجلبه من أثيوبيا يؤدى إلى تجديد خصوبة تربتها ، وهو الذى يمنح وسائل العيش لسكان مصر إذن فان مصر والنيل هما كيان واحد ، والنيل هو ضابط إيقاع الحياة فى مصر ، وكما يقول المفكر المصرى العظيم جمال حمدان " إن الحقيقة الأولى فى الوجود المصرى أن مصر هى النيل " .

ومن ناحية أخرى فان النيل يشكل أهمية خاصة لدى الجغرافيين الإغريق عندما يحاولون وضع الحدود بين القارات ، فمنهم من يرى أن النيل يشكل الحد الفاصل بين قارتى آسيا وأفريقيا ، ومنهم من يرى أن دلتاه تعتبر قارة رابعة تضاف إلى قارات العالم المعروفة أى آسيا وأفريقيا وأوروبا وكلمة النيل التى نتداولها حتى الآن كاسم لهذا النهر العظيم هى تسمية إغريقية ، وجاءت لأول مرة عند الشاعر هسيود .

والنيل لم يكن فقط حقيقة جغرافية أو مصدرا للحياة بل هو الحياة ذاتها لدى الشعب المصرى . لذا فقد عبده المصريون القدماء باسم الاله

حابى ، وإرتبطت عبادته أيضا بالههم المحبوب أوزيريس ، وفى عصر البطالمة إرتبطت عبادة النيل بالإله سيرابيس الذى أدخل البطالمة عبادته من أجل التقريب بين المصريين والإغريق . ولكن إله النيل أخذ يتجسد بعد ذلك فى شكل إله ذو شكل محدد وإنتشرت عبادته بين إغريق مصر فى عصر الرومان . بل إن عبادة الإله نيلوس إنتقلت إلى إيطاليا وحظيت برعاية الأباطرة الرومان ، وكان لهذا الإله رفيقة هى يوثينيا التى صورت على رأسها سنابل القمح رمزا لإرتباطها بالخير .

أما الفصل الثالث فقد عرضنا فيه لقصة منابع النيل ، وكان هذا الأمر لغزا حير الإغريق . فأطلقوا لخيالهم العنان وصوروا منابع النيل فى قالب أسطورى يغلفه الخيال فهو تارة يستمد مياهه من الأوقيانوس أى المياه المحيطة بالأرض ، وتارة أخرى من بلاد تقع عند ينابيع الشمس . بينما تصور بعضهم أن منابع النيل تقع فى بلاد شديدة الحرارة حتى أن المياه تتبخر من شدة سخونة الجو ، وإلى جانب التصورات الخيالية لمنابع النيل نجد الكثيرين يحاولون إعمال العقل للتوصل إلى حقيقة هذه المنابع

وقد حدثنا هيرودوت عن محاولة قام بها بعض الشباب لمعرفة منابع النيل وعادوا من رحلتهم بعد أن تصوروا أنهم وصلوا إلى هذه المنابع . كما رأينا ذلك التفسير الغريب الذى قدمه يوبا الثانى ملك موريتانيا والذى قال فيه بأن منابع النيل توجد عند سفوح جبال الأطلس . حيث تختفى المياه فى باطن الأرض ثم تعود إلى الظهور مرة أخرى فى إثيوبيا متخذة هذا المجرى الذى يسمى النيل بعد ذلك ، كما حدثنا إسترابون عن إنشغال الاسكندر الأكبر بمشكلة الكشف عن منابع النيل واعتقاده أنه وصل إلى هذه المنابع حينما رأى أنهار الهند .

وفى مجال محاولات الكشف عن منابع النيل أشرنا إلى جهود البطالمة فى هذا الصدد ، والمعلومات التى توفرت نتيجة لتلك الجهود . كما ذكرنا كذلك أن تلك الجهود قد إستمرت خلال عصر الرومان ، ومنها على سبيل المثال البعثة التى أرسلها الامبراطور نيرون والتى حدثنا عنها الفيلسوف سينيكا . ثم أشرنا أخيرا إلى التوصل إلى منابع النيل كما جاء عند الجغرافى بطلميوس الذى وصف هذه المنابع والحقيقة أن المرء لايملك إلا أن ينحنى إحتراما وتقديرا للجهود التى بذلها هؤلاء الرواد فى سبيل معرفة منابع النيل ، وهى جهود سواء كانت على مستوى الأفراد أو الدول إنما تدل دلالة قاطعة على تلك الروح التى كان يتحلى بها الإغريق ، وهى روح المغامرة والرغبة فى معرفة المجهول ، والسعى الدائم لمعرفة الحقيقة ، هى الروح التى جعلت من هذا الشعب شعبا عظيما ، وجعلت هذه الحضارة تستحق أن يطلق عليها بحق " المعجزة الإغريقية ". كما أن المرء لايملك إلا أن يعجب أشد العجب حينما يطالع الخرائط التى رسمها هؤلاء الرواد ومنها على سبيل المثال خريطة بطلميوس التى رسمها لمنابع النيل بناء على ما سمعه وما قرأه دون أن يزور هذه المنطقة

وفى الفصل الرابع تحدثنا عن ظاهرة فيضان النيل . التى حيرت الإغريق وأثارت فضولهم ، وكان المصريون قد فسروا هذه الظاهرة فى إطار أسطورى من خلال الصراع بين الخير ممثلا فى الإله أوزيريس والشر ممثلا فى الإله ست وكانت الربة إيزيس فى إعتقادهم هى التى تجلب الفيضان حين تزرف الدمع على زوجها الشهيد ، وأن أبنها حورس يأتى فى كل عام متجسدا فى فيضان النيل فيهزم البحر رمز الإله ست ويجبره على التراجع .

وقد حاول الإغريق بدورهم معرفة سر ظاهرة الفيضان . فذهبوا فى تفسير هذه الظاهرة مذاهب شتى ، فقال بعضهم إن الرياح الموسمية التى تهب من الشمال تعترض إنسياب الماء وتجعله يفيض على الضفتين فى فصل الصيف ، كما قال البعض الآخر أن ذوبان الثلوج على قمم الجبال فى فصل الصيف . يؤدى إلى تدفق المياه فى مجرى النيل . بينما رأى فريق منهم أن السحب التى تتكون فى الشمال تحملها الرياح وعندما تصطدم بجبال إثيوبيا تتحول إلى أمطار تتدفق فى مجرى النيل .

وقد عرضنا لآراء المؤرخين والجغرافيين حول ظاهرة فيضان النيل ، ورأينا كيف أن هيرودوت رفض الفكرة القائلة بأن الرياح الموسمية التى تعوق إنسياب ماء النهر هى التى تؤدى إلى الفيضان ، وقال أن الربط بين الفيضان والمياه المحيطة بالكرة الأرضية - الأوقيانوس - فكرة لا أساس لها من الواقع وقال إنه لا طائل تحت من يدعى أن النيل يستمد مياهه من الثلوج الذائبة ، وفى النهاية قدم هيرودوت رأيه الذى يقول بأن الشمس تجذب إليها مياه الأنهار ثم لا تلبث أن تبعث بها مرة أخرى ، وهى فكرة تقترب من التفسير الحقيقى لأن أشعة الشمس هى التى تؤدى إلى حدوث البخر وتحول الماء إلى سحاب وهذا السحاب هو الذى يتحول إلى أمطار .

أما ديودور فقد ذكر كل الآراء التى قيلت حول أسباب فيضان النيل، وكرر التفسيرات التى ذكرها هيرودوت عن الرياح الموسمية وذوبان الثلوج ، ورفض رأى هيرودوت الذى يقول بأن الشمس هى السبب فى حدوث الفيضان قائلا أن هذا المؤرخ ضبط متلبسا باختراع مثل هذا التفسير ، كما رفض ديودور رأى الفيلسوف ديموقريطس الذى يقول بأن

السحب التى تأتى من الشمال والتى تتكون نتيجة لذوبان الثلوج فى الصيف ، لاتلبث أن تتحول إلى أمطار نتيجة لإصطدامها بجبال إثيوبيا ، وقال فى بيان رفضه لهذا الرأى أنه ليس هناك دليل على أن جبال إثيوبيا شديدة الإرتفاع حتى ترتطم بها السحب .

وقد ساق أيضا ديودور رأى إفوروس الذى يقول بأن طبيعة تربة مصر هى التى تؤدى إلى حدوث الفيضان ، لأنها ذات طبيعة إسفنجية فهى تمتص المياه فى الشتاء وتفرزها فى الصيف ، وهو يرفض هذا الرأى أيضا قائلا أن الفيضان يحدث فى كل أرجاء مصر ومنها المناطق الجنوبية ذات الطبيعة الصخرية ، كما عرض ديودور لرأى استقاه من حكماء منف الذين حدثوه عن وجود عالمين متقابلين يفصل بينهما منطقة غير مسكونة بسبب حرارتها الشديدة ، وعندما يكون الجو صيفا فى عالمنا يكون شتاء فى العالم المقابل ، ومن ثم فان الأمطار التى تسقط هناك فى الشتاء تتدفق إلى مجرى النيل فى عالمنا ، وقد رفض ديودور هذا الرأى قائلا باستحالة تدفق المياه من العالم المقابل إلى عالمنا ، ووصف هذا الرأى بأنه زائف .

وهناك رأيا آخر ذكره ديودور أرجع صاحبه بسبب حدوث الفيضان إلى أن باطن الأرض فى فصل الشتاء يكون ساخنا ومن فان هذه السخونة تستهلك جزءاً كبيراً من بخار الماء مما يؤدى إلى تقليص حجم الأنهار فى الشتاء ، أما فى الصيف فلا يحدث مثل هذا الأمر لذلك يظل حجم مياه الأنهار فى الصيف على حاله الطبيعى ، وأن نهر النيل يكون فى حجمه الطبيعى خلال موسم الفيضان ، وقد وصف ديودور هذا الرأى بأنه محاولة تزييف الحقائق عن طريق الجدل المخادع ، وأخيرا استقر ديودور

على رأى رآه أقرب إلى الواقع ، والذى نسبه إلى الجغرافى أجثارخيديس الذى أرجع سبب حدوث الفيضان إلى هطول الأمطار على إثيوبيا فى الصيف مما يؤدى إلى امتلاء مجرى النيل بالمياه وذلك بناء على رؤية شهود العيان .

كما عرضنا أيضا لرأى إسترابون حول تفسير ظاهرة فيضان النيل ، ولمسنا مدى إستيعابه للآراء التى ذكرها ديودور من قبل ، فقد تحدث إسترابون عن الجهود التى قام بها البطالمة من أجل استكشاف المناطق التى تقع جنوب مصر ، مما إدى إلى زيادة المعرفة بهذه المناطق وقد أيد إسترابون رأى أجثارخيديس الذى يرجع سبب حدوث الفيضان إلى سقوط الأمطار على هضبة إثيوبيا فى الصيف ، وهكذا فقد استقر رأى الأقدمين على هذا الرأى .

وقد ألحقنا بهذا الفصل دراسة عن مقياس النيل كما جاء ذكره فى المصادر الإغريقية ، وكان ديودور هو أول من استخدم كلمة نيلوسكوب لوصف مقياس النيل ، وذكر أهمية هذا المقياس فى حياة الناس والدولة فى مصر . أما إسترابون فقد استخدم كلمة نيلوميتر لوصف المقياس ووصف شكل مقياس النيل كما رآه ، وتحدثنا كذلك عن المقاييس التى كانت توجد على مجرى النيل من أقصى الجنوب حتى مصبات النيل فى البحر ، وقد تعددت أشكال هذه المقاييس وأحجامها فمنها ما كان على شكل بئر ومنها ما كان على شكل مدرج على شاطىء النهر بالإضافة إلى أشكال أخرى ، وكان الارتفاع الأمثل للفيضان هو ١٦ ذراعا وغير ذلك يمثل تهديدا للبلاد إما بالمجاعة أو بالغرق .

- وفى الفصل الخامس قمنا بوصف مجرى النيل والأسماء التى حملها النهر فى رحلته من النابع حتى المصب ، وذكرنا ما جاء عند هيرودوت من وصف لنهر النيل فى المنطقة التى تقع جنوبى الفنتين ، وكذلك وصفه لسكان تلك المنطقة وعباداتهم ، وأشرنا إلى ما ذكره هيرودوت من أن النيل يجرى من الغرب إلى الشرق ، وهو يقصد تلك الإنحناءه التى يتجه فيها النيل جنوبا ثم يعاود سيره إلى الشرق حيث يأخذ مجراه الطبيعى إلى الشمال .

أما ديودور فقد تحدث عن طول مجرى النيل واتساعه ، مشيرا إلى المنحنيات الموجودة فى هذا المجرى والشلالات التى تعترض مسيرته ، وقد ذكر ديودور أن مجرى النيل يحتوى على ٧٠٠ جزيرة أكبرها جزيرة مروى - على حد تعبيره . ثم تحدث ديودور عن النباتات والكائنات النيلية ، وكان أكثر ما لفت نظره إثنان هما التمساح وفرس النهر ، لذا فقد تحدث عنهما باسهاب ، وقد ختم ديودور حديثه عن نهر النيل بقوله أن هذا النهر يتفوق على كل أنهار العالم فى خيره على البشرية .

وقد ذكر إسترابون الكثير عن مجرى النيل ، وتحدث عن إنحناءة النيل الكبرى ، ووصف مروى بأنها جزيرة شأنه فى ذلك شأن ديودور ، وتحدث عن سبب تسميتها بهذا الاسم وعن سكانها وعاداتهم وآلهتهم ، كما تحدث عن الأثيوبيين فوصف لباسهم وطريقة معيشتهم ومأكلهم وعباداتهم وطريقتهم فى القتال . كما حدثنا ديودور بالتفصيل عن النباتات والطيور والأسماك فى مجرى النيل .

كما عالجنا فى هذا الفصل أيضا ما جاء لدى الكتاب الإغريق عن

القنوات الصناعية التى شقت من مجرى النيل ، مثل قناة البحر الأحمر ، والقناة التى تصل بين النيل وبحيرة موريس فى منخفض الفيوم ، وكذلك تلك القناة التى كانت تخرج من الفرع الكانوبى للنيل وتصب فى بحيرة مريوط ، وربما كان حديثنا عن قناة البحر الأحمر أكثر تفصيلاً نظرا لأهميتها ، ولكثرة ما ورد بشأنها فى المصادر الإغريقية .

وقد جاء الفصل السادس والأخير من هذا الكتاب شاملا الحديث عن الدلتا وفروع النيل ، فقد ذكر الكتاب أن النيل ينقسم عند رأس الدلتا إلى ثلاثة فروع رئيسية لا تلبث أن تخرج منها فروع أخرى حتى تصب فى البحر من خلال سبعة مصبات ، وقد إختلفت أسماء فروع النيل بين الكتاب الإغريق ، ولكنها جاءت متشابهة إلى حد بعيد بين كل من ديودور واسترابون ، إلا أن بطلميوس تناول الحديث فرع النيل بشكل يختلف عن سابقيه ، فقد فرق بين فروع النيل والمصبات وأطلق لفظ نهر على كل فرع من الفروع ، وجعل لكل مصب إسما يختلف عن إسم الفرع لذى يرتبط به .

ولعلنى بهذه الدراسة أكون قد قدمت لمسة وفاء وعرفان لنيلنا العظيم وأن أكون قد نجحت فى إظهار مدى ما كان يتمتع به النيل من تقدير لدى القدماء من مصريين وأجانب على السواء . حتى نهتدى بهم ونقدر النيل كما ينبغى أن يكون التقدير . والله ولى التوفيق

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر .

المصادر الأدبية .

Aeschylus :

- TheSuppliants . Loeb Classical Libraryy translated by H. W . Smith 1953.

-The Persians . Loeb Classical Library tr . by H.Wier Smyth . 1952 .

- Prometheus Bound . Loeb Classical Libraryy tr . by H.Wier Smyth Loeb Classical Library tr . by H.Wier Smyth .

Arrian :

- Anabasis Loeb Classical Library tr . E. I liff Robson 1949.

Aristophanes :

- The Smophoriazusae . Loeb Classical Library tr by Ben Jamin BicklyRoger .

- Plutus . Loeb Classical Library tr .by BenJamin Bickly Rogers.

Callimachus :

- Hymes . Loeb Classical Libraryy . tr . by A . W Mair

Diodorus:

- Loeb Classical Library tr .by C. H . Oldfather 1946.

Euripides :

- Helen . Loeb Classical Library tr .by A . S . Way.

Herodotus :

- The Histories . Book II Loeb Classical Libraryy . tr by A . D . Godly 1946 .

Hesiod :

Theogony . Loeb Classical Libraryy . tr . by H . G Evelyn White . 1954 .

Homer :

- Odyssey . Loeb Classical Libraryy . tr . by A . T Murray . 1946 .

Horace :

- The Odes. Loeb Classical Libraryy . tr . by C . E Bennette 1964 .

Luean :

Pharsalia . Loeb Classical Libraryy . tr . by J . D Duff 1951 .

Ovid :

Metamorphoses . Loeb Classical Libraryy . tr . by F. G . Miller

Plato :

- Timaeus . Loeb Classical Libraryy . tr . by T . R . G Bury 1955 .

Pliny :

- Natural History . Loeb Classical Libraryy . vol . 5 tr . by H .

Rackman , vo 1. 6 .tr . by W . H .S. Jones 1938 - 1962 .

Plutarchus :

- Vo 1 . 5 Isis and Osiris Loeb Classical Libraryy tr . by . F . C Babbitt . 1949 .

Polybius :

- Loeb Classical Libraryy tr . W . R . paton .

Seneca :

- Naturalis Quaestiones . Loeb Classical Libraryy . tr . by . T . H Corcoran 1971 - 1972 .

Strabo :

- Geography . Loeb Classical Libraryy tr . by . H . L Jones 1970 .

Tacitus :

- The Annales . Loeb Classical Libraryy tr . by John Jackson 1951.

Thucydides :

- The Peloponnesian war . Loeb Classical Libraryy tr . by Charles Forester Smith . 1956

النصوص البردية :

P . Mich . = papyri in the university of Michigan Collection . ed . C . C . Edgar , A . R . Boak , J . G . Winter and others . Ann Arbor 1931 - 47 .

P. Oxy. = The Oxyrhynchus Papyri ed . B . P . Grenfell , A . S . Hunt and others 1898 In Progress 46 vols in 1978.

P . Petrie = The Flinders petrie Papyri . ed . J . P . Mahffy and J . G Smyly . Dublin 1891 - 1905 .

SB . = Sammelbuch gr . Urkenden aus Agypten . by F. Preisigke in 1915 . contiued by F . Bilabel and E . Kiessling .

النقوش :

O . G . I . S = Orientis Graeci Inscriptiones Selectace , ed . W . Dittenberger Leipzig 1903

ثانيا : المراجع :

المراجع الأجنبية :

Abbadi , Mostafa .

- The Life and Fate of the Ancient Libraryy of Alexandria . France 1990 .

Ball . J .

- Egypt in the Classical Geographers . Cairo 1942 .

Bonneau , D .

- La Crue du Nil . Divinite Egyptienne . Paris 1964 .

- Le Fisc et le Nil . Paris 1971 .

Bowman , A . K .

- Egypt After the Pharaohs . London1986 .

Brown , T . S .

- Herodot Speculates About Egypt . American Journal of Philoigy . 86 . 1965 .

Cary , M .

- Geographic Background of Greek and Roman History . Oxford 1948 .

Fraser , P . M .

- Ptolemaic Alexandria . Oxfort 1972 .

Graves, R .

- The Greek Myths . 2 vols . Pelican Books 1960 .

Gardiner , A .

-Ancient Egyptian Onomastica . London 1947 .

- Egypt of the Pharaohs . Oxford 1961 .

Hyde , W . W .

- Ancient Greek Mariners . Oxford 1946 .

Jaquier , G .

- Les nilometer sous I'Ancienne Empire . IFAO . V 1906 .

Lewis , N .

- Life in Egypt under the Roman Rule . Oxford 1984.

Lindsay , J .

- Men and Gods on the Roman Nile . London 1968 .

Lioyed , A . B .

- Perseus and Chemis . JHS . 89 . 1969 .

- Triremes and the Saite Navy . JEA . 58 . 1972 .

- Were Nech's Triremes Phoenician . JEA . 58 . 1972 .

- Herodotus Book II . Leiden . Brill 1975 .

Maron , H .

- History of Education in Antiquity . London 1981 .

Milne , G .

- Trade bedween Greek and Egypt before Alexander the Great . JEA . 25 . 1939 .

Moret , A .

- The Nile and Egyptian Civilization . translated indo English by M . R . Dobie First Published London 1927 . Republished 1972 .

Posner , G .

- Le Canal du Nil a la Mer Rouge . Chronique d'Egypte . 26 . 1938 .

Preaux , Claire .

- Les Grecs en Egypt d'apres Les Archives de Zenon . Bruxeiles 1947 .

Reinmuth , O . W .

- The Prefect of Egypte from Augustus to Diocletian . Leipzig . 1979 .

Smith , H . S .

- Varia Ptolemaica . Glimpses of Ancient Egypt . Studies in honour of H . W . Fairman London 1979 .

Smith . E . A .

- A Dictionary of Ancient Geography , New York 1964 .

Turner, E .

- Greek Papyri . An Introduction . Oxford . 1980 .

Warmington , E . H .

- Greek Geography . London 1934 .

Witt , R . E .

-Isis in the Greco Roman World . London 1971 .

Yoyotte and Sauneron , S .

- La Campagne Nubienne de Psammetique II et sa Signification historique . IFAO . 50 . 1952 .

المراجع العربية :

ابراهيم نصحى .

- تاريخ مصر فى عصر البطالمة . اربعة أجزاء .
مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٨٧ .

- تاريخ التعليم فى مصر فى عصر البطالمة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٥ .

أحمد فخرى .

- مصر الفرعونية . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٦ .

أحمد عتمان .

- الأدب اللاتينى ودوره الحضارى . سلسلة عالم المعرفة العدد ١٤١ . الكويت ١٩٨٩ .

أمين سلامه .

- معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية . الطبعة الثانية مؤسسة العروبة للطباعة والنشر والإعلان . القاهرة ١٩٨٨

برستيد ، جيمس هنرى .

- فجر الضمير . ترجمة سليم حسن . سلسلة الألف كتاب (١٠٨) القاهرة ١٩٨٠ .

ثروت عكاشة .

- الشاعر أوفيد . مسخ الكائنات . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٤ .

جان فركوتييه .

- قدماء المصريين والإغريق . ترجمة محمد على كمال الدين ، د.كمال دسوقى ومراجعة د . محمد صقر خفاجة . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٠ .

حسن صبحي بكري .
- رسالة بلوتار خوس عن إيزيس وأزيريس . مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة . الجهاز المركزى للكتب الجامعية القاهرة ١٩٧٧ .
رشدى سعيد .
- نهر النيل . دار الهلال القاهرة ١٩٩٣ .
عبد اللطيف أحمد على .
- مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٥ .
- مصادر التاريخ الرومانى . مكتبة النهضة العربية بيروت ١٩٧٧ .
- التاريخ اليونانى . دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١ .
عبد المعطى شعراوى .
- أساطير إغريقية (أساطير البشر) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ .
عبد العزيز صالح .
- الشرق الأدنى القديم . مصر والعراق .. مكبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٤ .
عبد الله حسن المسلمى .
- كاليماخوس القورينائى . شاعر الإسكندرية . مكتبة سعيد رأفت القاهر ١٩٨٧ .
كوملان ، ب .
- الأساطير الإغريقية والرومانية . ترجمة أحمد رضا محمد رضا. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٢ .

لطفى عبد الوهاب يحيى .
- هوميروس . تاريخ حياة عصر . مركز التعاون الجامعى الإسكندرية ١٩٦٨ .
محمد صقر خفاجة .
- هوميروس . مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٥٦ .
- هيرودوت يتحدث عن مصر . تقديم وتعليق الدكتور أحمد بدوى . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٧ .
محمد عوض محمد .
- نهر النيل . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٦٢ .
مصطفى العبادى .
- مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٥ .
مصطفى كمال عبد العليم .
- دراسات فى تاريخ ليبيا القديم . بنغازى ١٩٦٦ .
سليم حسن .
- مصر القديمة . القاهرة (بدون تاريخ)
سيد الناصرى
- الإغريق تاريخهم وحضارتهم . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٨١ .
وهيب كامل .
- استرابون فى مصر . القرن الأول قبل الميلادى . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٣ .
يوسف كرم .
- تاريخ الفلسفة اليونانية . مكتبة النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٦

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل السادس





رقم الإيداع ٨٤١٣ / ١٩٩٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 5487 - 34 - X
مطابع زمزم ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق